WESAM ALMADANI

رواية
NOVEL

وسام المدني

شيزوفرينيا جسد

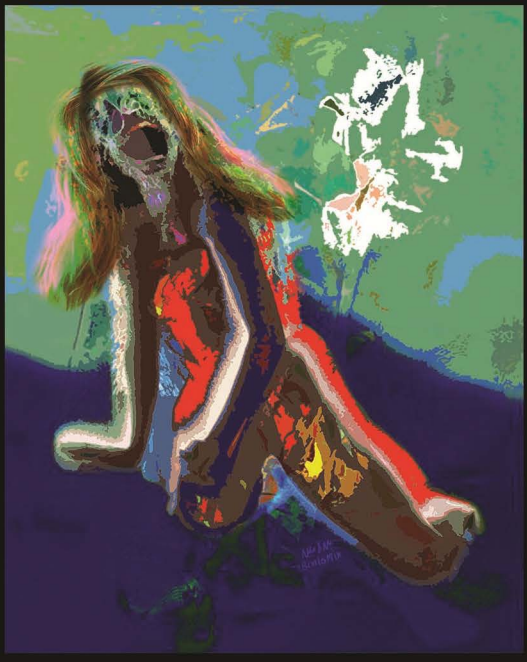

وسام المدني

شيزوفرينيا جسد

شيزوفرينيا جسد/ رواية
وسام المدني / مؤلّف من فلسطين
الطبعة الأولى، 2020

حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة – شارع ميشال أبي شهلا – متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU – بناية النجوم – مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 – 707891 1 00961
بـيـروت – لبـنــان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونـيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: **الصرخة – محمد بن الامين**/ ليبيا
الصفّ الضوئيّ: **المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر**/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس** / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

الترقيم الدولي: ISBN: 978-614-486-139-4

رواية
NOVEL

وسام المدني

شيزوفرينيا جسد

«إن النهاية لن تكون نووية، موت العالم سيأتي نتيجة انفجار روح لم تعد تحتمل كل هذا الوجع، لم تعد تحتمل ثقل ذاتها أو انعكاس العالم النائم في صدرها، النهاية ستأتي من نبع البداية الأول، روح بشرية واحدة تُوَقِع الإعدام.»

وسام نبيل المدني

إهداء لها....

ارقدي في محبتنا

الكذبة الأولى

من حل اللغز الشائع الصيت كان أشد الرجال اقتدارا

سوفوكليس

أسبح في فضاء أبيض. أحاول التقاط ورقة من بين مجموعة أوراق تغفو فوق مكتبي الصغير مرسوم عليها غراب يفرد أجنحته محلقاً، وجسدي ملقى على سرير متواضع غارقا في دمه. تُحيط به وجوه غريبة ترتدي الأبيض ، مُحاوِلَةً إعادة الحياة له لكنه ببطء يتخلى عن آخر ما يربطه بعالمهم. خلفهم صديقة الطفولة «مها» تائهة في دموعها ودهشتها.

ما الذي جاء بكِ؟

على المواعيد السير في مسارات منتظمة غير متقاطعة حتى لا تقع حوادث مِفصلية تُغير التاريخ -على الأقل تاريخي أنا- لقد سار كل شيء كما خَطَطتُ له حتى باغتتني صرخَتها واندفع الجميع بلا استثناء لإفشال كل ما وددت حدوثه - استعادتي - من الوقاحة أن يتولى غرباء سلطة اتخاذ أهم قرارتي فقط لأنهم يحملون مسمى طبيب. تُزاحم صديقتي الممرضين محاولةً حماية

جسدي من عيونهم. تُمرِّرُ أصابعها بين خصلات شعري بكل حزن وألم.

ينتابُني شعور بضيق الوقت، وكأنني على موعد مجهول عليَّ اللحاق به. أكتبُ مذكراتي بلا أوراق. أنثر صوراً ضبابية عديدة لنسائي أو عشيقاتي. لوجوه لبِستُها أدارت قصتي وأَدرتُها. تملؤني التجربة بالنشوة، يرتجف جسدي تحت أيدي المسعفين وروحي ترفرف لامبالية. أرى العالم واضحاً أكتشف وجهه ويكتشفني. لأول مرة أحلق حرة بلا خوف، كياني أخف من الهواء، خاوية بلا مشاعر أتأملني وأتأمل ضوضاء الكون من الأفق.

أنا كائنٌ فقد ظله، غدا بلا أَصل، ابتلعه فضاء من أسئلة، أَفنى روحه في استكشاف تفاصيله. يدوي صوت أمي حازماً وهي تُعِدُ حقيبة أول يوم دراسي:

– لا تحدثي الأولاد أو تلعبي معهم. هذا عيب لو رآك والدك تفعلين ذلك سيذبحك.

– لكن أخي ولد.

ازداد وجُهها صرامة واسترسلت بصوت منخفض:

– افعلي ما أقوله بلا ثرثرة. الفضوليات يجلبن العار لأهلهن. والأولاد في الخارج ذئاب تنتظر فريسة سهلة.

قيل إن الدمية التي تُصنع على شاكلة شخص ما بقدر حرفية صُنعها تبقى أقرب للدمى من الشخص الذي صُنعت من وحيِه هكذا كُنتُ. وُلدتُ مُشوهةً أُحمل ملامحَ كونٍ آخر. هل كنت ذلك المسخ كما نعتوني؟

بشعة حد أن ينبذني أقرب الناس ، أواجه موتاً يلاحقني أينما وليت وجهي.

أغرب الخطايا تلك التي ندفع ثمنها بلا اقتراف، وأدمى وجع ذاك الذي تدسه أمك في حليبها حين تتنكر لك. ما الذي يعنيه الحب وسط عالم تملؤه الكراهية؟ كراهية تنبع من الخوف لا الكره. أهذا ما قَصَدَتْهُ حنَّا أرنت[1] في حديثها عن تفاهة الشر؟ أَنهُ ينبعُ من مصدرٍ بعيدٍ كلَّ البعد عن الشر.

– أنتِ، نعمْ أنتِ أيتها الروح المُسَماةُ أَنا، هل تشعرينَ بالوحدة وتُثقلُكِ آثامكِ؟ أيتسللُ لكِ النعاس خِفيةً رغم خَشيَتكِ كوابيسكِ السريةِ؟

تتساقطُ كلَّ فكرةٍ طاردتني وكل حلم اندفعت يوماً له ولا يزال جسدي ينتفض. امسحوا عن فمي الزَبَد أكره رؤيته ملوثاً، لا تبكي يا «مها» ليتني أملكُ أن أقول لكِ إنني بخير. أنا عالقةٌ هنا، كتلة طاقة في الهواء تَجهلُ وَجهَتَها. كتلةٌ قدَّر العلماء وزنها بـ٢١ جراماً. عجيبة هي الروح رغم ضآلة حقيقتها تتمدد كالوهم لتصيرَ رَبَ هذا الجسد. يَتسعُ ثقب السماء مبتلعاً كل شيء دُوني، لطالما أثار تَرَدُّدُ الموت سَخَطي، أكان عليه أن يُكَتب بهذه البشاعة؟

في هذه اللحظة المالحة تملؤُني الربما، أي الدروب سيسلكُ مصيري؟

---

(١) مفهوم «تفاهة الشر» ابتكرته الفيلسوفة الألمانية حنًا آرنت .

بطيئة أيدي الأطباء وأجهزتهم، أشعر بضجرِ الانتظار، الثواني تتمدد وتنشطر. هل سأرحل؟ أم أنتظر دوري في سلم الموتى؟

ميوعةُ الموتِ تَفرضُ سُلطَتَها عليَّ، تتركني معلقة أترقبُ توقيعَه الأخير بلا مقاومة.

– وجدتُ هذه العلبة فارغةً بجوارِ حقيبَتِها حين وَصَلتُ.

قالتها صديقتي محدثةً أحد الأطباء وفي يدها علبة دواء فارغة.

انطلقَ دَويُ سيارة الإسعاف يتجاوز الطريق وبيوت حَينا. تختلط الذاكرة برائحة الأدوية وتَمُرُ أمامي خلف زجاج الإسعاف المبلل بالندى.

خفيفةٌ أقفزُ بين ثُقوبها، أُعيد تلوينها أمنحَها هبة الكلام رغم صمت الجسد.

وجوهٌ كثيرةٌ تَقفزُ على جوانب الطريق، تعبُرني وأعبُرُها. عبوس أبي، عيون أمي الزائغة ورغباتي.

– أريد أن أكون امرأة.

تَمرُ سيارة الإسعاف بمدرستي فأذكر حمام المدرسة بطل حكايتي حيث التقينا أول مرة، صورة تُمحى على الفور يحلُ محلَّها وجهُ أبي الغاضب يجُرني من شعري خارج هذه البوابة القديمة من دون تدخلٍ من الحارس أو المُدرسين. الذاكرةُ تَتَلعثم تغرقُ أكثر في قِصَصِها.

لقائي الأول بـ سُنةِ الحياةِ –الزوجُ ذو السبعة أيام – رجلٌ لا أذكرُ منهُ سوى غَضبِه. السؤال مُجددا لكن في هذه المرة لكَ أَنتَ

أيها الزوج، كيف أنزعُ رائحتكَ عن وَجعي؟

يزدادُ لُهاثُ الذاكرة، تَطِنُ بعنفٍ أجنحتها. عَليَّ قيادة الصور المبتورة بحذر أو تركها حرة ترقص. ألستُ روحاً تحت التدريب. على سبيل السخرية أذكر قول إحداهن:

في أيامي الزوجية البائسة، نَمَتْ قدرتي على شراء قمصان تناسب عرض كتِفَي زوجي – وإن كان غُروره لم يمنحني هذا الترف – إذ تصدرا بطولة أمسياتنا الزوجية المتلاحقة. كانا أكثر ولاءً من فُحولته في احتوائي ، وأنا ذلك الجسد الذي أُريقت كرامته مُحاولاً إشباع شهوة رجل عَبدَها دَلَّلها ولم أكن جزءً منها. يتناولني بعنفٍ كمحاربٍ أرادَ إعلان أُلوهيتَه المُطلقة على ضعفي. يقلبُني على بطني ثم يدخلُ بي دون اكتراث لألمي ، يَسكُبُ ضَعفَه الغريزي بقوة داخلي، مرةً تلو الأخرى بعنفٍ حتى تنبعث منه رائحة بيضاء تشبه الموت لها شكل وجعي وحجم بشاعته. يدفعني للأسفل كي أنظف بقاياه ثم يدير ظهره متناسيا وجودي ويستسلم للشخير. هكذا انتهى حديثها.

هل فكر الراعي يوما بسؤال دابَّته عن حاجتها الحقيقية؟

وذلك الثور الأحمق، هل أدرك من الوجود شيئاً غير تلك الأجساد المتتالية؟

أجساد أفرغَ فيها قسوة العصا، خشونة اللجام، ثِقل العربة، وذكورة لم يمتلك منها شيئا استجابة لمشيئة مالكه. رائحتكَ، تبا لرائحتكَ، يدٌ من قسوة.

– هذا الجسد لي بأنوثته وذُكورته، أُخرج من مساماتي. لأول

مرة أَذكركَ -أقصد الرجل بأدواره الموجعة في حياتي وحيوات نسائي- دون أن أبكي.

تتابع المشاهد رُقعاً غير مرتبة، يبدو ممتعاً رؤية تلك الأحزان دَفقةً واحدةً بلا أدنى حزن، حيث ترتفعُ حرارةُ الذاكرة لاهثة ، ربما عليَّ أن أكون أكثر تعقلاً في قيادتها كي أصل إليَّ بعد أن أَضعتَني عُمراً كاملاً.

سأعود لطفولتي حيث البداية كي تبدو الرحلة أكثر احترافية، طفولةٌ لا أذكر منها سوى وميض ضبابي الملامح لا إعراب له، حيث كل شيء مباح، أرتدي ملابس أخي، تضحك أمي، أقول ما يجول بخاطري. تَرَفُ سنوات الطفولة القصير سرعان ما ينقلب. يصير أولاد الجيران وزملاء المدرسة ذئاباً تشحذ أنيابها كي تأكلني، كما تُكررُ أمي دائماً:

- لا تكلمي الأولاد، لا ترتدي ثياب أخيكِ، عيب، إياك أن.. حرام. عيب، لا تفعلي.. حرام.

حاولتُ إخبارها ذات مرة أنني لستُ فتاتَها المنشودة- التي أزهرت وتَدورَ قَدُها- ارتديتُ ملابس أخي ليلاً وخرجتُ مُتسللة إلى الحارة للعب كرة القدم مع أولاد الجيران. من بعيد رأيت أبي قادماً ووجُههُ ينفجرُ غضباً ، أمسك بياقة القميص الرياضي وجَرَني إلى المنزل ألقاني في وجه أمي صارخاً:

- هل هذا ما نشأتِ عليه في بيتِ أهلك وورَّثتِه لابنتك، تتركينها تلعب بالشورت في الشارع مع أولاد الجيران؟

هَبَطَتْ كفهُ على وجهي مُعيدةً تشكيل ملامحي، بقع زرقاء

على هيئة أصابع ضخمة لطَخَتْ وِجنتَيَّ لعدة أيام، تلك آخر محاولتي لأكون ما أردت.

أراقب وأسمع، هكذا مضت الأيام بعدها.لا أملك شيئاً أقترفُه سوى الصمت. كوابيسُ تتصدرُ نومي المتقطع وصباحاتي الرتيبة.

فمي الصغير فشل في قضم القمر، رغم اقتناعي أنه مجرد قطعة حلوى، كفي ذو الخمس ديدان، كما تسميه أمي، فشل في حجب نحيب الليل عني. تستطيل ساقاي يوماً بعد يوم ولا أجد لها جدوى، تغادر عتبة المنزل ولا تغادرها سطوته. يقول جان جاك روسو[٢] «حرية الفرد تكمن في أنه يستطيع أن يفعل ما يريد، بل في أنه لا يجب عليه عدم فعل ما لا يريد».

لذا فأنا عبدة حتى في حضوركِ المشتهى، ذكراكِ تنهيدة تتحشرج في حَلقِي، رغم موت الصوت. سأقف احتراما لبدايتك وأعطيها بعضاً من حقها كونها صانعةَ قصتي. يدُ المسعف تضغط بقوة وإصرار، تمهل يا رجل إلحاحُكَ يؤلم رحيلي.

***

تتدحرج الأروقةُ من حوله، يقطع الممرات مسرعاً صوب غُرفتها، لم يعد يكترث لنجاحه الطبي أو فشله، إغراء صمتها ووحش فضوله هما وقود هذا الاندفاع نحو مجهول غلَّف ظهورها الأول بالمشفى.

غرفتها، مجرة سرها. راح يقذف بالجوارير بلا اكتراث، لا

---

(٢) جان جاك روسو كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات .

يظنها عائدة على أية حال، مشهد انتحارها لم يغادره، تلك اللحظة فاقت نفوذ صمتها.

في أحد هذه الأدراج تسكن روح عارية، أخفتها بحنكة سيدة، يلفها صمت جليل يملأ غُرفتها ويفيض عن جدرانها، سبعة أعوام من مزاولة الطب النفسي مَنحته هيبة، شهرة، منظاراً طبياً وبضع شعرات بيضاء ، لكنها فشلت في غِواية لسان امرأة اختارت بإرادتها أن تهجر عالم المال والحياة الأسرية المستقرة وتسكن هذا المشفى النفسي.

-أين تُخفي ذلك الدفتر؟

تزينت بالغموض منذ وصولها. دخلت غرفة الانتظار حاملة حقيبة يد صغيرة توحي بأنها مجرد زائر.

- أعتذر، مواعيد الزيارة قد انتهت.

- أحتاج إلى غرفة لي.

ردها المفاجئ صعقني، من المعتاد سماع مثل ذلك الرد في بهو فندق أو نزل لكنها تبدو كـ قطعة حلوى غارقة بالملح حين تُسمع في مثل هذا المكان. وددت الصراخ في وجهها مجيباً بأنه مشفى نفسي، لكن الدهشة ألجمتني. وصول مدير المشفى الذي تولى الحديث معها مصطحبا إياها إلى مكتبه أنقذ الموقف.

كما هي عادة القدر يُحوك الأحداث بصنارته كي يصنع منا قصصا يرويها.

اُخْتِرْتُ طبيبا لها بلا سلطة أو صلاحيات، بذلت كل ما تعلمته ، أنهكت كتبي بحثاً عن وسيلة تنجح في حثها على

الكلام، ولم أفلح. كموسم البرد تدخل كما تخرج، بلا سابق إنذار أو أجوبة.

«كلما جَنَّ اللَّيْلُ يزأر جوعي، يمزق الحرمان أوصال حُلمي، تغزوني الهواجس، رجفةً تعصف بأطرافي الباردة.»

«تجلسُ بين ذراعيَّ، كوشم تُزين صدري، تشيع الأمان بين ضلوعي، لا أعرف لها شكلا ولاً اسما، تفاصيل مشوشة لكنها دافئة، هي سلام مقدس، يُرتِلُ صلاة على جسد.»

إنه الدفتر، كلماتها تليقُ بامرأة صامتة تخفي عالما بأكمله، قصص وأوجاع تقبع في صدر أوراقها. حمى اللهفة تتصاعد، يجلس الطبيب بلا وعي على السرير وعيونه تنهل السطور.

الكذبة الثانية

الحبُ هو فضيلة الفضائل، فهو يفقدنا الوعي بما هو أرضي، ويملؤنا بما هو سماوي، وهو بذلك يُخلصنا من كلِّ شعورٍ بالذنب.

ميلان كونديرا

لحظة مجهولة من يوم شتوي ما، أجلس على مكتبي وأستعد للكتابة. فعل تجنبته طويلاً، رسم روحي عارية على الأوراق، كسر الصمت، البوح بكل ما خفته وأخفيته. شيء من ذاكرتي يتهيأ للقفز، التحليق خارج هذه الهشاشة المسماة «جسد».

الرغبة نيران مقدسة، شعلة في داخلي لا تنطفئ أحاول الانتصار بسطوري على هزائم نومي المتكررة. صوت يقتلع اخضرار جذوري ، جموحه يسحبني صوب الفراغ، أبحث عن مرساة، ارتجافات ساقيّ المجنونة تُضيع الأرض أكثر وأكثر، يزداد صراخ الصوت، يهاجمني وأزداد سقوطاً. أغلق أذني بكلتا يديَّ لكنه لا يصمت أبدا. أستسلم، فيتوقف محتفياً بنصره اللزج، يرتاح قليلاً ثم يعاود الصراخ من جديد.

كلما جَنَّ اللَّيْلُ يزأر جوعي، يمزق الحرمان أوصال حلمي، تغزوني الهواجس، رجفةً تعصف بأطرافي الباردة، وذلك الصوت

يعلو يصير تنيناً، تضرم ناره روحي تثقبني وتتسلل خارجةً شياطيني الصغيرة، تغدو رغباتي الرمادية حقيقة أتنفسها وأنتشي.

أحلم بها تجلس بين ذراعيّ، كندبة تزين صدري، تبث الأمان بين ضلوعي، لا أعرف لها شكلا ولا اسما، تفاصيل مشوشة لكنها دافئة هي سلام مقدس يرتل صلاة على جسد.

كالأغصان تتمايل، أشدها إليَّ أحتجزها في حضني، أمد يدي لأستنشق عنقها، تذوب كالدخان يبلعها الهواء.

لا تتركيني ـــــــــلا

صرخة تقتلعني من عالمي السري. أستيقظ متعرقة لاهثة كجندي عاد للتو من معركة لم تكتمل، طيفها ما زال يتغنج يملأ صحوي.

حلم يرافقني كمعرّفي الرسمي، كلما قمعت تلك الرغبات المجنونة نهاراً تشق طريقها إلى ليلي فتقضي على كل شيء. بيد ترتعش أتحسس وجهي ذا الملامح الغريبة، غرفتي بلا مرآة كسرت كل المرايا، اعتدت الحياة دون انعكاس لكن ذلك لم يجدِ. الشحوب لا يزال يسجنني، تلك كانت بداياتي. كنت ممسوسة بذلك الظلام الذي يلف كوني بداخله، ويسحق كل محاولات تمردي، إدراكي لهويتي عالق في تلك المتاهة، كل يوم أحاول جاهدة طي طبقة جديدة لكن السواد يعيق تقدمي. يتمدد الوقت ونظرتي للأشياء مجزأة، أشباح الخوف تستهلك أفكاري، لهفة تذوق الاكتمال تنهشني، رغبة دفينة تزجني في غابات الليل بحثاً عن ما يكمل نقصي ويعيدني لسيرتي الأولى كائنا أرضيا لا أكثر.

أتلفت حولي بتوتر، عاصفة، ضربت فراشي، كل شيء على غير موضعه كأنه باحة نزال لنشوة لم تنتصر. أبحث عنها بجنون أريدها، ورقة مخفية تحت وسادتي، ورقة بيضاء أرى عليها ملامح من شاركتني حلمي، أفتحها بلهفة وأضمها إلى صدري، طقس أمارسه عقب كل حلم.

أعود مرغمة من انحداري الشائك نحو أشد أركان روحي انغلاقا وسرية، بالكاد استعيد رزانة أنفاسي، أنظر إلى الساعة لا وقت لدي للمكوث في مملكتي، أغادر فراشي، بفتور مجرد فروض صباحية وجب تأديتها.

على عجل أرتدي أحد أثوابي الواسعة، في حقيقة الأمر كل ملابسي فضفاضة، أكره جسدي أخفيه كأية خطيئة كما تفعل كل هذه الكائنات الفارغة – البشر– هنا فقط تجلت لهفتي إليكِ رغم أني لم أصادفكِ بعد، حدث طازج له رائحة الرجفة الأولى ونكهة السر الأول.

***

روح يضمها هواء الحرية العذب تحلق.

أحلق فوق سقف الإسعاف، أخترق الفولاذ كساحر أو كجني عبر زمن سليمان عليه السلام، أرافق جسدي رغم الصعود، فلا زال يربطني به بعض المعاملات السماوية إذ لسبب ما لم ننفصل بعد.

تفوح من الطرقات رائحة حنين عتيق، على هذا المقعد كانت تنتظر السائق. في ثمالة أُغمض عيني وأفتحهما، أداعب متعة التذكر، تتصاعد مني أبخرة، أتحترق الروح أيضاً؟

يتشكل الدخان في صورة مألوفة، إنه طيفك يبتسم، البراءة ذاتها والعيون ذاتها، بإيماءة يخبرني أنكِ هنا.

أتذكرين لقاءنا الأول؟

***

يُقلِّبُ الطبيب الورقة مسرعاً كأنه يخشى موت الحبر حزناً على صاحبته، ينهل السطور غير عابئٍ بالكون.

صفاء، أتذكرين ذلك اليوم. الشتاء الشهي هو أول الشهود على قصتنا. شوارع رمادية تحث السيقان على المشي، غيوم تفترش الطرقات، أشجار مصففة الشعر، بيوت أنيقة وأخرى باهتة تمر سريعا بي، أبواق خافتة تخشى إزعاج الفجر الناعس. دموع السماء تغرق جبين مركبتنا، والممسحة في ضجر تطارد القطرات. كتل القطن الرقيقة تحتل بيت الشمس، تحظر الضوء. لوحة شتوية ضبابية، كم تبدو المدينة جميلة حين تسقط صريعة البلل. البلل جشع شهي يستوطن الكون بأكمله.

توقفت سيارة أبي معلنة الوصول، بوابة مدرسة شاهقة ذات حارس مجعد الشعر غير حليق، شاحب المبسم يرتدي جلبابا أثريا بعمر البوابة التي رافقها طويلاً. يصرخ بصوته الأجش:

- الجميع يدخل سأغلق الباب.

كعادة أول يوم دراسي كل شيء صاخب. ساحة كبيرة توضأ عشبها غيثاً وتوحلت ملامحها، البعض يختبئ من المطر تحت جناح الأبنية، يتسامرون ويضحكون، والبعض الآخر ضفادع تقفز بين القطرات، عبثاً يخدعون أنفسهم بشيء من طفولة سرقتها

أنوثتهم المشتعلة، أذكر ملامح كل شيء كأنه الأمس.

المدرسة الثانوية صندوق الشرانق، بعد أعوام ثلاثة تتحرر الفراشات من عبودية الحقيبة الثقيلة وقيود الزيّ، تمر بها الأيام وهي على حالها، الرواد ذاتهم والترهات ذاتها وإن اختلفت الأسماء والتقاسيم، أحلام عظيمة وأخرى تافهة تحتجزها أجساد الصفوف، قصص عشق مراهقة، مغامرات دونكيشوتية وأعين يثملها التمني وحسن الظن بأيام لا حُسن فيها.

غريبة أنا كفنجان قهوة على مائدة الصباح، لا صديق له ولا يدري في أي رضاب سيعجنه القدر. القدر ذلك المايسترو المحترف يوزع الأدوار وينظم الموسيقى، دو ري مي سيمفونية خريفية مزركشة ما بين وجع ولهفة، حب وكره، انتصار وهزيمة، خسائر ومكاسب هي معزوفة الحياة الأزلية، دولاب يدور منذ الأزل.

توقف نزف السماء ودب في الأرض لغط الأحذية، رويدا رويداً تسلل الجميع إلى الساحة. صباح كغيره بلامبالاة تتجول عيناي في أروقة المدرسة، معلمات أم ضباط سجن نسائي، البسمة عدوهم يخالهم المرء مستذئبين في أحد أفلام الرعب الرديئة، الفتيات يملأن الباحة، همس صاخب شتَّت تأملي، اصمتوا، صرخة تمنيت تحريرها لكن بلا جدوى.

هدوء، الحكاية تبدأ حين يضرب الصمت المكان رغم ازدحام الصوت.

لمحتُكِ هالة ضوء استثنائية، عيونك اللوزية كون مطلق العمق، ابتسامتك تبث النور والسلام على كل ما حولنا، كان لحضنك

رائحة الدفء رغم بعد المسافة، نَفَحات دفؤكِ تملأ أنفي. تزلزل روحي، تحلّق بي أنفاسي تتسارع، لا تبتعدي، كوني هناك حيث يغمرك نظري، أتبتسمين لي؟

كما قال نيتشه[٣] «من أي نجوم أتينا لنلتقي أخيراً»

المدرسة مرة أخرى تسرق لحظاتي مني، دق الجرس.

لكن لا سلطة للصوت عليَّ.

***

نظراتي الممشوقة تمر بكل شيء، وكأنني على موعد معك !

تعبر سيارة الإسعاف المدرسة الفارغة بلا اكتراث، لكن الذاكرة تعود بي لذلك اليوم حيث امتلأت ساحتها بالطالبات. لا أرى في عيونهم ما يوقظ لهفتي، تصب الوحدة سمها في جوفي، كلماتي مختنقة لا تغادرني، عيوني تجوب أزقة وجوههم الغريبة، أنقب عن قصة تغزل حكايتي وتزيل أنقاضي.

حين لمحتك كنتِ تبتسمين لشيء ما ربما كان تافها أو ذا معنى، لا يهم، حولكِ ثلاث فتيات كن مجرد سراب، وحدكِ تغمرينني، كثيراً ما سألتني لماذا أنا؟

وبعد كل هذا العمر أقف أمام طيفكِ بلا إجابة، إنه القدر

---

(٣) فريدريش فيلهيلم نيتشه (بالألمانية : Friedrich Nietzsche) ١٥ أكتوبر ١٨٤٤ – ٢٥ أغسطس ١٩٠٠، فيلسوف ألماني ، ناقد ثقافي ، شاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية .

يحـرمنا، يشـد قـوس تعطشـنا، ثم يزرع بذور الشـغف بنا ويتـرك لـنا عبء سقياها.

تلك المشاعر البدائية تربك اتزاني، وتفقدني معالم الطريق.

صوت في العمق يحدثني، يهزني يربكني يحملني صوب بقعة سوداء مخيفة يسكنها الـ«هو[٤]» كما وصفها فرويد وخشيتها أنا.

أحتاج ضمة أم، وأحتاجني أيضاً.

ألا تجيبين أم أن جزءا من دور الطيف الصمت أوَلستُ طيفا أنا أيضاً، لِمَ لا يسكت هذا العقل؟

لماذا ينثرني قمحاً ويجمعني بمنقار الحيرة حبة حبة؟

***

أرى الحب كالقيامة، الناس سكارى وما هم بذلك، كثيرا ما كانت تغضبني علاماته، يهجر المرء بيته، طقوسه، عاداته، تلغي كينونته، تُلقَي كرامته في إحدى الحاويات ويغدو ظلاً باهتاً، شخصاً فقد ملكيته لذاته، أصبح عبداً قانعاً لجرم سماوي، وأكثر هؤلاء تذللا هو الأسرع هجرا. دنيُء هو الحب خَشِيتُه رغم توق القلب الخفي له، فتاة صحراوية السلوك مثلي، مازوشية[٥] اعتادت

---

(٤) هو : أحد ثلاثة مصطلحات قدمها سغموند فرويد، الهو والأنا والأنا العليا ، قدم فرويد هذه المصطلحات ليصف فكرته عن التقسيم بين العقل الواعي conscious والعقل اللاواعي : الهو 'id' والأنا 'ego' والأنا العليا 'super-ego' .

(٥) اضطراب المازوخية الجنسي أو الماسوشية أو المازوخية أو المازوكية أو الخضوعية، وتعني الحصول على المتعة عند تلقي التعذيب الجسدي أو النفسي .

ذاتية التعذيب، تعتبره تهديدا كبيرا على قلبها العربيد، الذي لا يقنع. آخر ما ينقصني التداعي حباً.

في رحلتي الروحية متاهات تأخذني بعيداً ثم تعيدني لبكارة الفكرة الأولى. قيل إن السعادة ليست في المكان أو الزمان بل في دواخلنا، إلا أن تشابك الرغبات وتواتر الآراء العمرية يفقدنا قدرة التمييز، كمن يحاول تجربة العطور وبعد الرشة الثالثة تختلط عليه الروائح. نرضى بالخريطة كنزا بديلاً عن السعادة.

«صفاء» خريطة أُسقطت عنوة بين عروقي، شاغلي الوحيد أنتِ.

ماذا أريد؟

سؤال أوجع عقلي بحثاً، صدقاً لا أدري، ولعي بكِ يزداد يوماً بعد يوم، ولع مبهم لا سقف له ولا أرض، مجرد فوضى لذيذة تغذي روحي بسببية الحياة.

تقادم الأيام يشعل الرغبة في المزيد، مزيد من ماذا؟ لا أدري أيضاً!

مضت أشهر وأنا أفقد شهية كل شيْ، تناقص وزني، ازداد توحدي بغرفتي، أفني وقتي في تأمل اللاشيء، عيوني المفتوحة عن آخرها، عمياء.

أتوه أكثر في داخلي، تتكدس كل المشاعر بشكل عشوائي، خليط من الحب والقبح وشيء من الجنون والرداءة، نشوتي الراكدة وبقايا أمنياتي الخائفة.

شهور أججت شوقي وأطلقت مزيدا من أسئلتي العقيمة،

أتابعك من بعيد، طقس يومي يمارسني، يغرقني في حيرتي أكثر وأكثر.

كلانا يأكل الجبن بلا اتفاق، أرتدي حذائي الأزرق، ترتدين حذائك الأزرق أيضاً، تفاصيل تبدو هامشية لكنها لب الحكاية، لم يجمعنا حديث لكن كل ما حولنا كان يجمعنا.

دهشات متتالية أرغمتني على الانغماس أكثر في العزلة، محاولة عابثة لتصفية ذهني، وإرجاع الأمور إلى بواطنها، علَّ التأمل الهادئ يحملني صوب أجوبة.

توحدنا، ترابطنا دون أدنى اتفاق.

ما ضللتك يوماً رغم الحشود، كأن ريشة وقتت مواعيدنا بين دفاتر الحياة.

اندماج أخرجني من تلافيف الوحشة المظلمة، ببساطة منحنى العالم.

أكان عليكِ أن تشبهينني بهذا القدر؟

يَقلِب الطبيب الورقة ويتابع حروفها بلا وعي.

تتوالى الأيام وأنا على حالي لا أذهب إلى مدرستي إلا لألقاكِ، كانت عيوني تكلمك، تبادلك النكات والدمعات، حتى باتت عيونك تلاحظني أيضاً وتبادلني صمتا عامراً بالكلام.

كل صباح أقسم إنني سأكسر هذا الصمت، وتخونني الكلمات.

قد أبدو حمقاء حين أقول ذلك، ما الغريب إن تقدمت فتاة وكلمت زميلتها، لكن الأمر لم يبدُ لي كذلك، ربما لأن خبلا ما أصابني، أم هي رهبتي من «العيب»، تلك الكلمة التي صنعها

البشر لتدنيس كل زهرة تفتحت بين غصوننا بلا منهجية. ما هو العيب؟ كيف يبدو؟ بماذا نميزه؟

لا أعرف أظنها مجرد فرضية خلقها دغمائي متطرف سعياً لاغتيال بهجتنا. كلمة جعلتني ألبس الفضفاض قبل أن تتلبسني أنوثتي هرباً من سياط «العيب»، ملح حديث أبي يدسها بين الجمل كي تزداد لحيته غزارة وفحولة.

ضللت المسميات لم أكن أعرف لمشاعري عنواناً، تلك المتاهة جعلتني لصاً يكشف نفسه ارتباكاً وكأنه يقول خذوني!

أحتاج إمعان التفكير وتصميم خطة ما، لأستلّك من كف أخت تلازمك كـ ال التعريف، كأنها تخشى على خدك المخملي من لمسة نسيم عابر، أو من حلول الربيع على شفتيك.

رغبة البوح تعوي، تعصف برأسي، تزجني في متاهات فكرية لا تنتهي.

يوم آخر يأتي وأنا ألتمس من القدر فرصة ما، عيوني تتابعك كظل حتى دنت اللحظة المرتقبة، لمحتُكِ تقفين وحيدة بباب الصف وأنا في الممر كعادتي وساقاي تقطع المسافة حذرةً. صمت جنائزي، كهل يوشك على الانفجار، أكاد أصل محملة بلهفتي، عيوني، ضائعة في المكان، خائفة، أنفاسي تشتعل، كل شيء مهيأ لولادة كلمة أَرَّقتْ ضلوعي شهورا طويلة.

تشنجت خطواتي فجأة، توقف كل شيء، ظهور أختك من الخلف بمثابة زلزال يطيح بحلمي على مضض، شقت طريق الصف عابرة كلتيكما.

يوم آخر يذهب سدى، والأمنية في داخلي كسرطان تكبر سريعاً تخنق أفكاري. لم أطمح بأكثر من اكتشاف ماهيتك بداخلي. كل صباح أقسم إنني سأكلمك وتخونني الكلمات، يتفاقم قهري ويحتدم نواح السؤال بي، متى تتآلف الفرصة معي؟

أجالس أوراقي مرة أخرى، الاستفهام يتحشرج في حنجرتي ولا أملك سوى هذا البكم البغيض.

فكرة لاحت لي، كقارب إنقاذ ينزع الغريق من براثن الموج، لِمَ لا أكتب لك رسالة وألقيها بين دفاترك؟

لكن ماذا سأكتب؟

جفت الأفكار، وتبخرت الأبجدية على ناصية الورقة.

لا شيء يكتبني، الحروف المتكاثفة تتساقط بفوضى، تجهل أبسط قوانين ملء الفراغ لتكوين جملة تصلح لأن تقص حيرتي.

***

إنها هنا، أحس بها. تصاعدت من اللامكان تجلت أمامي، نظراتها القاسية الصارمة، ماذا تريدين ألم تكتفِي؟

تلاحقينني إلى عالمي الروحي أيضاً. في صمت عبرت أخت صفاء الواقفين وكأنها لم تعد ترى أحداً، انتهى دورها في الحكاية، ابتعدت، اختفت وكأنها لم تكن.

التفتت الروح فرحة بزوال تلك الغمة وراحت تكمل:

– أتعلمين كم تربكني هيبتها! عَبوس غاضبة تدين ولاءً لذلك التجهم الكريه الذي يشوه ثغرها، تحمل صفات الحارس

الشخصي، نظرتها لا تغفل وجسدها سداً حاجباً يحيط بكل شيء.

ذاك الحصار الجائر لم يمنع العيون من لمس تعابير وجهك لمساً يلقي بروحي في الفردوس الأعلى، حيث يزهر الزنبق مهشماً جليد البعد غير عابئٍ بالبرد.

أتعرفين كم مرة حاولت النطق؟

ثلاثة شهور كاملة، أتصدقين ذلك؟

في كل مرة حاولت كتابة رسالة ما، لكن الحروف تخونني. وحده ذاك الصباح كان مختلفاً؛ لأن الصدفة وهبتني أكثر مما كنت أطمح إليه، وهبتني الحياة. تغرق «نور» في حلو الذاكرة، مكتفية بلذة الصمت.

***

يُشعِل الطبيب سيجارة ويكمل القراءة.

الفيسبوك، طقس مُضْمَر آخر يحملني للقاع الشاحب، حيث الحقيقة الواحدة، البشاعة. بعد منتصف الليل، يُفكّ أسر الغيلان، وتنمو في داخلنا الأعشاب الضارة سريعاً، تُفسِد لبنة البياض، العالم الافتراضي كان بمثابة الدواء الذي يحوّل دكتور جيكل القاطن بنا إلى المسخ هايد[٦]، الخير المموج إلى شر مطلق. رجال جياع يريدون كل شيء مني، لكنهم رغم ما يبذلونه من توق

(٦) دكتور جيكل ومستر هايد هي رواية خيالية للأديب الأسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون .

وتذلل في نهاية الأمر لا يجنون سوى مزيد من الألم والقهر. كنت أمزقهم كما يفعلون بنا بحجة الرغبة، أتيح لهم طلب كل شيء، وأترك مكاني فارغا. ببساطة أغادر، أغلق الانترنت، وأترك خلفي رفات هالكة.

طقس يحيلني كتلة من السعادة المفرطة، انتصار آخر أسجله وشماً على أجسادهم الرطبة، وهزيمة أخرى أضيفها لهزائمي الجافة.

سرعان ما ينسحب انتصاري العابث، ويملؤني اللاشيء المدقع، ثم تراودني كل موجبات الوحدة. أحتاجكِ، تهمس حنايا روحي وجنبات جسدي، لم أعد أفهم شعوري، أهيَ الغُلمة تستبد بي؟

تصنعُكِ نبي النشوة وجسدي الشعب الضال المختار. أم هو انكسار روحي في باحات القلب البكر. ببساطة هي نزعة طفوليّة للاختباء في صدر أم.

تستَعر الرجفة وتُسدل جفوني، أذكركِ.

ككَل مرة أتقوقع على نفسي كي أبدو جنيناً، محاولة بائسة لخداع برد يستوطن حضني، ورغبة تنهش خلاياي بمطالب لا أستطيع لها تلبية.

رياح الوحدة تهاجمني، أقف عاجزة أمام مطلب جوهري أجمع عليه الروح والجسد «أنتِ». أفكر كثيراً أن ما يصيبني لعنة حلت عليَّ لتكمل مأساتي، تهزم صمودي أمام أوجاع الحياة.

يذوب انتمائي، تتكاثر داخلي متاهات بحجم الكون، تتطاحن وتتركني بلا سلاح أو مبدأ، حتى تلك القدوات التي تعودنا طهارتها صارت متسخة تقطر ملحاً يعكر ذائقة قلبي الصغير.

أختبئ في حضن النوم طمعاً بالنجاة من وجع الفكرة، لكنها تهاجمني بشراسة مشذبة الأنياب.

طيفٌ امرأة، تتأوه، تئن ثم تصرخ، يهاجمها ظل عملاق ذو ملامح مشوهة. زلزال يضرب المكان، كل شيء يهتز بعنف، يعلو صراخها الممزوج بشدة صوته، تتساقط الجدران على جسدي العاري، أصرخ، يراني بعيونه الحمراء الجاحظة.

– كفاااااااااااا

صرخة تنتشلني من كابوس طالما هاجم نومي وسلب راحتي، داهمني مرات عدة. في كل مرة أستيقظ لأجد مخلفاته على جسدي المرتعد وفراشي المبعثر غير أن عقلي يبدد تفاصيله إشفاقا عليَّ. هذه هي المرة الوحيدة التي استطعت أن أحفظ بعض سماته وأدونها، لا أعرف كيف سيجد النوم سبيله إليَّ في هذه الليلة المُرة؟

ليتكِ كنتِ معي لأحتمي بك من هواجسي وأوجاعي، قد يكون الصمت وسيلة تواصلنا الوحيدة لكنني أنوي كسره، لابد أن أفعل، كيف ومتى صدقاً لا أعرف!

مسح الطبيب دمعة ذرفتها عيناه، عيون طبيب مثله لها القدرة على تمييز ما لا يراه الآخرون، عاود الانغماس في الأوراق.

حملني ذلك اليوم إليكِ، لمحتك تسيرين باتجاه الحمام. جاءت كلمتنا لطمة على خد الدنيا التي أمعنت في تفريقنا، صدفة بلا أدنى جهد.

كنتِ ترتبين ملابسك وتنتظرين خروج أختك مرافقك الوفي، اقتربت منك وعيناي تعكسان رهبتي. جنت الثواني واعتلى اللقاء

صهوة العقارب مهرولا نحو موته وأنا مُلَجَمة بحيرتي، ترى كيف أفض بكارة صمتنا، ما هي الكلمة الأولى؟

– صفاء

أهناك أجدر من اسمك ليكون بادئة! ثم ماذا؟

أحتاج حدثاً يعكس تداعيات روحي، ثرثرة يلوكها عقلي تأخذني بعيدا عن غابات الجوع والتيه بداخلي، ظمأى لشغف يسرقني كالبرق ويمنحني اللهفة. كيف تهرب الكلمات عند الحاجة، عيوني تبلع الأشياء بحثاً عن موضوع حتى لاح لي كفي المبلول منقذاً، طلب منديل بدا لي فاتحة حديث موفقة، فاتحة لم أعرف أنها ستشهد آخر بطولات المدرسة في قصتي.

وقفت أمامك للصدفة الأولى وجهاً لوجه:

– صفاء، هل لديك منديل لأجفف يدي؟

همستِ مجيبة:

– ليس لدي سوى واحد أخفيه داخل مريلتي وأظن أن العرق أتلفه أعتذر.

– أرجوكِ أعطني أياً أي كان حاله فأنا مصابة بالحساسية والماء يؤذيني.

أتذكر كلماتنا بدقة، ترى أتذكرينها؟

حصدت أنقى ندبات الذاكرة، منديلاً توضأ بعطرك. كان الحدث مجرد عابر سبيل تعثرت ساقه بلغط سادة الفضائل، مادة خصبة أُعطيت للوهم، حاكها قصة سردية تصلح لإمتاع الثرثارين عدة أيام، يلصقون بها كل حيثية تجعلها فضيحة دسمة كوننا قوماً

نقدس الفضائح، نتناولها بلذة، نمعن في قصها محشوة بالابتسامة الخفية الشامتة والإثم الذي يزيدها متعة وإن خرج عن سياق الحقيقة، ثم نختم حروفنا بذكر الله، كـ حسبي الله، قبحهم الله أو ربما ستر الله على بناتنا، ادعاء للتقوى وتلبساً بالدين.

لم أشعر بوقع ما حدث إلا حين أدركت أنني مغادرة المدرسة بلا عودة، وبأن اختفاء منديل أعطيتني إياه سيكون ذريعة شرعية لانتزاع حريتي، وحقي في تقرير مصيري.

أتدرين ما الساخرفي الأمر، أنني حتى هذه اللحظة لا أعرف أو أميز ما حدث، سُلبت حرية الدفاع عن جريمة لم أقترفها، الصور تفقد ألوانها حين يغدو كل الشهود في كفة وأنا وحدي في كفة. أتظنينني مجنونة مصابة بالذهان؟

أم مجرد تائهة لم أعر اهتماما بالواقع المنعكس ظله على مسار حياتي، سرقني تقادم الوقت وتكدس الأثر.

حصة تلو الأخرى وأنا متسمرة بذاكرتي هناك أُقلِّب المحادثة، قلبي سماء هاجمها الغيم، فقدت وِجهَتها. غدا كل شيء نسبياً لا حقيقة مطلقة، لم يكن المنديل المدسوس بجيبي ما يشغلني بل هي حاجتي للانجراف قرباً، اكتشاف الظلام الذي يترصد رغباتي عبركِ، ماذا بعد؟

هذا السؤال يقتلني لا إجابة تريحه، صرخات مبهمة تلطم رأسي، متوحشة كصداع لا يتوقف، يتمتم، يوسوس لا يصمت. صوته يجري كرة ثالثة في دمي، يُسمم وعيي، تداعيات تقول إنني أحجية مرهقة حلها أنتِ.

قيامة طارئة انتزعت أفكاري، نفخت صُورها «نائبة المديرة» التي صرخت باسمي بغتةً كريح عاتية، لا إراديَاً وقفت، أشارت لي أن أتبعها دون أن تفصح ملامحها الغليظة عن أي شيء.

تجمدت أوصالي حين طالعت وجه والدي يمسّد دوغمائية لحيته، ويزم شفتيه، طقوس تنم عن قنبلة على وشك إحداث مجزرة ما، انفجار لا يهدئه سوى خسائر فادحة، ما كادت تلمحني عيناه حتى اندفع صوبي كسهم اخترق دهشتي ضرباً.

– كشفتِ سترنا يا فاحشة، لماذا فتحتِ مريلة الفتاة؟ ماذا الذي كنت تنوين فعله يا ابنة البغي؟....

حاولت المديرة تخليصي من وحشية هجومه بلا جدوى.

لطماً، ركلاً، رفساً، وصلتُ سيارتنا، زَج بي داخلها وانطلق مبتعداً، لتذوب المدرسة رويدا رويدا عن قصتي إلى الأبد.

لم أقضم التفاحة أو أعبث في مملكة الله الأرضية، ما توحدت بالشيطان، أو خالفت مُسَلَّمات العادة، قضيت عمري أرسم الفضيلة سلماً، أتسلقه طمعاً في النجاة، أنصاع لادعائهم أنهم ولاة الله، أطيعهم لأتقرب منه، فيمَ عقابي إذن؟

لم تكن سوى نظرة يتيمة ومنديل، أهديتهما إليّ بملء قلبك. فأي خطيئة اقترفت؟

سؤال وقف وحيداً بلا إجابة. أريد البكاء على صدر عبقك، أين اختفى المنديل؟

قلبت ملابسي، جيوبي، حقيبتي لا أثر له!

أغلق الطبيب المذكرات بحذر ثم غادر صوب مكتبه، راح

يُنقِب بين الملفات التي تغطي خزانته عن ملفها.

توقف أمام صورتها لبعض الوقت، كيف تحمل هذه العيون الهادئة هذا الكم الهَادِر من الفوضى، للحظة أفقدته رِقَتها الذاكرة، لِمَ فتح ملفها؟

راح يتابع باهتمام بياناتها الشخصية باحثاً عن مكان نشأتها، في تلك المنطقة مدرسة ثانوية واحدة للفتيات، قد مضى على الحادثة قرابة العشرين عاماً، مدة كهذه تكفي لاندثار مدينة بأكملها بلا أثر، لكنه رفض التخلي عن أدنى خيوط الأمل في اكتشاف حقيقة الأمر، اختلس النظر لساعته، لا يزال الوقت باكراً.

– منحلة لا تستدعي كل هذا الاهتمام، الأمر ببساطة هناك فتاة تقدمت بشكوى مفادها أن «نور» باغتت أختها «صفاء»، وحاولت فتح مريلتها في حمام المدرسة، فقامت المديرة بالاتصال بوالدها الذي أخذها وغادر بلا عودة.

تلك العبارات كانت ما جناه الطبيب من المديرة الحالية، الشاهد الوحيد على الحادث الذي وقع في أول فترة تعيّنها كمدرسة للغة العربية في المدرسة.

شعر الطبيب بتخبط يضرب رأسه، فتاة مثلها لم تكن لتفعل ذلك، يومياتها، شخصيتها، كل ما جمعه يمثل أدلة نفي لهذه التهمة القبيحة، إلا إذا كانت مصابة بمرض نفسي ما كـ الفصام أو الهلوسة، السطور وحدها تمتلك الأجوبة. فتح الدفتر وراح يقتات سطوره بشراهة.

تداهم أنفي رائحة المطر، رغم زئير الرعد وأصفاد النافذة

الخشبية، تدغدغ حواس الحياة بي، كنتِ حاستي السادسة بلا منازع، فكرة تراقصت كألسنة اللهب في ذهني، على الموتى ألا يستسلموا للرقاد رغم نكهة الرمال في حلقهم، ليست إلا حياة واحدة.

رغم المنفى وتكدس الأيام تراءت لي صور حياة أخرى لم أقص شريطها بعد أو ربما هو طول الأمل الذي اعتاد البشر تسلقه.

قرأت ذات مرة إن الطفل يولد وتولد في داخله أسرار الكون، وكلما تلوثت ملامحه بمزيد من رقع الوقت فقد سراً منها، حتى تأتي اللحظة التي تستقيم روايته، فترحل عنه حكمة الإله إلى الأبد، ثم يقضي الباقي من مواسمه ينقب عن سر الشتلة الأولى، الكينونة، من أنا وما الحكمة؟

وكلما تَرَدد السؤال في ذهني أفقد قمرية الأمل وأعود إلى التيه مجدداً فيبلعني أكثر وأكثر، مخاوف أبت إلا أن تهبني في كل فجر سهداً جديداً موجعاً.

كنت أمشي باستسلام صوب منفاي عبر أيام تأكلني، تتساقط شمس وتصعد أخرى والوحدة تضرم البلبلة في روحي لأغرق في أشد وعكات ضياعي. في غيابك من يدلني عليَّ كي أعود، لا أذكر آخر مرة التقيت صوتي، أسمع تغامزهم على صمتي ووصمهم إياه بـ غريب الأطوار، أعتنق الطاعة وأنزل عند طلبات أمي الأشبه بعقاب، تنظيف، طبخ، ترتيب لا ينتهي.

فقد وصمتني الجريمة التي لم أقترفها بتهم كثيرة لا تحصى، علاجها الوحيد في نظر والديَّ هو مُضْني العمل، الصيام والحصار

حتى يجدا لي رجلاً يتزوجني جهولاً ظلوما[٧].

خائفة من مجهول يقود مستقبلي ويدفعني صوب سيل من هواجس أشد ملوحة وأكثر هوساً، انهيار يفتك بآخر مخلفات عقلي المنهك، مُنعت من الكتابة، هي من أتلفت أملي كما تقول أمي، وتهاوت مكتبتي صريعة النيران، كونها المجرم الذي شوه عقلي كما يدعي أبي، والمضحك المبكي أن والديَّ مختلفان على طول الدرب، إعدامي هو القرار الوحيد الذي اتفقا عليه منذ بدء الخلق.

غبار العزلة يسد مسام روحي، يمنع نفاذ الضوء، يتيح لوحش التيه أن يتضخم ويزداد شحوباً، أتهاوى، ينصاع غدي لماضيَّ كأنه أحد أبنائه الطائعين.

الصلاة درب الله، المعصية سبيل إبليس، والروح مدينة ضائعة لا تتبع أية خريطة، قال أحد الفلاسفة «إذا ثابر المرء على تجميع أفكاره استطاع أن يطور جسداً روحياً آخر يضاف لجسده»، لكنه غفل عن ذكر المرء الذي ضيع صفاء ذهنه أمام مسلمات مهلهلة صنعها سادة الفضائل، ينقشون القيم حجراً نردياً يلقونه وفق ما يخدم مآربهم في رقعة الحياة، وإذا حل منتصف الظلام راحوا

---

(٧) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ الوصف مقتبس من القران سورة الأحزاب لأدلل على فداحة وعظم الجهل والظلم اللذين سيقعان من ذلك الزوج وعليه .

يتناجون بغيرها، صدقاً لا خير في حكمة تنكر لها راويها.

السماء تشتعل ضوءاً، كذلك الأعمدة المهترئة، النواصي الفارغة وعيون السيارات الجاحظة، وحدي المعتمة حد الموت، أتساقط كأوراق جريدة أغفلها التاريخ، زاحفاً وراء أحداث خرجت للتو طازجةً من فرن الحياة، تصلح لمشاركة القهوة في احتلال الأمزجة الصباحية.

حتى حل عليَّ ذلك المساء ككارثة تسونامي[٨]، أغرق آخر ملامح الغد بين سنابلي.

– الرجل في الأربعين وهي لم تبلغ السابعة عشر عاماً.

– الحمد لله أنه سيحمل عنا مصيبتها، انتهى الأمر.

تسللت تلك الكلمات سراً لمسامعي، وليتها لم تفعل.

مر كل شيء سريعاً، عجيب أمر الحياة، حين نعلق بين أوتار الانتظار يغدو اللحن بطيئاً، لا ينتهي أبدا، وإذا حلت الفاجعة صارت كل الأحداث طرقاً قصيرةً ودروباً مختصرةً تحملك إليها.

وجاء اليوم الموعود، يوم العرس.

اختزلت أمي مهمتها الثقيلة كأم بجمل مقتضبة:

---

(٨) التسونامي (تلفظ ([t)su:'na :mi]) أو (سونامي) أو السَّنَامَة هو مجموعة من الأمواج العاتية تنشأ من تحرك مساحة كبيرة من المياه ، مثل المحيط وينشأ التسونامي أيضا من الزلازل والتحركات العظيمة، سواء على سطح المياه أو تحتها وتشهد بعض العواصف الجوية درجات توتر عالية الأرصاد الجوية تؤدي إلى الزوابع ، والأعاصير التي تولد – عواصف عارمة ترتفع عدة أمتار فوق مستويات المد العادية .

-لا ترفضي أو تقاومي ما يطلبه زوجك منك وإلا باتت فضيحتنا ملء السماوات والأرض، أنا وأبوك لا نستحق منك ذلك، الشامتون ينتظرون خارج هذه الغرفة خبراً يلوكونه هم وأولادهم وأحفادهم من بعدهم، الفضائح وحدها تُعمر ولا تلتصق بالفرد وحده، توشم على جبين عائلته بأكملها.

أطلقت عليه اسم زوجي وأنا لم ألتقه أكثر من ثلاث مرات، بهذا الحمل الثقيل بدأ زواجي.

انتهى زواجي.

يقال في حالات الطلاق، لم تكن على قياسه أو شاكلته، ويقال أيضاً كان دون سقف أحلامها، لكنني هنا أكتفي بهذا الفراغ إجابة.

تباً.... صرخة أطلقها الطبيب وصرير الفضول يصفر في رأسه، لماذا تطلقتِ أخبريني؟ نور ما الذي حدث لماذا... لماذا؟

راح يسأل الورق بلا وعي، قذف الدفتر بغضب، استرخى في مقعده محاولاً استعادة هدوئه. في حياته المهنية كلها لم تنهكه حالة كـ هي، اشتعلت الأفكار شمعةً في عقله، أدار المفتاح وأنطلق بالسيارة بحثاً عن أجوبته.

***

بهدوء تتابع الروح الأطباء يقيدون جسدها في أوتار الأجهزة، يحاولون بث دم الحياة بين شرايين رحيلها.

صمت يلف كل شيء، شعرت بحرارة نظراته، رائحته الفاسدة، إنه زوجها الأول.

– لا تنظر إليَّ هكذا كان علي فعل ذلك لمصلحتنا.

صرخت وضاع صوتها في جب الصمت.

– لا تعرني ظهرك وتمضِ، انتظر.

لكن طيفه اختفى، ذاب في غضبه أو ربما اختار الاحتراق لكنه عاود الظهور والاحتراق من جديد.

***

بعد غيبوبة التجربة عدت أكثر هشاشة، حدث قصير العمر لكن طعنته الصغيرة حفرت اسمها على جسد حكايتي، وأنا قربان قضية لم ألمس فحواها بعد، كمن يلاحق كائناً أسطورياً، بطل حكاية سردتها الجدة ذات نعاس ولم تحسن تذكر الخاتمة، لكنه شعر بكل تفاصيلها.

التفاصيل، كم تدميني التفاصيل! تهشمني وتنثرني. تعكر صفو قاعي، تجوب مدني التي تشوهت خرائطها، تسلم روحي للظلام.

روح استرسلت في خوائها، باتت بلا انعكاس، نسيت ملامحها، أتلفت هويتها، صارت ابنة غير شرعية لليلٍ يستوطنها، يقطف ثمارها، يعبث بمكنوناتها. يضحك أكثر كلما أحرقت غيوم الأسئلة رأسها.

كلما حل المساء أخشاني، لليلة أخرى أطالع سريري يتحول إلى وحش، تخرج منه عشرات الأيادي تناديني، أسمع أنين الورقة المختبئة أسفل وسادتي، صوتها تميمة تفقدني سلطة القبول/ الرفض، أستلقي مستسلمة، أشعر بأصابع تتسلل عبر شراييني، أغلق عيني رهبةً، تهاجمني بأعتى جنودها. الصورة تداعب مخيلتي، تتلاحق أنفاسي، أزم شفتي حد التمزق، يتشنج جسدي، نسمة باردة تهزني، لهاثي الحار لا يوقف رجفتي، رعد يهزني مرة تلو الأخرى، جوقة شهيقي وزفيري تمزق سكون الليل، تشتد العاصفة أكثر وأكثر، ثم يهدأ كل شيء، يسقط المطر، يبللني، جسدي ريشةٌ، أحلق.

حررتُ الورقة من مخبئها، تجمدتُ أمامها، ضممتها إلى صدري، سَكِينةٌ تغمرني، أعدتها إلى مملكتها المستترة، سلمت ذهني لجنونه. تغزوني تلك الحالة عقب كل معركة احتلت واقعي أو دنست أحلامي.

لعنة، تقيد مقاومتي، تضربني نصالها، لا تنطفئ، تتركني رماداً، سؤالاً باهتاً، زواجي المشئوم ارتد خائباً، تاه في دهاليزي، خرج مني جاهلاً، بقيت وحدي أسيرة الأسئلة.

الارتباك بات جزءا من ملامحي التي أجهلها، أطوف كوني وأعود نطفة في رحم الاستفهام الأول، من أنا؟

***

اعتدل الطبيب وراح يفرك عينيه أسفل نظارته، مكرها يترك تلك الأوراق الملعونة ويدخل المشفى.

انطلق مسرعاً بين الممرات معانقاً الأوراق كما تعانق أم وليدها البكر.

كانت «مها» تتأمل «نور» الغارقة في غيبوبتها من وراء الزجاج سابحة في تقاسيمها،

– أتسمحين لي أن أقطع عليك خلوتك؟

– أهلا دكتور.

– حدثيني عن وضعها.

– يقول الطبيب إنها نزفت كثيراً مما أدخلها في غيبوبة وحالتها سيئة جداً.

– أملنا في الله كبير،

بلع ريقه وأردف:

– بصفتي طبيبها النفسي أود أن تخبريني عن طلاقها الأول.

– مُسَّت «نور» بالجن، زواجها الأول لم يتجاوز العشرة أيام. منذ الليلة الأولى كلما دخل زوجها الغرفة تصرخ أخرجوا الوحش يريد أن يأكلني، لم يترك أهله وأهلها شيخا إلا وأحضروه يقرأ القرآن عليها لكن بلا جدوى حتى يئس الرجل وطلقها.

الكذبة الثالثة

من أي مكان تأتي امرأة قبيحة تحب العالم
لا مكان لكِ
لأن هذا التوق للرجل الذي كنته سيقتلك
ترتجفين دوما
كمبضع لم يعتد اللحم
كما العادة
وقعت في حب أشياء لن يراها سواكِ
مناهل السهموي

المطر في الخارج يشتد، والمطر قصة أخرى، ما جدوى ربط المطر المعتم بالخطيئة، كل تلك الأفلام الكلاسيكية تعيد علينا ذلك، تحاول زرع الفكرة وتسقيها لكنها تغفل عن حقيقة ذلك المطر الذي كما أنجب الخطيئة في ذهن المؤلف، جمع اثنين خرجا من الدفء، خاضا البرد والبلل لزرع ذاكرة دافئة، قفزا بلا مظلة تحته يتبادلان الضحك على اللاشيء، وكأن تلك القهقهة إعلان خفي عن نشوة اللقاء وشهوة التالي.

أنا التي أعتنق الربما بمطلقه أصر هنا بما لا يقبل الشك أن لكل

كينونة أوجهاً عدة للنظر، أينما تولِّ نظرك سترَ المشهد بشكل وحجم مختلفين.

مزيد من التناقض، رغم ثرثتي غير المبررة لكن مطري هذا ذكرني بولادتي، أولم تخلق البشرية من الخطيئة الأولى؟

كذلك أنا.

ولادة البشرية كانت فكرة تُشغلني، أحاور الذات بها، دائماً يثرثرون عن رقي ثقافتنا البشرية، لكنني كلما تأملت الأمر من زاويته المستترة قرأت شيئا آخر، متى ظهرت سوءة آدم وحواء؟ السوءة التي منحتهما قدرة الإنجاب، إنجابنا. ألم تظهر تلك القدرة بعد قضمهما تفاحة الجحود، نحن ندين بوجودنا الموجع هذا للخطيئة وربما هي كينونتنا، ولهذا قال الرسول محمد ﷺ «كل ابن آدم خطّاء»، فلا عجب أن وُلدت يوم وصمت بالخطيئة واتهمت بها.

وُلدت خطيئتي تلك وإحساسي بأنني حية أتنفس في أحد أيام الشتاء، الشمس منتصبة وسط ملكوتها، إنها الظهيرة تعلن انتهاء اليوم الدراسي.

خلعت رداء الصبر ورحت أتجول بجنون بين غرف المنزل الخاوية إلا من هواجسي، يمنة ويسرة، كأن الثقة حجبت عن حدسي وبصيرتي.

ينحت التوتر خطواته في باحات قلبي الصغير ذي الأحوال الست عشرة،

أرتجف كلما داهمتني الفكرة من دون أن يتأثر خوفي، شعور عجيب متضاد.

الأسئلة تمر بي سريعاً، وأنا واقفة في صمتي مطلقة عنان ذهني، يمارس تنبؤاته بلا اكتراث. رغم منطقية العقل لكنه دائماً الوتر الأضعف في سيمفونية حياتي، لا حكم يعلو قلبي. كيف أشد وثاق الدقائق؟

دقة الجرس تقطع تدفق افكاري.

– نعم نعم

أتمتم، لمرة واحدة سأتبعني طمعاً في حرق وجعي ونثر رماده على ضفاف اللزوجة المقدسة، هي مجرد محاولة لتمزيق ثوب طالما ادعى الأنوثة الفضفاضة المتسترة، تلَبسني، وصفني بأبشع الصفات دون محاولة لفهم أناي المعذبة.

أحتاج شيئاً يسيراً من الانتظار، ستعبرني أمنياتي كلها دفعة واحدة، دون حورية الأسنان أو جني المصباح، سأعود الرجل الذي كنته.

أنظر بريبة إلى مرآة بيضاوية بجوار باب المنزل، بعد انقطاع عمرين أو أكثر عن المرايا وفق توقيت النضوج.

هكذا كنت أراه، نضوجاً يستعمر أجنحتي، لأصير طيراً بلاستيكيا زائفاً منتوفاً، كبلت الأنوثة الطارئة طيرانه، أحالته سجينا أرضيا تحت إمرتها.

كيف لمرآة أن تكذب، تعكس وجها ناعماً لا يمت لي بروح!

تفصلني عقارب الساعة الضجرة عن حقيقتي، يعود عقلي الخائف إلى لغطه. بتلك النية لم أكن أتمرد على نهج رسم لي، بل على جسد لا أعرفه ولا يعرفني، أجبرت على ارتداء غيري والمضي

عبر قدره، لم أعد أعرف من أنا حقاً؟

تتدفق الدقائق اللاهثة أكثر، مفسحة المجال لتخوم الأسئلة. هل ستأتين؟

أعرف أنك ستفعلين، لقد أصررتِ رغم ترددي، فور معرفتك بغياب أمي عن المنزل. من هنا ستبدأ الأسرار في حياكتي، في عالم الأسرار تتهاوى الأسماء، الملامح، يصير كل الشخوص أسهما تشير إليّ، ستغدو كل نساء قصتي أو بعضهن بلا أسماء، أكتفي باللفظ أنتِ، ألم يكن ذلك مأرب رحلتي منذ البداية، السير في دروب العتمة بحثاً عن التنوير، عنك، المرأة التي خلقت لي، نصفي أو اكتمالي.

لعب النوم دور نافذتي للهروب إليكِ، أتسلل فجراً صوب غرفة أمي، أختلس هاتفها، وأراسلك، أذكر ردكِ.

– اليوم عيدنا الأول، سنكون نحن. ثم أردفتِ الموت ذلك الهاجس المخيف، تحول إلى كائن لطيف يمسد لقاءنا ويباركه.

ما كانت أمي لتترك البيت لولا وفاة أحد الأقارب، حملت دموعها وقيودها في حقيبة سوداء وشقت طريقها مبتعدة عن سور أحلامي العظيم.

مفسحةً مجالا لولادة ماهيتنا التي طالما خشيتها، وصلينا لها.

***

– أيها الطبيب التعس ما الذي تفعله؟ من أين لك بتلك الأوراق؟

أتركهاااااااا.

بشراسة هاجمت الروح الطبيب الجالس أمام نافذة غرفتها محاولا اقتلاع أسرارها، سدى. حمقاء عَدَّدَت مزايا السمو لكنها غَفِلت عن عيوبه، الهشاشة واللاوجود.

– لا فائدة إنه يغتصب كلماتي بلا إذن، لمَ لا يفهم أن تلك الأوراق لكِ وحدكِ، هي إرثك عني. تكورت في صمتها وراحت تراقبه ساكنة، بينما يسبح ظل زوجها عبر دوائره، وتحتفظ «صفاء» بابتسامة عينيها.

أينبغي على العبور أن يكون بهذه الصعوبة؟

***

الأوراق تشده أكثر نحو عالمها، لم يعد يشعر بجسده المنهك، أرخى ربطة عنقه قليلاً، ثم استسلم للسطور طواعية.

يهاجمني صوت الجرس المرتقب، في لحظة واحدة اجتاحتني جيوش الأفكار بأحجامها وكينوناتها المختلفة. رأيتني واقفة عند باب رغبتي بلهفة الجائع، حائرة مرتابة تملؤني صراعات الأنا والهو والأنا العليا[٩] وما تبقى من فتات أبي. يعاود الجرس نعيقه، أتقدم وأعاود الرجوع، انتابني الحمق واعترتني رغبة الهرب، الركض مبتعدة. ليتني أعود تلك الطفلة التي تركض كلما شعرت بالشك، للأسف لم أعد هي الآن.

ما كل هذا الغباء، الفتاة تنتظر، سأفتح.

أدخلتك، غرفة الضيوف، رغم حيرة قلبي، جلسنا بصمت

---

(٩) وفق نظرية فرويد المذكورة سابقاً.

تواجه إحدانا الأخرى وترقُبها بعين متوجسة، كنت أعرف أنكِ النفق الذي سيفضي بي إلى الروح، كل شيء تاه في هولِ اللحظات الضائعة سدى بين أصابع الصمت. ظلمة الخوف تزداد شحوباً، لا شيء يحدث، لا كلمة تدق هالة الريبة، ولا رغبة تفرض سطوتها.

الخوف ذلك الوغد المقاتل الذي لا تتجعد دروبه، ذاك الشفيف رغم قوته، ربما هو مجموعة من الرسائل الكيميائية الهرمونية داخل أجسادنا الرثة، غذته مفاهيم العادة، الخطيئة، العيب، الانتقام، سلطة المشيئة، حتى تضخم وغدا أكبر من حجم الغدة التي أطلقته، فكبل - رأس الحمار- نحن، حولنَا إلى دمى مقيدة أمام حاجاتها، تموت جوعاً وقهراً إرضاء لأصحاب المشيئة.

كيف نحارب سائلا مسموما «الأدرينالين» الذي يدنس شرايننا؟

أهو وقت الفلسفة أيتها السمجة. بغتةً لاحت لي فكرة وسط انغماري في دهشة جمالكِ.

- أريد أن أرسمكِ.

ضحكتِ، دب النور فجأة في كل مسامات المكان وكأن الشمس لتوها ولدت على شفتيك، كانت تلك القهقهة الرطبة أعلى من سور خوفي، قطعة موسيقى ضربت أوتار مقاومتي، اندفعت مفتونةً بك، ما الذي أنا مقبلة عليه؟

كلما خطوتك أكثر تذوب لحية والدي، يفوق نفوذ اللهاث، صراخه:

– ماذا فعلتِ؟

لكنه لن يطلق تلك الصيحة فأنا في حضرتك وحدكِ.

ترى لو عرفت الثمن الذي سأقدمه لاحقا إلى تلك الخطوة هل كنت سأقدم عليها؟

لو كنت أدري أنها بعد كل هذا العمر ستكون تذكرة خروجي من كون يلفني بدفئه؟ أكنت شربت قهوتك الحلوة المرة؟

وميض الذاكرة يشتد، يفقدني القدرة على حمل القلم، جب عميق يشدني إلى الأسفل، جب من اللهفة المحترقة لكِ، وسماء الندم تصفعني وترديني على ما فعلته بلا ندم. أخذت يديك بلا وعي، وذهبنا إلى مملكتي بلا مقاومة منكِ، مكيدة حلم تنسج خيوطها، نتدفق برغبة عارمة. كل الرؤى ارتسمت على وجهك، أول ابتسامة، الكلمة الأولى، الشغف المحموم، احترقنا أكثر كشمعة كنيسة ذابت أجنحتها البيضاء، أغوتها الفتنة، تدنست بنكهة الرجفة العذراء، لوثنا البلوغ، لم نعد أطفالا يا حبيبة، تعوي ذئاب الهوى، شياطين الشوق سكبت ماء نشوتها بنا، تماهينا.

والتماهي لفظ طالما فسروه بالتوحد أو التقمص لكنه هنا لعب دور الصانع، خلق من لهفتين جسداً واحداً تجوبه روح واحدة، تلك حالة عميقة من نقاء المزج لا يبلغها إلا عاشق أذابه عشقه.

يرتجف القلم بين حروفي الممسوسة برعشتها الأولى، ما وددت يوماً كتابة يومنا هذا، كنت أخشاه، فما أصابني منه كان كبيراً، أُفقهُ أعلى من طاقة الحبر، وقبعة ذاكرتي.

ثغرك يمطرني سعادة مطلقة، تنفذ بين غرف فؤادي، تشرق

باستثنائية عجز الكون باتساع قدرته عن غزلها، تغريني بالغرق أكثر في تفاصيلك، الغرق في غور الحب بعيداً عن لغط العيون الثرثارة، وحواجز المسافات، عن الأسئلة والمسميات التي تعرقل الولادة وتستنزف الطريق.

رحت أطوفكِ، ناسكا يغسل خطاياه ولا يشبع، دب الجنون بنا، حتى الساعة ما عادت تُحصي أولادها الضائعين، لا أعرف كيف جاد الزمن بكل هذا دفعة واحدة. تنهدت، سابحة في عرقي، تائهة وسط شهقاتك المتسارعة العميقة، ضممتك، الدفء يطمئن أنفاسنا المنهكة، بدأ كل شيء يعود لاتزانه، إلانا.

عيونك التائهة تذوب في أحجية ضياعي، كنا نظن في هذا جواب أسئلة السُهد المالحة، لكن الحياة على ما يبدو مستنقع رمال متحرك كلما ظننتني ناجياً يزداد الغرق فيَّ.

ما الذي حدث؟ أهي الخطيئة، الدنس والعار؟

كيف نحكي عنه، أو نفكر فيه؟ أعلينا الاستغفار والتوبة؟

كيف نغلق فم روح موجوعة بجوعها وجهلها؟

– سأرسمكِ الآن.

أطلقتِ ضحكتك من جديد وقفزتُ عارية بلا اكتراث بجسدي الحر من كذبه، جَلبتُ الورقة من مخبئها الوسادة وقلم الفحم خاصتي، غرقت في بياض اللوحة وغرِقَت نظرتُك الهائمة بي، كنتِ تزرعين حباً أبديا في أوردة قلبي بنظرتك تلك.

– انتهيتُ.

– ظننتكِ سترسميننني كاملة.

تفاجئتِ أنني لم أرسم سوى وجهكِ رغم قدرتي، لكن الأمر كان أعمق من شبق جسد. أتصدقينني اليوم إن قلت لك- بعيداً عن نفوذ اللحظة- أنني لم أرَ جسدكِ يوماً ولم أكن معنية بذلك.

كانت رغبةً وشبقاً روحياً خالصاً، نعم يا حبيبتي فالروح تشتهي، تمارس الحب وتضاجع أيضا وهذا ما أراه اكتمالاً. الاكتمال هنا كان الحالة بذاتها لا أطرافها، لم يكن جِنسنا أو هويتنا الجندرية[١٠] ما شكل اكتمالنا بل أرواحنا فقط.

لا أخفي عنكِ سراً رغم جُنوني بك، كان شعوري منقوصاً، كم تمنيت أن أعيشَ تلك الحالة أنثى في حضرة رجل أحبته، أو رجل في حضرة حبيبته، مكررة ككل هؤلاء الكائنات. لكنني للأسف لست هذا ولا ذاك.

من أنا إذن؟

ما زال السؤال يطفو.

***

الطبيب الغبي انظري لوجهه المتعرق الممتقع، ما الذي قرأه في أوراقي ليبدو على حالته الرثة تلك، مصعوقا كأنه رأى عفريتا للتو. ضحكتُ وأكملت:

- أنا عفريت وليست أوراقي.

تنهدت الروح وهي تجول بنظرها صوب جسدها المسجى تحت

---

(١٠) هي المفهوم الشخصيّ الذي يحدّده الفرد لنفسه كذكرٍ أو كأنثى .

خـراطيم الأمل الوهميـة، والأجـهـزة ذات الصوت المزعج وراحت تتمتم:

– ألا تموتين يا أناي أو تعودين إلى الحياة؟

الانتظار يقيد صعودي المترهل، تعبت، آه كم تعبت.

أشـاحت بوجـهـها الطيـفي صـوب «صـفـاء» التي تدور حولها بتلك العيون الدافئة، وما زال زوجها يرمقها بحدة ويطفو بين حيرته وغضبه ظهوراً واختفاءً.

***

ألقى الطبـيب الأوراق وراح يرمق جـسـدها في حـالة من الذهول، وعقله يحدثه بما صمتت الشفاه عنه.

– أفعلتِها، إن كنتِ كذلك لِمَ لَم تطلبي مساعدتي؟

ومن هذه الفتاة؟هل كانت زميلتكِ في المدرسة؟

تورطتِ باكراً في تيهكِ. أطلق تنهيدة طويلة وأكمل:

– أوراقك أفعى تشدني صوب كونٍ لا أعرفه لكنني ماض معك حتى حرفكِ الأخير الموت. أشعل تبغه مستعيدا شيئاً من هدوئه ثم ألقى بجـسـده على أريكة الانتظار وراح يذوب بين ملكوت السطور.

***

لماذا اختبأتُ بين شدقي صمتي؟

لم أدافع ببنت صرخة، تركت مشانق الجريمة تقتلعني عن كل ما أحببته.

لم يجدِ الحديث على أية حال، يحدثني عقلي القافز عن ركلات الوجع.

– هي لحظة ستعبرنا، وستكمل الدنيا دورانها سواء دافعتِ أو قُتلتِ هادئةً، لا تنتظري تبريء أحد، أنت خارج القطيع.

في باطني يدور الكون بشكل مختلف، الأرض مربعة كل زاوياها تودي بي إلى أخرى في حالة رتيبة من الفكر البالي، كنت أخشى إغلاق عينيَّ، أياد سوداء تخرج مني لتلمسني، مستسلمة أُرخي جسدي، أواقع الوهم رشوةً كي يصمت ولا يكشف لأمي حقيقتي التي لا أعرفها.

ماذا تبقى من تلك الذاكرة؟

الحرمان وصورة وجهكِ، ابتُليت بالعشق يا حبيبتي، لا عاشق يفلت من قدره. الكلمات تخونني كتلك المسماة حياة، العتمة تسورني، قسراً بترت عن مدرستي، تزوجت كي أتطلق، لم أجد عذراً لوالدي على فعلته. السكون الكئيب حولي، عزلة تدفعني إلى الجنون، كيف لطير منتوف أن يرسم أجنحة؟

تتوهج الأوجاع أكثر ويزداد بؤسي، فرمان والدي ساري المفعول:

– أنتِ ممنوعة من مغادرة المنزل، من النوافذ، من الأحلام، فأنت مطلقة.

لست الفتاة.....

ولم أكثرت لتذكر تتمة خطاب والدي.

– كلميني قليلاً.

قالها محاولاً شق وحدتي، ذلك الظل الذي رسمَته العتمة على حائط غرفتي المتقشر في الليل.

– لن أكلم ظلاً يرافقني في ضوئي الخافت وإن حل الظلام هرب مبتعداً.

عَبرتني أيام صعبة جداً، لا أختلط بأحد، أخافهم جميعاً لا أدري لِمَ، وإن حل الظلام خِفتني، فأية حياة نُسجت من خوفٍ تلك!

هناك صوت، أنصت يا عقلي التعس.

إنه المطر مجدداً.

لم تستطع لائحة إقامتي القسرية ولا أصفاد النافذة أن تسلباني رائحة المطر الطازجة، إذ داهمت أنفي، وذكرتني أنني على قيد هذا الوجود لم أغادر بعد. من ثقوب النافذة المتداعية أتأمل القمر المتستر بالسحب الرمادية، قطعة الحلوى خاصتي، ليته بقي كذلك، اليوم وقد بلغت سن الوجع بت أرى أشكالا لحياة أخرى بين فجواته، خيالات آدمية، أظنها أرواح الملعونين أمثالي تُعتقلُ ليلاً هناك، يُغلق عليها سواده، يعتصر منهم نوره الزائف.

أين دربك يا الله؟

أخبرني عن جريمتي، لم أعد أعرف ما عليَّ فعله، في منفاي أضاجع خطيئتي التي لا أميز منشأها وأدفع فواتير عاجلة ومؤجلة.

أَبى المطر إلا أن يكون بطلا رئيسيا في فصولي وكذباتي الصادقة، ذلك المساء سمعنا صوتا في البيت المقابل لنا.

– وأخيراً سكن أحدهم الشقة المجاورة.

أجابت أمي سؤالا لم أقرعه، ما أسهل إجابة السؤال الاعتباطي وما أندر أجوبة ما خفي.

لم يكن جيراننا الجدد سوى امرأة ثلاثينية وزوجها الذي كان يغيب في عمله طوال اليوم وتبقى هي وحيدة، هذا ما سمعته من أمي تحدث به شقيقتي الصغرى. ولأن النساء في وطننا فارغات لا يُجِدن سوى الزيارات والأحاديث التافهة، تكرار يسقين به الزمن كي ينمو، حمقاوات.

جفف الزمن ماءهن حتى انتهين، فأنجب من صورهن كائنات جديدة وقصصاً مستهلكة أخرى. ليتني كنت امرأة، لأحسنت استغلال حياتي جيداً، كنت سأكمل دراستي ثم أجد لي عملا وأتزوج برجل عادي لا يميزه عن غيره سوى أنني أحببته، وأنجب أطفالاً لا يشبهون أولاد الجيران المزعجين، ولا يقلدون دغمائية أبي وأخي. كنت سأعلمهم...

– «نور» اذهبي مع خالتك «عبير»، ساعديها في إنهاء الكعك ثم أسرعي عائدة قبل عودة أبيك، لا تنقصني مشاكل جديدة.

«عبير» سيدة أنيقة وعذبة، امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها، متوسطة الطول، عيناها واسعتان لوزيتان، يحفر الحزن فيهما قنوات ودروباً من الدمع المخزن جيداً، أنف دقيق وشعر ناعم أسود مُجدل على طول ظهرها، قالت بشفتيها الرقيقتين:

– تفضلي، نادني «عبير» فقط.

تبعتها بعيون شاردة، كان مطبخها أنيقا كهي، تشعر أنه مجلة

فنية رُتِبت لوحاتها وكلماتها بحرفية وجمال، كل شيء يستكين في مكانه الشرعي، مغسلة نظيفة تجاورها مصفاة أطباق فارغة، خزانات ألمنيوم زرقاء تُغلف المكان، يحتضن رحمها أواني وكؤوساً مختلفة متميزة، مائدة زوجية صامتة تحتل وسط المطبخ، لوحة زيتية لعازفة كمان مُسدلة على الحائط، لا أذكر أي شيء مميز آخر سوى رتابة المكان وكلاسيكيته.

قضينا ساعة ونصف في صنع الكعك ونسج رابط جميل بيننا، كان حديثها لطيفاً دافئاً أخرجني مرغمة عن صمتي لبعض الوقت، لكننا كنا متحفظتين لم نتحدث عن شيء أكثر من الطهو والحياة بشكلها العام.

لم تكن تلك زيارتي الوحيدة إن تسنى لي أن أسميها زيارة، فقد أعقبتها زيارة نستطيع منحها لقب الخوض، لقد خضت «عبير» وكَشفت لي الصدفة بعضا منها كنت أجهله.

– نفد الكركم أحضري بعضه من «عبير».

قالتها أمي دون أن تثقل روحها بالنظر إليَّ.

طرقتُ الباب مرة تلو الأخرى بلا إجابة، أصوات عزف دغدغت قلبي الملطخ في أساه، موسيقى حزينة سلبتني. لا أدري كيف تجرأتُ وأدرتُ يد الباب ثم عَبرتْ خطواتي مشدوهة لا أعي شيئا، ماضية صوب الصوت الذي راحت أياديه تتطاول، تجذبني من ياقة روحي صوبها حتى وصلت إلى «عبير». فتاة رشيقة تغازل الكمان بخفة، تتمايل، تدور، ترقص كأنها كيوبيد الحب ترشق الكون بأنغامها، هالة ألوان وهمية تُحيط بها أذهلتني، وقفت صنماً

بلا حراك خشية أن تتخطاني إحدى الصولات، تتلبسني كل مقاماتها، أغدو فراشة، مبهرجة بترانيم حياة حزينة تشبهنا.

جسد من نور خالص، يشع شعلات ألوان متوهجة تبث السلام في كل استدارة، تنام في طقسها المقدس ويستيقظ النقاء، هكذا كان المشهد دافئاً رخواً أملسَ. صدرتْ عني تنهيدة قطعت حبل قداسها، خَفَضت الكمان وانتصبت واقفة.

- «نور».

- ألوانك فتنتني.

- النغمة سر الجمال.

- أهي حرفة؟

- بل هواية، تعلمتها منذ الصغر وحصدت العديد من الجوائز التي جعلت الأمر يتحول إلى حرفة، وبعد أن تزوجت منعني زوجي من ممارستها، لذا حولتها إلى نهج حياة صامت أخاطب به أوجاعي.

أحضرت «عبير» الكركم ووعدتني بترنيمة جديدة في كل زيارة، لم تكن أمي لتسمح لي بمثل هذا الترف المدعو زيارة، إلا لمساعدة الجارة التي بادلت أمي حميمية الحديث ودفعت عنها وحشة الوحدة والرتابة اليومية.

هكذا جرت زيارتي كلها لواجباتها المنزلية، طيلة أشهر الشتاء والربيع.

حتى جاء ذلك اليوم الصيفي الحارق، إذ عزفت الحاجة أغنيتها.

ترى أيحرك عقولنا الكون أو هذا ما يبدو لنا؟

***

انتفضت الروح فجأة.

– «صفاء» أتسمعين الموسيقى إنها «عبير».

التفت الأرواح تجاه الصوت، لوحة ألوان ومفاتيح موسيقية انفجر منها دخان بنفسجي، وُلد طيف «عبير» المتشرنق في كمانه، إنها تعزف وترقص، كلما ضَرَبت وتراً تنشطر انكسارات وهج ملونة، تضفي على المشهد حُلة من جمال مطلق. راقَصت النوتات، أزهار القرنفل الوهمية، داعبت وجودي اللامرئي ودغدغت بسمة «صفاء» القرمزية، منحتني شيئا من انسجام مع هذا الانتظار الحامض، وهبتني بعض كذبات الحياة المنعوتة بـ«السلام» لكنها عجزت عن كبح زمجرة الزوج الغاضب، الذي لا يزال يتساقط في دوائر غضبه. ألا تكف الموسيقى يد الغضب؟

***

كل تلك الحواجز تهاوت، لا تسألي، لا أعرف كيف؟

دماء وردية كانت تتوهج بين عروق «عبير»، أنفاسها ترتفع كلما اقتربتْ، لقد شرعت أبوابها السرية بغتة على مصراعيها، وأحسست بسعيرها يتقد بين جنبات جوعي ومقاومتي. حاولت أن ألوذ بشفاهي لكنني سقطتُ بين براثن الحاجة.

كل شيء راح يهطل بجنون، موسيقى السواد تستطيل، خليط أنفاس وشهقات، آهات هائجة، وسرير تطقطق أضلعه.

– لا

أبعدتُ يديها

– أنت لستِ..

– لا أحد يعرف سواه

– كيف؟

– فشل، لم أسمح له رغم قسوة محاولاته طيلة السبع كذبات /أيامنا.

جمعت أشلائي وضممتني إليَّ مغادرة بيت «عبير» صوب غرفتي ملاذ أوجاعي. لقد عَرِفتْ، لا ضير، الأمر لن يحدث أدنى فرق، لا شيء يتغير.

قضيت ليلة كابوسية، أتقلب من هنا لهناك ووَجهكِ لا يغادرني، لم أخنكِ صدقيني، الأمر أشد عمقا وحماقة.

لم أستطع كسر قلب امرأة كسرتها الحياة فكسرتنا.

جثوتُ أمام تلك الذاكرة عاجزة لا أملك ما أدفع به شقاء روحي وروحها في تلك الليلة، وأنا أمسك رسالتها الأخيرة لي قبل أن تنسل أجرام عينيها مبتعدة عن مداراتي، وترتحل صوب الاحتراق المطلق، أبعد من أن أصل إليها. رسالة أذكرها جيداً، أحفظها عن ظهر ألم كتبت فيها:

جميلتي «نور» لا أعرف كيف أبدأ رسالتي اليكِ بل كيف أجرؤ وأنا التي دنستُ طُهرك ودفعتكُ صوب خطيئة لم تُشبع جوعي أو تُحدث فارقا في واقع يجثم على أنوثتي منذ ولدت.

على قيد زوج أتصوَّر أنوثةً، في أيامي الزوجية البائسة، نمت قدرتي على شراء قمصان تناسب عرض كتفي زوجي – وإن كان

غروره لم يمنحني هذا الترف – إذ تصدرا بطولة أمسياتنا الزوجية المتلاحقة. كانا أكثر ولاءً من فحولته في احتوائي، وأنا ذلك الجسد الذي أريقت كرامته، محاولاً إشباع شهوة رجل عبدها، دلَّلها ولم أكن جزءا منها. تناولني بعنفٍ كمحارب أراد إعلان ألوهيته المطلقة على ضعفي. يقلبُني على بطني ثم يدخل بي دون اكتراث لألمي، يسكب ضَعفه الغريزي بقوة بي، مرة تلو الأخرى بعنف حتى تنبعث منه رائحة بيضاء تشبه الموت لها شكل وجعي وحجم بشاعته. يدفعني للأسفل كي أنظف بقاياي وبقاياه ثم يدير ظهره متناسيا وجودي ويستسلم للشخير. هل فكر الراعي يوما بسؤال دابَّته عن حاجتها الحقيقية؟

وذلك الثور الأحمق، هل أدرك من الوجود شيئاً غير تلك الأجساد المتتالية؟

أجساد أفرغ فيها قسوة العصا، خشونة اللجام، ثِقل العربة، وذكورة لم يمتلك منها شيئا استجابة لمشيئة مالكه.

هو رجل، والرجال قليل، يسكب عطبه داخل زوجته ثم يغادر كما دخل غيرعابئ بجوعها أو شبعها، هذا ما تعلَّمه على يد والده، الرجال لا يبكون، لا يعانقون، لا يضعفون أمام زوجاتهم. «الزوجة أَمَةُ دفع ثمنها» صدقيني أنا امرأة عادية لا أعاني شيئاً سوى أنوثتي المهترئة تلك، تمنيت أن أكون امرأة لرجل يعشقها، فقط يعشقها، ليست مجرد مرحاض يستخدمه دون مراعاة أدنى احتياجاته. أعرف أنني ككل النساء، لقد شعرت بذلك وأنا أتابع جارنا الثلاثيني تخترق نظراته الشغوفة روحي، يجتاز مقاومتي،

أسهمه تثقب نافذة فؤادي الموصدة. كل صباح أعلِّق الملابس على الحبال طمعاً بالشمس أو ربما طمعاً في أن أكون أنثى كما كتب الله للأنثى أن تكون، كان يراودني عن قلبي بعيون أحرقها الشغف، رويدا رويدا يتسلل الوهن إليَّ، أريد، لكنني سرعان ما ألطم أحلامي بصور واقعي الرمادية «أنت زوجة».

ما كاد الضعف يبلغ بي مبلغه حتى طلبت من زوجي تبديل بيتنا، بدلاً من تغيير مبادئي وأخلاقي، لم أحتمل فكرة خيانته مع رجل آخر فأصبح زانية. هربتُ بعفتي عن تلك الهاوية، برقت الفكرة ببالي، ماذا لو أقمت علاقة مع امرأة؟

سيكون الأمر أخف وطأة في ميزان الخيانة، الشرع وأنا.

فكرة حمقاء سولها لي الجوع وصراخ جسدي، الجوع يصبغ اللامقبول بمنطقية متطرفة، وجعي دفعني لأجرك وأجرني في طريق ليس لنا، ارتكبت خطيئة بممارسة ما لا أشعر به أو أنتمي له، سعياً لإشباعي، كدت أن أُضيعكِ، لكن حمداً لله أنكِ أوقفتني.

فكرتُ كثيراً ما الذي عليَّ فِعله كي لا أخسر احترام نفسي، أن أكونكِ وأطلب الطلاق، لا أعرف لماذا تطلقتِ لكنني أعرف أنني لا أمتلك تلك الشجاعة، لأقوى على مجابهة المجتمع بردّة الطلاق على حد وصفهم، والعيش في سجن العائلة، فقط لأنني أصبحت أحمل لقب «مطلقة» ويرغمني أبي على الارتباط برجل قد يكون أسوأ من زوجي لينزع عن رجولته عار طلاقي.

أما السيناريو الأسوأ، أن يرفض زوجي تحريري لأن أسبابي لن تقنعه، ولن تستطيع تمسيد لحية أبي أيضاً، سأجدني أُركل لبيت

الزوجية مجدداً، لكن هذه المرة ستتحول آخر ملامح الإنسانية لدى زوجي إلى انتقام خالص لرجولته من امرأة إثمها الأكبر أنها تمنت الحياة من دون خسارة نفسها.

عبرتني ليالي سوداء، ألوذ فيها بآثامي، أشعر بالشبق، أطلب زوجي هاربة به من شياطيني المتربصة، فيجيبني رافضاً ومستنكراً كيف لامرأة عفيفة أن تطلب زوجها!

أتدرين، كنت أمارس تلك العادة بجوار رجولته المنكسة، وحين أصيب الرعشة الأخيرة، أبصق ملء قهري في وجهه ثم أهرب إلى حضن النوم.

الساخر أنني أراه مع الأخريات يتحدث بكل أناقة وتحرر ناصحاً بعكس ما يفعل، ويلوم أزواجهم ممن يشبهونه، أمام فراشي فقط ينقض حديثه.

تبا له ولهذه الكذبة الشرعية التي نحياها إرضاءً للمجتمع، صدقيني الشرع بريء من أمثالهم.

أعتذر لقد أطلت اللغط، عودة لحديثنا، أنا لست متيقنة مَ عليَّ فعله، لكنني واثقة من عجزي عن المثول أمام بياض روحك مجدداً، لذا طلبت من زوجي إيجاد بيت جديد، حجج واهية أخرى أعدتُ خلقَها ولم يفكر هو بالسؤال عنها، سأغادر صباحاً إلى بيت أهلي حتى يجد لي بيتا آخر، سامحيني. أرجو أن تغفري كل ما كان بيننا.

عبير

***

طافت الروح حول وميض «عبير» بخفة محدثةً إياها:

– «عبير» افتقدتك كثيراً ألا تعين كم كنت أحتاج ذلك، أحتاج إيجاد الطريق، لم يكن شِركُكِ وحدكِ.

لم تجب «عبير»، أخذت تبتعد منهمكة في أوتارها، تغزل ضوءا ملونا وموسيقى.

– أعرف أنني سجنتكِ في داخلي، أردت رؤيتك لأخبرك أنك جميلة جداً، لست وحدكِ المجرمة. أشكركِ لأنكِ حفظتِ سري ولم تخبري أحداً، جئت بكَ كي أُحررك، حلقي أيها الفاتنة.

ما كادت الروح تنهي كلماتها حتى ذابت «عبير» في الأفق، اختلطت هالتها بجسد الغروب ونامت الموسيقى في حضن الشمس الآفلة.

الحرية هي خيوط الذاكرة الحريرية، نطلق أصابعها، تُحلق بلا أجنحة ، إطلاق الخيوط يحررنا، يحرر أشباح الذاكرة وحراسها.

***

بيد مرتعشة قَلَبَ الطبيب الأوراق وأكمل قراءتها بعصبية.

طويتُ رسالتها في صمت مطبق وتملكتني أفكار ورغبات متناقضة، وددت إخبارها إنني لست بتلك البراءة التي ظنَتها ولم تكن هي بكل ذلك الدنس الذي رأته، ربما كانت كلتانا مدنسةً أو بريئة.

لا أملك تلك الإجابة على أية حال، لم أكن المرأة التي أَردتِها ولا الرجل الذي رغبتُه، إنني وجع معلق، وجع خالص لا يملك هوية، وهبتُني لحبيبة «أنتِ يا صفاء» وقد وطأت بك غياهيب

اللامشروع.

أردت إخبارها أن جزءا من خطيئتي معها كان رغبة خالصة بعيداً عن فكرة الحب، وددت الاعتذار لجسدها الذي أهنته استجابة لجوع يفترسني لا لحاجة روح عاشقة، فكنت صورة قبيحة مكررة عن رداءة زوجها.

وددت أشياء كثيرة تلك الليلة لكنني لم أفعل أياً منها، تركت الليل يُسدل ثقل جسده على تلك القصة بلا أدنى مقاومة، طفلة تغمض عينيها أملاً بانتهاء الوجع، ربما ينام أو يموت لا تدري، لكن ما تعرفه أن هروبها ذاك سيجعل صباحها المقبل مختلفاً، ورقة جديدة قَشَرتْ عن وجهها أحداث الأمس ادعاء أنه لم يكن.

ليست وحدها من يحسدني كنت أحسدها أيضاً، أتعرفين لمَ؟ لأنها كانت تعرف جيداً ماذا تريد ومن هي، أما أنا، من أنا؟

ضالة، لم ألتقِ يوماً أناي ولم أميز يوماً هويتي أو أفهم ما أصابني؟ وما أفعله؟ هل كنت بريئة، مجرد إنسان خلق على هذه الشاكلة لسبب لا يعرفه إلا خالقه؟ أم مريضة شاذة- كما يطلقون علي أمثالي- لابد أن تجد علاجا لحالها؟

ربما منحلة بلا دين أو خُلق كما نُعتُ على لسان أبي حين اقتلعني من دهاليز المدرسة قسراً وزجني فِي شِرك أشد قهراً؟

تمنيت أن يخبرني جسدي مرة واحدة عني أكنت امرأة، إذن لمَ أشعر بما أشعر به؟

أم كنت ذكراً، ولو كنته، لِمَ يحمل جسدي سمات الأنوثة، أنوثة مفرطة بلا أدنى خلل هرموني أو فيزيائي واضح؟

الأسئلة مجدداً، تباً للأسئلة.

هذا كان إرثي من تلك القصة، دُفعة جديدة من عذاب الأسئلة. انتهى كل شيء كما وُلد، ببساطة. لم أرَ «عبير» بعد ذلك اليوم ولم أفكر في ذلك، اكتفيت بهذه السطور نهاية أنيقة لقصةٍ ما تمنيت يوماً أن تعبرني، وأدشن بها خطيئة لا ناقة لي فيها ولا جمل.

السُهد يضربني كعادته، أتقلب على فراش من استفهامات طازجة وأخرى متيبسة، يدندن عقلي في محاولة هرب بائسة، تقول جيليان ميدوف[١١]: «راحتي الوحيدة هي النوم. عندما أنام أنا لست حزينة. أنا لست غاضبة. أنا لست وحيدة. أنا لا شيء».

ليتني أكون ذلك أيها العقل المستبد البائس.

ليتني...

(١١) جيليان ميدوف من رواية نقطة الجوع.

الكذبة الرابعة

حين تخرج من العاصفة لن تعود الشخص نفسه الذي دخلها، ولهذا السبب وحده كانت العاصفة

هاروكي–موراكامي

الهرب، دعيني أحدثكِ عنه، هو تلك الفكرة التي هجنها عقلي ثم دسها في أحلامي عنوة. أَطعمها، دفأها، ورعاها كي تخرج للنور. أحياناً أشعر أن ذلك العقل هو وجه آخر لي، كذلك هو القلب، الغريزة، الحاجة، كلهم على حد سواء أنا. كيف لهذه الروح الضالة الشعثاء المتعثرة أن تقبع تحت حكم كل هذه الشذرات، بجوعها وشبعها وإرادتها.

هل تعرفين أن النملة ذلك الكائن الدقيق ليس رقيقاً كما نظن؟

بل عصي على القتل لأن تكوينه في الأصل زجاجي كشذراتي تلك حروفها تدميني، ألف نصل يتدفق في عروقي.

يثرثر ويثرثر، هذا العقل يلسعني بكهرباء فكرته «الهرب» ولا زلت أسأله ممتعضة ما الهرب؟

يغرر بي ليدفعني بعيداً عن معيقات سيره نحو مدنٍ طالما سكنها واستكان بين ظلماتها. قد تبدو لكِ حيواته السرية تلكً في

بادئ الأمر شيئا عظيما لكن مغزى انقلابه هذا العودة إلى الكتب، القراءة والكتابة بعد أن غدتا محرمتين لأنهما أتلفتا خياراتي وعبثتا في سريرة أبي، كدودة تزرع وتحصد شكه واتهاماته التي تبرئ أسلوب تربيته لنا، وتدين بضع كلمات مضيئة بين صفحات كتاب. إن ذهبت أعمق من ذلك، ترتطم بتوق عقلي الدفين لخوض التجربة وسد رمق أسئلة الهوية الملحة تلك. عقلي وليد المنفى، راح ينقب عن ماهية الوطن، هويته المحرمة.

الوطن هو المسمى الأصدق لكل ما نحتاجه، لفظ مطاطي يحمل صوت الراحة المطلقة في سمفونية عذابنا الأبدي، الوجود. أليست الرغبة منبع ثورات النفس، وبيت استكانتها؟

عقلي المختنق في قضبان المشيئة «بيتنا الموقر» يسعى بكل ضراوة للتحرر. يكسو الهرب بثوب مطرز بالحرية دافئ، صبغ وجهه وأسدل خصاله الحميدة، حتى بدا لي الخلاص.

ما الهرب؟

محاولة جادة للموت حياً، الخوف والسجن كلاهما يقبع داخلنا، القفز عن سدود الروح هو الخلاص، لا القفز عن تفاهة المكان وأذياله. تسرب معتقد الهرب لكل قطرة من دمي حتى خِلته الأكسجين، عقدت العزم بكل حماقة على خوضه حد الانتهاء.

الكل نائم، جواز سفري، حقيبتي، لا أحتاج الآن إلا تذكرة طيران لأي بلد لا ميزة فيه سوى أنه غريب عن حبر أيامي. ما أجمل الفكرة وما أبهاها لكنني للأسف عربية، هكذا كُنيت، لن

يدخلونني أروقة المسافة بلا فيزا.

أسطورة الفيزا التي شاعت كمرض بين أراضي الكون المستخلفين عليه، مَنحت أبناء الغرب حقوقا وهمية تشبه خطوط الزمن السائلة، وجردت بقية البشر منها. تبا للفيزا ولكل شيء، أظنني سأقنن الهرب قليلاً وأكسبه بعض أوجه الواقعية، سأحمل حقيبتي وأنطلق بحافلة إلى محافظة أخرى، بدا لي حلاً حاسماً لهذا الهذيان الذي أعيشه.

الهرب حلم أشبه بالانعتاق أو ثورة ضد جبروت لا شرعي مُنح لأناس ابتلينا بشرعيتهم. دَفْعٌ لاواعٍ صوب أشد انحرافاتي وحشية، الخوف المطلق والوجع الخالد.

ما الذي أهرب منه، ضلالة الروح أم أيدولوجية نحياها، علَّ سببي الأوجه، تقشير أناس شرعيين «عائلتي» عني، جل أهدافهم سلخ أدميتي، تحويلي إلى ترس تطحنه التروس الأخرى.

الهروب مدينة شاحبة روادها جن، أطياف، أشباح مسخت بشرا، هالة خوف لا منتهي تكبل الهارب، كل خطوة في درب الخلاص اعتقال آخر، تنفرط كل آمال النجاة، هو بحر موجه يسير بي في مسارات متجددة تكسرها رمال الأمس كلما بزغت، أيستحق الهروب ذلك؟

تتمدد أوجاعي، يأتي شراب الفجر مراً، يسقي صباحاتي دموعا سوداء على هيئة ضوء. الظلال تلوث وجداني، تدنسني، تكشف سوءاتي أمامي، تفضح سريرتي، وحش خامد، يطلقه الليل على جسدي وعقلي، كل شيء حولي مخيف وأولهم رغباتي،

تجرني صوب درب قاحل.

الأمس غول يتجسد بين أروقة أحلامي كأحد تماثيل آلهة الإغريق يقتني سوطاً غليظا من مخاوفي، يضربني اختناقاً تلو الآخر، يجرني بقوة لأشد رغباتي شراهة، همهمات تطارد أحلامي، رغبات جائعة تفور على السطح. أمي بدأت تلاحظني في الصباح، عرق شديد وكأن النوم يمطر، ملابسي أبدلها بلا مغزى، استحمام متكرر، فراشي شذ عن تكوينه، فقد الصورة التي ترسمها يداها، يتحول إلى قطع متناثرة حولي، كل شيء يحيط بي فقد هويته كـ أنا، يمناي تُسقط الأشياء من بين أصابعي، شرودي غير المبرر يثير ريبة أبي، نداءات باسمي لا تصلني رغم وقوفهم بجواري، كل شيء يشير إلى كارثة ستحل على يد رواد سجني، أهلي.

لم أعد أجد الخلاص، بت ساحة حرب، الذات تحاربني، والجندي جسدي هزمته هويته المشتتة، رصاصة «واسيني الأعرج» دقت رأسي لكنها لم تقتلع عني الحياة كسيدة مقامه[١٢]. الوقت يتلاشى والقرار عالق في متاهتي،

ألن تنثرني العاصفة؟ أم سيحفر البياض القادم لي قبرا؟

---

(١٢) رواية سيدة المقام هي أحد أعمال الكاتب الروائي الجزائري واسيني الأعرج ، والتي تصاب بطلتها الممرضة برصاصة في الرأس أثناء إسعاف احد المصابين في معارك الحكومة مع الإرهابيين ، وتتصاعد معاناتها اثر هذه الإصابة على مدى فصول الرواية .

فليكن، حملت حقيبتي وتسللت خارجاً، استيقظت من دهشتي حين لطمني سواد الطريق، وبرودة المجهول. لا سبيل إلى الرجوع، ركبتُ الحافلة وبدأتْ رحلة التيه تكشف سيقانها لماء الطريق.

بعد ساعات خرجت شمس جديدة من إحدى بيضات العمر، ترافق قدمي التي غادرت للتو قصتها ودشنت أرضا جديدة كحمامة مهاجرة حطت.

جلستُ على أحد المقاعد أنتظر، الوقت ما زال باكراً، عليَّ بيع مقتنياتي الذهبية إذ نفدت نقودي لتوها.

المارة كالفايروس فجأة أصابوا هدوء الطرق ، الطلاب، العاملون، العابدون، رفقاء الطريق، المتسولون، الباعة، عمال النظافة، أشكال عدة للحياة، قصص تنبت وتموت. طالما استهواني الطريق وعابروه، ترتدي العيون حليّها وأوجهها المختلفة. الشارع فكرة مكررة، حكايا الوجوه، الخطوات، وللباعة قصة أخرى، تدهشني قدرتهم على إعادة أنفسهم مرة تلو المرة، ترديد الجمل ذاتها واستيعاب رفض مسترسل. أرى الجالسين على العتبات بأحكامهم الجائرة التي تلاحق كل عابر. تسلق الخوف روحي، ربما يعرفني أحد ويخبر أبي، حاولت إخفاء وجهي بطرف حجابي، عبثا أمنح الروح بعض الطمأنينة الوهمية. من هذا ومن تلك؟ من أين نبتوا وإلى أين يسيرون؟

جميعهم وهم، رحت أحدث نفسي مطمئنة إياها:

كل ما ترينه حولك وهم، خيالات تمر بقصتك وفق إرادتك، تلك هي الحياة يا أناي البائسة، أغلقي عينيكِ وأذنيكِ سيختفي

كل شيء. إنهم عناصر تساهم في اكتمال اللوحة، تماماً كالصباح والأشجار في قصة الذئب والراعي، كالضحكة الرثة على وجه موناليزا دافنشي، ككل تلك الأشياء التي لا تساوي أكثر من كونها دورا جانبيا مساعدا يكمل النص.

زفرة تعثرت في صدري وأنا أتفقد الساعة، الوقت مناسب للذهاب، لكن عليَّ إعادة ترتيب خطواتي، سأذهب إلى أقرب صائغ وأبيع مقتنياتي، ثم أنتقل بعدها إلى عنوان الغرفة التي اتفقت عليها هاتفياً. غرفة على سطح إحدى البنايات بسعر يناسب إقامة طويلة، قريبة من السماء، وكأنها تقربني أكثر مني، تحلق بي بعيدا عن ضوضاء الأرصفة، والعيون.

ما الذي أفعله في هذه المساحة الرثة مني؟

دون إبرة أحوك الدخان، خيوط تتسكع أمام جسدي الصامت، جسد مسجى، أرقد على ما يشبه السرير، خيالات رمادية تتراقص بخفة، مجرد خيوط من تبغ، تتمايل بحرية تنطلق بنشاط صوب الفراغ، تحمل على أكتافها صوتي النائم، أفكاري التائهة تعبرني صوب سقف أغلقه الإسمنت بإحكام، كل شيء مطلي بالسكينة. كيف أشتعل بكل هذا الهدوء وسط هالة كونية صامتة تراقبني. تتأملني عيون القدر وتنتظر، ما الذي سينتجه كل هذا الحمق؟

التبغ، يهذي بكل ما أخفيه، أنظر بعين من قلق لرسمة الغد ولا زالت عيوني مكممة لا ترى ما يجب عليَّ فعله، أنا اليوم بكامل حريتي الوهمية.

ما الغد يا «نور»؟

أسألني من دون سماع أجوبة، مرت أيام عدة وأنا عالقة في حالتي تلك، الدخان يتصاعد أكثر، يحملني معه. لا أشعر بجسدي هذا الثائر الوحيد في دنيتي الفارغة، غدت هلوساتي كل ما أملك لهذا المساء. إلى أين لا أعرف؟

أينكِ؟ أيني؟

تتبخر أحلام الطمأنينة، لا خلاص، تنفد محاولاتي للفهم هنا. ماذا أريد؟

الأسئلة تفسد نكهة المساء، أحكم إغلاق النافذة.

أنا خائفة

- ما المخيف

- لا تحادثني مجدداً أيها الظل وإلا قتلتك.

يراودني إحساس بالغثيان، تقيأت، أشعر بتحسن الآن أو ربما أشعر بـ بيسوا[١٣] حين قال: «محبوسين دائماً على الأقل فيما يتعلق بنوع الحياة بين الجدران الأربعة للغرفة والجدران الأربعة لانعدام المعرفة بالفعل»[١٤].

في غرفتي أهدهد أحلامي، أقنعها بعدم التخلي عني، تساقطت الخطط التي رسمتها، امتص إسفلت الهرب جرأة أفكاري وتركني فارغة، أكتب الترهات التي أشعر بها علَّها تذكرني بي، أو ترشدني وسط بحور الريبة التي تبتلعني. كيف أهب الحرية لروح

---

(١٣) فرناندوا بيسوا شاعر وكاتب وناقد أدبي ، ومترجم وفيلسوف برتغالي .

(١٤) كتاب اللاطمأنينة / ج١ فرناندو بيسوا .

ألفت القيد منذ نعومة أظافرها؟

تفككتْ عني أرواحي السبع، كيف أجمع انكسارات تسعة عشر ربيعا زائفا في شجرة واحدة أنا. سأبحث عن فتاة أحبها سعيا إلى حرية نَقَضَتْ للتو قيدها، لكن هل نجد الحب نحن أم يجدنا؟ ما الذي أبتغيه من كل هذا؟

الحياة أو الحرية، ما هي الحياة؟ مجرد سيناريو كُتب مسبقاً نؤديه بلا وعي، نسير وفق أوراق قدرية رسمتنا وأكبر الممثلين في هذا العبث عقلنا الذي يوهمنا أنه المتحكم، أنه مركز الكون. لا يا عزيزي أنتَ دمية حمقاء تؤدي خطيئتها ـ الوجود ـ بشكل رديء تمارس الكذبة ببراعة وتكون أول المصدقين، كم أنت مزر!

ما هي الحرية وأنا خائفة من كل شيء، لا خطط ترسم صباحي القادم ولا اليوم الذي يليه، لابد من مواجهة ذاتي المختبئة داخل جدراني، ما الذي تنوين فعله يا «نور»؟

سأبحث عن عمل لأبدأ معركتي الحقيقية مع الخلود.

الخلود!!

نعم الخلود، أنا الخالد الوحيد في حكايتي، بل وفي هذا الكون أيضاً. الآخرون مجرد محطات، أدوار ثانوية أنا من يمنحها الوجود وأنا من يأذن لها بالرحيل، إن أغلقت عينيي ذاب أثرهم وإن تركتهم طواهم الزمن. أعبر شوارع الحياة وأشباحها لينتهي سوادي في لفة بيضاء، أتحرر وتكمل الروح درب الأبدية وحيدة كما بدأت.

رحل التبغ حاملاً دخانه، لكن طنين رأسي باقياً ما بقيت.

سأدّعي النوم علَّه يخجل ويزورني، غداً سأبدأ كتابة فصول حياتي القادمة على حد وهمي أو سأنفذ ما تمت كتابته. تبا لتناقضي وللنوم أيضاً.

***

لم أكن أعرف أن السمو ممل بهذا القدر، صفير الأجهزة الطبية، أشباح حياتي الصفراء تدور صامتة محاطة بفراغي شمس تدور بي وحولي، هواجسي وأنا. أتوق لكِ، أتملك الروح رغبات أيضاً، أتُكتب لي خطيئة أخرى؟

خطيئة روحية، أتتزوج الأرواح وتنجب؟

تحضرني كما كانت تفعل، أشعر بأصابعها، أصابع قمرية ترسم ضوءاً على عتمة جسدي، في كل مرة تحدثني عني وتخبرني سري. من أنا؟

أنثى؟ ذكر؟ كلاهما؟ أم مجرد خطأ مطبعي؟

كنا واحداً في جسدين، يضمنا الحب، نلتحم، أُبصرك بلا عين، ألقاك خلف النظر في زوايا الالتحام حيث تلتقي الأنا بكلها، ترتفع أنفاسي.

أطلقت الروح ضحكة ساخرة، أفيقي أيتها الحمقاء، أنتِ كتلة من طاقة لا تملك أدنى جسد.

***

الخوف وحش ميتافيزيقي يتغذى على الوساوس، لا شكل له أو لون، مجهول يتكلم بلا صوت، يُسْمع كعاصفة تطيح بكل منطقي، ما حجم قرونه؟ طول أنيابه؟ كينونته؟

لا مُـعـرف لـه، يرانا ولا نراه، في بادئ الأمـر يرسم العـقل إسكتشا ضبابيا له ملامح كاركاتيرية، شيئا فشيئاً ينحرف عن صورته صوب المجهول، يقتات الرهبة، وكلما مُنح كمية أكبر من أدرنالينا يتضخم، تذوب ملامحه، يغدو سواداً أعظم أو سوراً كئيبا يحول بيننا وبين الكون.

ما الخوف؟

فَلكٌ لامنته من الدوائر اللامنطقية، ننخرط فيه بلا وعي، نَعْلَقُ فلا نملك العودة أو الوصول لمنتهى. ربما هو رجل ذو أنياب، أو حالة حَمَق، تُحيِّد المنطق، تُسدل ستارا لاعقلانيّاً يحجب الجمال. تَرى الشجرة غطاءً لما خلفها بدلاً من رؤية عصافير أغصانها، تُشقيكَ مراقبة كل ما هو قادم وتَغفل عن قطة تحيط صغارها بفرائها. تطارد غيلانا لا وجود لها إلا في عقلك، أينقصك أعداء كي تصنع مزيدا وهميا منهم؟

كأية مصابة به، خشيت مغادرة البيت، عانيت الجوع لياليَ، وأخرى أرغمتني على النزول لشراء ما يكفي من طعام، وتلك أيام أقل ما توصف به أنها كابوس ساديّ لا ينتهي. في أحد الصباحات لم أجد خبزا جافا يسد أنين معدتي، أمضيت ساعات أفكر في الوقت الملائم للخروج.

الظهيرة، الموظفون في أعمالهم، والعاطلون يتثاءبون بين أغطية مللهم، لكن مهلاً، إنه الوقت الأمثل لوصول زوار المحافظات الأخرى، هؤلاء مَنْ يخرجون صباحاً لإدراك اليوم من أوله، ماذا لو حملت إحداهن أحد الأقارب، أو لحظي العاثر حملت معها أبي أو

أخي لتُلقيهم في وجه هروبي. لالالا الظهيرة لا تصلح.

المساء، الشوارع تضج بصهيل الأحذية، تمتمات المارة وشمس تجري مسرعة صوب موتها، أجنحة الليل تركل الأبيض عن ثوبها، الأضواء الصناعية تتراقص أو تتقاعس عن وصف المشهد بدقته، صوت الباعة يطلي كل شيء، كيف سأسير وسط هذا الكم من الغرباء؟ لهذا الصخب قدرة على حجب الرؤية، لن أستطيع متابعة الطريق وتمييز كل العابرين، ماذا لو تبعني أحدهم وعرف أنني أقطن وحيدة وهاجمني ليلاً ليقتنص أنوثتي وما تبقى لي من مال. لا لا المساء مخيف أيضا.

ربما أُرسل أحد أولاد الجيران وذلك سيتطلب معرفة أهلهم وطلب المساعدة منهم، ويعقبه سين وصاد من الأسئلة التي لا أملك رداءً يستر استفهامها.

كل شيء حولي يخيفني، بل أخاف الخوف ذاته، لم أجد يومها بدا من النزول، كنت أسترق خطواتي كما أسترق عمري، مسرعة.

ذلك الرجل يلاحقني، بلا وعي غدا السير عدْوَاً وعَدواً، دخل الرجل الشارع المجاور، إنه مجرد كائن وهمي عبر بالصدفة مخاوفي.

تلك المرأة تنظر إلي، نظرتها تُضرم رجفة كهربائية في خلايا جسدي، بالكاد أسيطر على اتزان خطوتي المتوترة، إنها تقترب. أُسرع، فتسرع، أحسبُ خطاي خطاها. هيأت نفسي للجري للصراخ لكن الصدمة صلَّبت ساقيّ ولم أجد بُدا من مواجهةٍ لم أُعد الروح لها.

– مساء الخير هل أخبرتني اسم الشارع الذي نقف فيه؟ لقد تهت عن طريق العودة ولا أجد أي معلم أو يافطة تدلني.

تلك الغبية كادت تقتلني.

– أعتذر لست من هذه المنطقة.

راحت ساقاي تدبان على الأرض متثاقلتين بحمولة خوفي وكمية أدرينالين قادرة على إفقادي الوعي، ربما فقدته وأسير بجسد مُغْمىً عَلَيْه، صدقاً لم أعد أدري. اشتريت من أول بائع وعدت إلى غرفتي أجرّني.

***

أغلق الطبيب الأوراق بحرص، نظر إلى الساعة التي أنبأت بتأخر الوقت، فركَ عينيه ثم عبث في خصل شعره غير المرتبة بكلتي يديه ، مطلقاً زفرة حملت معها رائحة قهر أخفاها بحنكة رجل اعتاد الألم.

– عادة يلجأ المرء المثقل بوحدته المثخن بالوجع لفركِ خصل شعره بكلتي يديه وكأنه يحضن نفسه بنفسه ويخرج لسانه للكون «لا أحتاجكَ».

– أتظنينه اكتفاء؟

– ربما لا شيء مؤكد.

حديث زوجته ما يزال طازجاً في الذاكرة. أشاح وجهه صوب «نور» واقترب كثيراً حتى كادت أنفاسها الاصطناعية تخترق صدره وتمتم:

- كم تشبهينها في الإدراك والوجع معاً.

***

- انظري إلى هذا الطبيب يكاد يُقبلني، يُقبلها، ماذا أقول؟ الأمر محرج، كم أنا حمقاء، هذا ليس وقت تدريس اللغة، ماذا أصاب هذا الطبيب كيف أخبره أنني لست زوجته أو حبيبته، أتظنين أنه قد وقع في شرك حبي؟

أطلقت الروح ضحكة عالية بلا صدى، فلأصوات الأرواح حضور مستتر.

لماذا يميل البشر دوماً لكل ما هو غير متاحا؟

أُنظر حولك النساء تملأ الأرض، دع أناي لصعودها. تمتمت الروح بكلماتها ثم مكثت في إحدى الزوايا العليا للغرفة تراقب صامتة الصبح يخرج ببطء على وجه الطبيب النائم بجوار جسدها - يحرسه من قدره الذي ستحل زوابعه رغم أنفه- وأبطال قصتها نجوم تدور في فلكها بلا ملل.

***

في تلك اللحظة من اللا وقت تذكرت ابن جارنا الذي هاجر منذ صغري وعاد يافعا، يتحسس الأزقة بعينه ، يعانقها ويثرثر عن طفولته كما قال أخي الذي شاركه تنظيف منزله، كان يبتسم في وجه كل دمية، يسرد كل واقعة، يلملم ماضيه من كل بقعة حبر لطخت جدران غرفته، لكنه رغم هذا الشغف المفرط لم يكن ينوي البقاء، عاد ليرمم ذاكرته بعد أن فقد آخر حرف عربي سكن ضلوعه بوفاة والده. جاء يتذكر ماهيته ويتحصن بها في أيامه المقبلة.

– أناي، ماذا تملكين لتسردينه عليَّ؟

لم أكن أعي أن الهارب يسلم للوقت ذاكرته، يكمل بلا ذاكرة يتكئ عليها كلما هبت رياح الخوف. كنت أحدث تلك النائمة في جسدي طيلة الوقت، خشية أن أنسى أو أُنسى. نحن آخر ما نملك في كوني هذا.

أيملك المرء طاقة المضي بلا أمس؟ أيرتجل الغد؟

الأيام تمضي بلا هدف، حتى إنني بدأت أنسى لمَ هربت وأتأكد أنني في أول اختبار حرية فشلت، فككت لجام البيت الجلدي لأوصد سلسلة فولاذية حول عنقي. جال ببالي الموت للحظة، دائماً يُعرينا الموت وكأنه النار التي تذيب جليد الزيف.

في المرة الأولى التي أرغمتني أمي فيها على الذهاب إلى بيت عزاء ؛ إذ لم أعد صغيرة على حد قولها، لقد تزوجتُ وتطلقت مما جعلني أُكنى «امرأة» في مقياس ريختر المجتمعي. أذكرها وكأنها اليوم، دخلتُ خلف أمي لا أميز من الحضور سوى زوجة الفقيد وبعض نساء العائلة كوجوه لا أسماء لها. ملامحها الباكية حملت مزيجا متماهياً من الصدمة والوجع معاً، متورمة الوجنتين وكأن عشرين عاماً حطت فجأة كغراب على سنين عمرها.

– لقد كان يدللها ويهبها من السعد ما لم تذقه في بيت والدها.

يحسدونها حتى في الموت، أدرت وجهي مرتبكة، تلك التجمعات تربكني دائما. لا أعرف ما الذي عليَّ قوله كلما مدت إحدى الزائرات كفها للتحية، كل هذه المصافحات تخنقني، منذ

نعومة أظافري أكره أن يلمسني أحد، لمَ كل هذه التحيات الكاسدة الكاذبة، الغالبية تحمل الحسد بين تعاريج كفوفها. متلعثمة أتنقل ببصري بين الحاضرين، تلك العجوز ذات العيون الزائغة هي عمة المرحوم، وجهها الشاحب يتآلف مع الموت ليكشف حديثها الخفي لنفسها.

– الدور قد اقترب، النهاية تشق طريقها عبر ما تبقى من أيامي.

أما السيدة التي تخفي وجهها بصمت فزوجة أخ الميت، خجلت من وشوشات الجالسين وهم يتململون ويتساءلون، متجاوزين كل حياء أو قدر، لِمَ لمْ يمت زوجها وقد أصيب منذ عدة سنوات بمرض يفتك به يوماً بعد يوم، أيخلد الرفات ويموت صحيح البدن؟

دخل الميت محمولا على أكتاف مسرعة، وضع لدقائق لا أذكرها كي تودعه الزوجة والأبناء، وسط أنين الشفاه ونحيب مسموع وآخر صامت، ثم سرعان ما خرج كما دخل.

– لا بد أن نلحقه بصلاة العصر. صرخ أحدهم.

تدهشني السرعة التي يطردون فيها الميت أو جسد الميت، يعيدونه لأمه الأولى التراب، أهي محاولة إثبات رضوخهم للقدر وطاعتهم، أم أن حمله كان ثقلاً يذكرهم بنهايتهم أم..

كل ما نعيشه بلا تفسير، مجرد حركات آلية مكررة، نرددها بلا بنت سؤال، لا أحد يجرؤ على كسر قدسية الدائرة. هل تجرأت أنا؟

الوحدة تأكلني، على حافتي أقرض كلماتي عليَّ، أنغمس أكثر في هذياني، لم أعد أميز بين الوهم واللا وهم، أسقط واقفة وأقف وسط دوائر تلفني بسرعة، تعانقني كأفعى تكسر وعيي، لمْ يكتفِ الظل بمشاطرتي الحديث، بت أسمع الطاولة تكلمني، أبطال الأوراق، الأطباق، الكؤوس، ضوضاء تطبق على عقلي، توقفواااا.

أريد لحظة من صمت، أريد حديثا حقيقيا، إنني أختنق.

أينكم؟

لا تتركوني، أعرف أنكم في مكان ما تشعرون بما أشعر، وتخشون العالم خشيتي له، كيف أميزكم، الموت عرى كل شي إلانا نعيش سجناء أجسادنا ونموت بلا هوية، لا طاقة لي بكل هذا، قدرتي تهوي، لا أمنعها، من الحكمة ألا ألاحق أوراقا جافة وهبتها الأغصان للخريف.

في ذلك الوقت كنت أجادل نفسي كالمجنونة في عزلتي تلك.

فيم هتافك، وأنت توقنين أنه لا أحد على ملتك، الجميع يحيا حياة مستقرة متآلفين مع هويتهم الجندرية، مستأنسين بأنصافهم، وما نداؤكِ إلا محاولة بائسة لإقناع ذاتكِ بأن الكثير يميلون لما تميلين إليه، فتقنعي بذلك نفسك أول كارهيك.

– تعرفين أنني لا أختلقني بل وتلمسين رَجُلي الخفي كل يوم، تمارسينه حلماً ووعياً، تنتشين بأحلامه، تسايرين واقعه بصمت، فكفاكِ إنكار الشمس رغم ضوئها.

– فتاة جميلة أنتِ اُنظري لرقة جسدك، دعيه يمارس الحياة وانفضي هذه الأوهام عنك.

– انظري إلى المرآة إن استطعت واقبلي بعرض الأنوثة البادية، انظري وجها لوجه إلى زيف الانعكاس، واعترفي أنها أنت وأعدكِ برحيل صامت عنكِ إن فعلتِ.

أجابتني أناي الرافضة ساخرة وأجبتها، كيف أُكمل بكل تلك الوجوه المتضادة، أيهم يقيني وأيهم وجهي الزائف؟

الأصوات، تدخل وتخرج، أنا مجرد لا شيء، مسجون وارته الأسئلة.

لا أجوبة في مملكة اللا حرية المتهاوية، تتمادى الأيام في تجاهلي، الشهور أيضاً لا تتوقف، تسير فوقي متبجحة، رتابة دميمة للفراغ، رويدا رويدا يقتنص ذاكرتي يقتات عليها. كاد العدم يبتلعني لولا تلك الأمسية التي دخل خط الانترنت مملكتي، صديق ألفته في عهدي الأول يزورني أخيراً لنتشارك الحرية معاً.

سأكتب، كان ذلك أول قرار أتخذه، قررت فتح صفحة فيس بوك جديدة أسطر عليها ما يجول بوجعي، أترك للحروف حرية الصراخ وأصمت،

«بلا جسد»، الاسم الذي اخترته لكياني الافتراضي، فتحت بوابة شاهقة ما عرفت يوماً، أنني أضأل من فكرة عبورها وبدأت.

«صوتكِ العميق بروحي يشدني، أشعر بالضياع كأن روحي رحلت وجسدي بلا رأس يدور حول جوعه دوائر مفرغة دونك.

الفضاء يسلبني الضوء، عيوني تائهة تنقب عن ظل عابر له نكهتكِ.

اختفى الطريق.

المتاهة تنشد أغنيات ناي عِشقكِ، ذات رتال أضاعكِ، راح ينوح باسمكِ على كتفي علنا نستدل عليكِ».

بين جدران غرفتي سُجن جسدي الذي أطلق حروفه في فضائها الرقمي تمارس الحرية، تتسلق الجدران، تخرج، تلتقي بالمارة وتحكي.

«في المقهى القديم خلف نافذة الرواية أشارك الأوراق كأسا من فراغي المتخمر، بلا ثوب بلا ظل، بلا ثقل ينهك جسدي المقعد مترهلاً صامتاً، أراقب حكايا الطريق، تلمع بين جدائل ضوء كسره زجاج عقلي، شذرات ضوء ترتدي سم القصص العابرة، رؤوسها حادة تخدش دهشتي، أنزف أفكارا بلا مغزى تتيه في دمي، أختنق، لا تذبحني ثمالة الفراغ وإنما يقتلني دمي الملوث بجحيم الأسئلة. الموت إقصاء عن حلبة البحث الأبدية، واللامبالاة ذنب في حق المعرفة، وبين هذا وذاك لا أجد تلك السنبلة التي جعلتني خبزة في فم الضلالة».

بات لهلوساتي متابعون، معلقون يقاسمونني هذا الوجود الواهن على صفحات الفيس، حضور يخيفني تارة ويحثني على الكتابة تارة أخرى، باتت أسماؤهم مألوفة لي رغم جهلي بماهيتهم، يشدني « بلا جسد» أكثر نحو الرجوع إلى العالم، هذا ما ظننته، فتحت باباً للجحيم عن جهالة.

الفصل الأزرق[١٥]

المنشور الأول

S....h الكل عم يكتب وينزل عن الفخر وعدم الخوف من ناحية المثلية الجنسية، بس ليه كلكم بحسابات مزيفة؟

ما انتو عم تدعو عالافتخار بذاتك وتكون مبسوط ومرتاح مع حالك؟

٣٣ تعليق ٣٤ أعجبني

التعليقات

Ja....y وقت تكون مهدد من محيطك مضطر تعمل حساب وهمي

والحساب الحقيقي مو هو اللي بتنشر في صورك وبتكذب في عالناس هو اللي بتبين فيا شخصيتك الحقيقية.

أعجبني. رد. يومان

....J اوكي اذا انت وهمي لا تنزل عن الفخر وعدم الخوف لكان.

---

(١٥) هذا الفصل منقول كاملاً من منشورات حقيقة على صفحات الفيسبوك ومواقع الكترونية ، ولم تتدخل فيه الكاتبة بأي شكل .

انا عايش بأزبل منطقة ب.. ومع هيك عم بحاول
أعجبني. رد. يومان

S....h برجع بقلك مو كل إنسان فيه يعمل نفس الشي، الفكرة مو بالصور والأسماء الفكرة بالأشخاص وطريقة تعاملن وافكارن

بما أنك عم تحكي عن الفخر ليش ما بتنزل بعلم الرينيو عشوارع منطقتك.

أعجبني. رد. يومان

A...a اي حدا لو فيه بقول للعالم انو مثلي ما رح يتأخر بس للاسف عايشين فخفاء بسبب المجتمع الشرقي حسابنا وهمي لانو لسه مافينا نواجه المجتمع كنا نتمنى نقدر نغير شي وبشوف انو قصة لحساب حرية شخصية

٢ أعجبني. رد. يومان

Di...TG Mine is not but i still dont have My fam on it ...

Coz u already know wassup in our community, some people might get killed or kicked out or u never know!!

Its not coz they dont want to!

٢ أعجبني. رد. عرض الترجمة. يومان

S....h حبايبي انا فاهمكم بس اذا الشخص خايف ما في داعي انو ينشر عن عدم الخوف

الاشي منطقي صح ولا غلط؟

١ أعجبني. رد. يومان

B..n That's sad but true ??

أعجبني. رد. عرض الترجمة. يومان

A.... في فرق بين عدم الخوف والشجاعة والغباء... اهم شي ان الشخص يتقبل حاله اول شي... وبعدين كلنا منحاول ان نغير عادات وتقاليد المجتمع لحتى يتقبلنا... ولا تنسى أغلب الأشخاص هون لسا عايشة مع اهليها او لساتها ببلاد متخلفة واذا أظهروا هويتهم هالشي بيكون خطر كتير كبير عليهم... ممكن اهلهم يقلعوهم من البيت ممكن يقطعو عنهم المصروف... ممكن يضربوهم يعذبوهم.. وكمان نفس الشي بالمجتمع ممكن حتى ببعض الحالات يتعرضو للقتل....

وتفاديا لكل هالشي انا مع الحسابات الوهمية بهالوقت وبهالحالات تحديدا

مجتمعنا لسا مو جاهز أن نطلع كلنا بالشارع ونطلع اعلامنا ونفتخر علنا بالشارع... بس رح يجي يوم وبهمتنا كلنا رح يتحقق هالشي... بس شوي شوي...

٣ أعجبني. رد. يومان

S....h

A.... افهمني من شان الله

انا فاهم هاد الشي

بس ما دام انتا بعدك مو قادر تطلع بالشارع هيك ما في داعي تقول انك مو خايف ومدري شو

أعجبني. رد. يومان

A.... انا مو خايف وبطلع وبعمل شو ما بدي... بس لأني ببلد آمن بيضمنلي حقي ان أعمل هيك...

وكمان هالشي شي شخصي... يعني الواحد ما بيمشي بالشارع وبيعلق على صدره «انا مثلي» كتير اشخاص عايشين حياتهم طبيعية ومو خايفين بس ما بيقولو لكل الناس عن ميولهم الا اذا اضطرو....

انا وقت طلعت من الخزانة ما نشرت شي عالفيس... بس خبرت اهلي والناس والرفقات العزيزين واللي انا عتواصل دائم معهم او بشوفهم كتير

بس وقت اتعرف على اي حدا جديد ما بقول مرحبا أنا اياد وأنا مثلي.... لا بخلي كل شي طبيعي واذا صار مناسبة لنحكي عن الموضوع ممكن قللو اذا حسيتو بيتقبل... وإذا ما بيتقبل ما بقلو أبدا

أعجبني. رد. يومان

H..ki لأنه بمجرد ما اتفاعل بحسابي هادا أو عبر عني توصلني كمية رسائل فيها العجب العجاب سب قذف تحرش استفسار طلبات غريبة ومن حسابات وهمية طبعا... فطبيعي أني أتجنب وجع الراس والقرف واتفاعل بحساب وهمي مبهم مع ذلك لا أسلم ولا ارتاح

١ أعجبني. رد. يومان

S.....h

H..ki بتقدر تتجنب وجع الراس بمجرد انك تعمل حسابك

خاص ومو اي حد يقدر يتواصل معك.

أعجبني. رد. يومان

S....h احنا عايشين بمجتمع مغاربي عربي

بمجرد ما شاف تعليقك أصبحت هدفا له

بس شكلك والله لا تعلم.

أعجبني. رد. يومان

حم....ى من الناحية الأمنية ليست فى مصلحة المثلى العربي أن يشهر مثليته ولا صورته ورقمه وعنوانه على النيت فنحن لسنا فى دول تحترم المثليين وتمتعهم بحقوقهم إلا بعد ان تلغى القوانين المجرمة لنا ثم لنرى ماذا بعد...

أعجبني. رد. يومان

المنشور الثاني

ده رد داليا، البنت اللي اتعرضت لهجوم بعد اعلانها خبر إرتباطها من صحبتها:

ردا على الهجوم اللي تم على شخصي وعلى أهلي بخصوص حياتي الشخصية أحب أعرف نفسي، أنا داليا، البنت اللي تم التعدي على خصوصياتها وتم نشر تفاصيل من حياتها الشخصية وادعاءات مالهاش أي أساس من الصحة. والتعرض لأهلها بأقبح الألفاظ والصور الممكنة واهانات، ما اتقالتش على القتلة والمجرمين والمغتصبين واللي خيبوا آمال شعوب بأكملها وجوعوها وشردوها وتلاعبوا بيها. انا اللي اتقال على موضوعي إنه من علامات

القيامة، أو ان القيامة المفروض تقوم بسببي، لكن كل اللي بيحصل في العالم من كوارث في كل مكان ومآسي ومجازر وناس بتموت من الجوع والقهر والذل لا يستحق إن القيامة تقوم عشانه. أحب الأول أقول ان أبويا زيه زي المجتمع اللي هوا عايش فيه اللي بيرفض المثلية، أبويا مسلم محافظ ومؤمن بإن اللي بعمله «غلط وحرام». الفرق ما بين أبويا بقى وبين أي حد تاني، انه فاهم الأبوة صح وبيحبني حب غير مشروط، حتى لو كنت أنا «غلط»، بابا بيتمنالي «الهداية» وإني أبقى «غيرية» أو بميل للذكور، وأتجوز وأخلف من ذكر. بابا قاطعني سنين طويلة ف حياتي وأخد وقت طويل عقبال ما كلمني، وأنا كبنته، بارة بيه وبحبه حب محدش يتصوره حتى لو كان شايف ان اللي أنا عليه «إثم» و«حرام».

بابا لما قاللي مبروك، قاللي كدا عشان قلتله إني سعيدة، وتمنالي السعادة من بعد ما تمنالي الهداية. وان دي حياتي الشخصية وأنا مسؤولة عنها، ولو حرام بالفعل أنا اللي هتعاقب في الآخرة مش حد تاني غيري. اللي بعمله بالنسبة لبابا حرام؛ بس مش ف حرمة الدم وأذى الآخرين والسرقة والخديعة والجشع، وشايف انه بما اني شخص كويس، هتبقى نهايتي كويسة، وانه مش ربنا عشان يحاسبني، هوا ف ايده بس النصيحة المستمرة والحب والدعم وانه يبقى جنبي لأني بنته. أنا بقى، مستوعبة انتشار الموضوع، لأنه صادم لمجتمع عنده أفكار ثابتة وبيرفض الآخر، خاصة لو اختلف معاه ف الدين أو الآراء السياسية أو اللون أو الميول أو أي صورة نمطية. غير انه مجتمع اهانة المرأة والتعدي عليها

فيه شيء عادي ومقبول اجتماعيا، وأي أعباء اجتماعية بتلقى عليها وبتبقى هيا المسؤولة عنها. وان دور الأب والأهل هو الإهانة والزجر والكراهية والضرب والتعدي، عشان «التقويم». ودا مبرر حقيقي انه يتقال بسببه على ثقافتنا «ثقافة ارهاب». وأحد الأسباب اللي خلتني أسيب..، ان الظلم والأذى ليهم ألف مبرر ومقبولين. وهلاقي ناس شايفة التعدي عليا وعلى أبويا وأهلي كلهم بالألفاظ والأذى والتهديد شيء عادي جدا، بل وواجب كمان،حتى لو كان سلوك الناس اللي بتتعدى دي حقير وجريمة يعاقب عليها القانون.

كمان عشان الصورة النمطية عن المثليات اللي الناس بتشوفها في الأفلام اللي بترسخ فكرة «العقدة النفسية» وانها شخص «مريض» أو «ناقص» أو مرفوض والناس بتقرف منه. محدش بيشوف ان المثلية دي (مع إني أرفض التصنيف) ممكن تكون شخص متفوق وناجح في حياته الشخصية والعملية وبيشتغل فمكان حلم الأمريكان وكل المهتمين بالمجال التقني في العالم يشتغلو فيه. محدش بيشوف ان حد زيي عنده علاقات انسانية سوية وناس بتحبه وتدعمه، سواء ذكور أو إناث، مثليين وغيريين، من كل الأديان والمعتقدات والأفكار والجنسيات، واللي كان سبب الاستهجان اللي شفته من ناس كتير جدا مستغربين ازاي أصحابي وناس تانية بيقولولي مبروك وبيتمنولي السعادة. وحتى لو مكانتش ناجحة، والظروف والامتيازات حطتني في مكان مختلف في الحياة، محدش ليه حاجة عند حد غير المعاملة الطيبة. واللي

بيحصل في حياتي الخاصة ما يخصش أي حد لأني مش بضر حد، واللي شايف اللي أنا بعمله «مخالف للفطرة» هي دي فطرتي وفطرة ناس كتير على وجه الأرض، من الناس دي ناس ساهمت في تطوير العالم ونفعت الانسانية، وزيهم زي أي حد، فيهم الصالح والطالح. أنا في علاقة سعيدة مع واحدة، خريجة هارفرد، وبتعمل دكتوراه في ستانفورد وشخص ناجح ومحترم وبقدرها وبحبها جدا، وفي رأيي مافيش فرق بين العلاقات المثلية والغيرية، من حيث المعاملة والمشاكل أو التفاهم من عدمه، هي بالضبط نفس الشيء، ومافيش لا دور «ذكر» أو «أنثى» في أفراد قرروا تكون حياتهم مع بعض، وأي شيء وارد انه يحصل سواء خلاف أو محبة. أنا مش وظيفتي هنا اني أقدم بحث علمي عن وجود المثلية في جميع المخلوقات والكائنات الحية أو أبررها. اللي مش عايز يعرف مش هيعرف، اللي عايز يكره ويشتم ويحقد هيعمل كدا، واللي عايز يبحث هيبحث ويفهم ويعرف، مش مسؤوليتي أغير رأي حد أو أحطله المعلومات في دماغه بالمعلقة أو أخليه يتعاطف ويفهم، بس مسؤوليتي اني أرد على القبح اللي اتنشر عني وعن أهلي، دا غير الكلام اللي اتنشر بدون اذني بغرض الـTraffic، من جرايد وضيعة وغير مهنية. مسؤوليتي اني أوضح ان حب الأهل لازم يكون غير مشروط، وان الكراهية والنبذ عمرهم ما كانو حل لأي مشكلة. الكراهية بالنسبالي اثم قبيح، لأنها بتأدي لأذى الآخر، ومظنش اني أذيت حد أو تعديت على أي حد بقدر الناس اللي أذتني في مصر بخصوص حياتي الشخصية، وأخيراً، أنا

شخص عادي. والعلاقات الحميمة مش غصب، دي شيء بيحصل بالتراضي. وان الاغتصاب والتعدي أكثر اثما وقذارة وحقارة من علاقة تمت برضاء جميع الأطراف، مافيش شيء يخليها مختلفة أبدا عن أي علاقة غيرية غير اختلاف النوع الاجتماعي أو الجندر. والاختلاف والتنوع سنة الكون.

التعليقات

O...er كوننا مثليين:

لا يعني تجردنا من الأخلاق

لا يعني كوننا مجرمين

لا يعني كوننا حاملي أمراض

لا يعني كوننا عباد جنس

لا يعني أننا نخرج عراة للشارع

كوننا مثليين فقط يعني انجذابنا عاطفيا وجسديا للجنس نفسه

#المثلية_ليست_مرض

٨ أعجبني. رد. ٨ أسابيع ٣ ردود

N....ohحقيقة صار الواحد قبل مايدخل الفيسبوك يقول اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث...أكثر من الحمام من كثرة الناس الوسخة

٢ أعجبني. رد. ١٢ أسبوعًا

سوف. لو عرفو وحسوا اد ايه حياتنا صعبه وبنموت الف مره

فاليوم من الوجع والقهر والذل كانو محدش قال كلمه واحده مهينه وقاسيه لانو هم كانو هيعرفو انهم عايشين معني الارتياح النفسي بجد اما احنا الله معنا ويلهمنا الصبر على الساعة اللي بتعدي فعمرنا بسنه. لو هتكلم عن نفسي اقول ايه بس... من كتر حكايتي مش عارف منين ابتديها ولو اتكلمت هتفرق فايه وايه الفايده بس كل اللي اقدر الخصه في حاجتين.. باحس بايه.. ونتيجة الاحساس دا بيعمل فيا ايه من اعراض.. باحس طول الوقت اني انثى طاغيه ودا اكتر بسبب الكبت والحرمان من اني اعيش ميولي، نفسي اتكلم البس امشي احس اتمنا احلم.... بطريقتي اللي بتريحني وتسعدني طريقه الأنثى لكن مجبور اكون رجل وانا فالحقيقه مش طايل أنثى ولا عارف اكون رجل نفسي اعيش مشاعري مع زوج مش زوجه نفسي اكون ام مش اب لكن.... انا مين.... انا الاتنين لا انا لا دا ولا دا، مش عارف بأي شكل اتكلم امشي ازاي بالطريقه اللي بتحسسني بانوثتي، يتكلمو عليا الناس باصعب الكلام والالفاظ المهينة، امشي بطريقه الرجل اللي هما شايفينه عشان ارضيهم نفسيتي تتعب والمزاج يقل والتركيز يضعف والتوتر والصراع النفسي بين جسمي وعقلي يدمروني كاني بشوف عقلي الانثى وجسمي الرجل في حلبة مصارعة وانا من بعيد سنين قاعد بتفرج مستني حد يفوز بس عشان اعرف انا مين مين انا، كتير بجد مزعوج كتير قلبي موجوع، محتاج اعيش صح بشكل يريحني، محتاج ارتاح محتاج اهدا ولو شويه مشان اقدر اكمل السنين المره الجايه فحياتي.. انا باستنا

الموت كل ليله مش بنام من عزاب التفكير والحزن مش بتغمض عيني غير لما ابكي وارتاح يوميا كاني مش هيجيني نوم غير بعد ما ابكي اذا شفت شاب مهزب وجزاب بحس بانجزاب وحنين ليه غير طبيعي وبموت من الوجع لاني مش مسموح ليا باني حتى اعجب بيه وقتها باتمنا جزار يقطع من لحمي بسكينه بارده اهون عليا من عزاب وجع مشاعري وقتها.فين حقوقي مين يفهمني فين اللي يحسو بينا ماليش حلم ماليش هدف ماليش ناس صحاب شغل جواز حتى الاطفال محرومه منهم اني اكون فيوم من الايام ام حتي اني اعرف انا مين مش عار.ف هـ. كتير صرخت كتير اتكلمت تعبت لكن ايه الحل..... إن كانت الجنة مش لينا انا واللي زيي؟ هتكون لمين!

أعجبني. رد. ٤ أيام

Y...e_B بها المجتمع المتخلف فيك تكون بيدوفيل ومغتصب وقتال قتلة بس لا تكون مثلي.

٥ أعجبني. رد. ١٢ أسبوعًا

هاشتاج # لما عرفوا برعاية صفحة بداية
Bedayaa بداية[١٦]

٢ يوليو ٢٠١٧

 # لما_عرفوا

«قصص العنف كتير ومفيش يوم بنزل شوارع ال... الا لما العنها وتلعني.

اخر موقف كان فى محطة مترو حلمية الزيتون الساعة ١٢ ظهرا، قاعد مستنى المترو والسماعات في ودني فجأة لقيت شعرى بيتحرق» أنا شعرى طويل فمتعود ألمه Ponytail.

اللى حصل ان شوية شباب من ورا لكرسى اللى قاعد عليه ووولعوا فيه بولاعة وجريوا مع العلم ان المحطة مليانة ناس ماحدش هان عليه يمنعهم أو حتى يمسكهم لما جريوا وهما بيضحكوا.

انا لحقت شعرى نص سم اتحرق بس.. مش مشكلة، لكن اللى حرقني فعلا أحساس إن كله كان واقف بيتفرج وكأنهم بيقولوا تستاهل عشان تطوله ودي فعلا الكلمة سمعتها من ست كبيرة وأنا خارج «قصه وريح دماغك»... والجملة دي هي النموذج اللي بيستخدمه معظم الناس هنا في التعامل مع اي أقلية مختلفة «قصهم وريح دماغك»».

---

(١٦) «بداية» هي منظمة تعمل على حقوق الأفراد ذوي التوجهات الجنسية والهويات والتعبيرات الجندرية والخصائص الجنسية المختلفة في منطقة وادي النيل (مصر والسودان) .

شاركونا بتدوين، كتابة او بتغريد قصصكم/ن باستخدام هاشتاج # لما_عرفوا أو ارسلوا قصصكم/ن وسوف نقوم بنشرها خلال الحملة المستمرة طوال الشهر .

Bedayaa بداية

٣٠ يوليو ٢٠١٧

 # لما_عرفوا

«سلام.. اشارك معكم قصتي:

منذ لحظة بلوغي عرفت اني «مثلي» هنا بدأت حياتي تتغير.. كنت اقول يمكن شي طبيعي وبعدين يختفي هذا الشعور.. راحت الايام واجت إلى ان صار عمري ١٧ كنت في ثاني ثانوي اكتشفوا اهلي اني اتواصل بكروبات تخص المثليين.. تخيلوا طردوني !! رحت لعند جدي اكملت ال ثاني ثانوي وكمان طردني.. هنا قررت اشتغل. كنت اشتغل فترة العطلة الصيفية وفترة الدراسة استأجرت غرفة وعشت الويلات وانا اكمل اخر سنة لي في الثانوية العامة. بعدها الحمد لله حصلت على نسبة ٩١٪ في البكالوريا. كان لي صديق مثلي في ألمانيا. طلعت تهريب بالبحر وانا عمري ٢٠ وصلت لألمانيا وقعدت اول فترة مع صديقي وبعدين استأجرت عند ناس المان مشان اتعلم اللغة والحمد لله تعلمت وكان في ايام اشتغل لمدة ٢٣ او ٢٤ ساعة بدون نوم. جمعت مصاري ودخلت college اختصاص Petroleum engineering ودرست اربع سنين وشفت الويلات شغل ودراسة.

دراستي ٧ ساعات في اليوم باقي الساعات اعمل وانام ٣ او ٤ ساعات. تحملت الذل في الشغل بس لاكمل دراستي. تخرجت ومن حوالي ٨ شهور لقيت وظيفة بعد عناء في شركة غاز واهلي ما تواصلوا معي ابدا. فقط اختي تلفنتلي من سنة. وهلا عايش وحدي في شقة على قدي ووظيفة منيحة وحصلت اقامة والحمد لله».

شاركونا بتدوين، كتابة او بتغريد قصصكم/ن باستخدام هاشتاج # لما_عرفوا أو ارسلوا قصصكم/نو سوف نقوم بنشرها خلال الحملة المستمرة طوال الشهر.

Bedayaa بداية

٢٦ يوليو ٢٠١٧

 # لما_عرفوا

«عقب ما قطيت حجابي وصرت اطلع بالعلن بشكلي الحقيقي واجهت مشاكل مع الشرطة ومضايقات من الشرطة والناس العامه. مره شرطي مرور وقف سيارتي قالي الي اشوفه صبي يسوق السياره والي مكتوب عالليسن اني انثى! وسحب الليسن مالي وقالي روحي المخفر استلميه واضطريت اروح المخفر بحجاب عشان استلمه ويسكتون عني. مرة ثانية شرطي مرور بعد وقف سيارتي وفتشها وهزأني وانطقيت ومسخرة واخر شي قالي ركبي الدورية بنسوي تحويل لمركز الآداب العامة بسبب التشبهه بالجنس الآخر ورحت اول شي مخفر عشان يكملون يهزؤوني

وعقبها ودوني عند الآداب وانسجنت ٣ ايام مع عاملات الجنس وناس حابسينهم بسبب الدعاره وقضايا مشابهه. خلال هذي الايام كنت اتعرضت لمضايقات من الشرطة وعنف لفظي ومعنوي وكل ما يتغير الشفت وايوون شرطة غير يسوون نفس الحركات الي سووها الشرطة والضباط الي قبلهم. حتى ما كان في حمام سنع الواحد يستخدمه! الشرطي كان يبطل باب الزنزانه واهمه ماسكت كلينكس بيده من شدة القذاره. والكلام والتعليقات القذره كانت على قصه شعري، لبسي، لون بلوزتي والجوتي والتاتوو على ايدي وطولي واسمي واسم عايلتي واللسته مراح نخلص يعني كانوا ناس متخلفه بشكل رهيب. عقبها شريكي تواصل مع ناشطه في حقوق الانسان عشان تيي تستلمني وتوقع. ويظل الموقف نقطه سوده ما اتوقع اني بتجاوزها واعيدها معنه مر سنين بس لي الحين اختنق واتاثر كل ما اتذكر الي صار معاي بالكويت».

شاركونا بتدوين، كتابة او بتغريد قصصكم/ن باستخدام هاشتاج # لما_عرفوا أو ارسلوا قصصكم/ن عو سوف نقوم بنشرها خلال الحملة المستمرة طوال الشهر.

Bedayaa بداية

٨ يوليو ٢٠١٧

 # لما_عرفوا

«لمن كان عمري ٢٢ عرفت شنو يعني مجتمع الميم والتنوع الجندري والميول وفهمت هالاشياء كلها وقلت حق اهلي اني ما

احس اني صبي ولا بنت احس اني بالنص يعني عادي شعري قصير ولبسي رجالي بس نفس الوقت ما احس اني ذكر ولاني انودلت انثى مو معناته اني احس اني انثى. خواتي عادي ما انصدموا لانهم يعرفوني وعايشين معاي بغرفة وحدة من عشرين سنه. المهم امي شكت عبالها اني باخذ هرمونات قتلها لا مراح اخذ هرمونات وقامت تشك تقولي تاخذين مخدرات وقتلها لا ما اخذ. وصارت تشك باخلاقي وبكل شي مجرد اني قلت لها عن هويتي الجندرية. ولمن قلت حق ابوي سمعني لي الاخير ومو عاجبه وعقبها بفتره راح بلغ علي بالمخفر قضية تغييب عشان بس طلعت من البيت اللوعه وقلت ابي انام يوم واحد برة البيت. بس عشان يوم واحد قلت بنام بره البيت راح المخفر وجذب عليهم قالهم ان ما يدري عني من اسابيع واني هاربة من البيت واني خطر على اهلي وعلى البيت بسبب محاولات الانتحار الي سويتها من قبل والمشكله بالكويت اذا البنت فوق ٢١ سنة كيفها تعيش برا بس لان الوالد عنده واسطات بالمخفر سجلوا بحقي القضية واليوم الي وراه الساعه ١٢ بليل فجاة احد يطق علي باب غرفتي وانا بالبيت (رديت من بيت رفيجتي) وافتح الباب واشوف شرطي جدامي! قتله ان شلون داش البيت وصاعد الطابق الاول وداش عندي بالممر شلون! واطل برة بالصالة واستوعب ان اهلي بالبيت كلهم ضدي واهمه الي يايبين الشرطي لي الغرفة! قالي عليج قضية تغييب وامسي وياي المخفر !و انا اصلا وراي دوام باجر مو وقته اكشن. قالولي بالمخفر ان ابوي رافع القضية ومبلغ عني والي يضحك ان

اصلا اهوه مو عايش بنفس البيت ويانا، اهمه متطلقين من عمري ٤ سنين وتزوج ثانية وثالثة وعايش برا ببيت ثاني، الي بالبيت معاي امي وخواتي واخواني. لمن كنت بالمخفر انطقيت وانسبيت وقتلهم ان الكلام جذب وابوي جذاب بس استوعبت انهم اصلا ربع ابوي وبالديوانية يعرفون بعض يعني واسطات وقتلهم يدقون على امي يتاكدون وعشان تاخذني امي. المهم امي طلعت اصلا بالخطة مع ابوي وسحبت علي وما يت المخفر ولا تبي تقولهم ان جذب. وظليت ساعات بالمخفر اواجه الذل والاستحقار واخر شي ابوي دش المخفر بس عشان يوقع على ورقة تحويل للطب النفسي في شويخ ! خذوني مثل المريض في سيارة اسعاف وحولوني للطب النفسي وابوي طلب منهم يحجزوني. سوولي تحاليل دم وبول لان ابوي قايل لهم اني مدمنة مخدرات ! كان في ٤ دكاترة سوولي مقابلات مختلفه عشان يشوفون وضعي ويسمعوني وقتلهم ان ابوي جذاب وقتلهم عن وضع البيت وقتلهم عندي وظيفة بوزارة وعندي بعثة دراسية للدراسات العليا واصلا صورتي بالجريدة حاطينها لاني فزت بالبعثة! انبهروا وقالوا الي نشوفه ونسمعه منج غير عن الكلام الي مكتوب على اوراق المخفر وغير عن كلام ابوج. المهم اشوه انهم دكاتره سنعين وقالو احنا نرفض ان نحجزج بالطب النفسي وراح نكتب تحويل نردج المخفر. كل مكان اخس من الثاني بس سكتت قلت اوكي لاني مادري شسوي والشرطي الي معاي بالاسعاف كان يتحرش وملوع جبدي ووصلت فيه لدرجه ان عرض علي الزواج! ولمن رديت المخفر كنت احس بكره وخيبة

وكسره مادري شسوي وقالولي لازم احد ايبي المخفر ويوقع عشان يستلمج ومحد راضي».

شاركونا بتدوين، كتابة او بتغريد قصصكم/ن باستخدام هاشتاج # لما_عرفوا أو ارسلوا قصصكم/ن وسوف نقوم بنشرها خلال الحملة المستمرة طوال الشهر

Bedayaa بداية

٧ يوليو ٢٠١٧

 # لما_عرفوا

«عائلتي رتبت مع مجموعة من المتسلطين والمتطرفين من معارفهم بحبسي وتعذيبي جسديا ونفسيا وعاطفيا وعقليا، إلى أن حطموني تماما ثم رموني بلا عمل أو مال أو مأوى».

شاركونا بتدوين، كتابة أو بتغريد قصصكم/ن باستخدام هاشتاج # لما_عرفوا أو ارسلوا قصصكم/ن وسوف نقوم بنشرها خلال الحملة المستمرة طوال الشهر

هاشتاج # المثلية

 # المثلية

من عمري ١٨ اكتشفت ميولي المثلية بعمري ما ملت لرجال وتجوزت وأنجبت طفلة لكن ما كان فيني كمل، ما كنت حاسة وما كنت اعطيه حقه ومشاكل كل يومين، اتزوجت لاحاول اكون عيلة وهيكا بس ما قدرت، ولجأت للطب النفسي والعادي وما طلع مع شي واخر شي عرفت انو في ناس مثلي

#المثلية

وقت لاحظ اهلي اني بلبس غير وبتصرف غير، بيي (والدي) بعمر ١٢ ربطني بدلات اي عريشة العنب بلا ملابس وورش عليا مي وسكر والدنيا صيف وتأذيت من الدبان والحشرات، ليعاقبني، حاولت انتصر على نفسي واقبل الشكل الي انا عليه وما قدرت ربي خلقني هيك شو اعمل؟

المثلية

بعض المحاكم العربية شنت قرارات تقبل المثلية بس القاضي ما فيه يمشي ناس ورايا تحميني من الناس بالشارع وهم عم يأذوني ويضربوني.

جروب _____ للمثليات العربيات (الحب والمشاعر الصادقة فقط وممنوع مشاركة الصور الاباحية والتلفظ بالفاظ خارجة)

منشور ١

ن...ر حابة اشارككم قصتي

ما بتذكر وين التقينا اول مرة بس حبينا بعض ولقانا صار كثير صعب والايام بتمر واللقاء بيصير اكثر صعوبة لاني كبرت وابويا صار يضيق عطلعاتي لغاية ما يجي ابن الحلال بالصدفة يوم بتحكي لي ان اخوها بيدور على عروس، قلت لها احكي لو عني، قالت لي شو كيف؟ كيف تتحملي تكوني زوجة الو؟

خبرتها انه هيكون ارحم بكثير من فراقها وبعدها

- وانا كيف اتحمل؟

صدقيني فش قدامنا حل تاني.

واتزوجته وصارت حبيبتي هي اخت زوجي، صرنا قراب بس كل يوم بندفع ضريبة هالقرب انا مش ندمانة لاني بس اكون حاضنتها بنسى كل اوجاعنا.

منشور ٢

ع. أدمن انتبهوا يا جماعة من هذا الأكاونت على الفيس .. لأن صاحبه راجل وبيحاول ابتزاز البنات وجرهم لعلاقات جنسية

وهذا الأكاونت لصحفية بتحاول تجمع معلومات عنا الغوا صداقتها.

منشور ٣

س. ب وكعت بحب مدرستي وصرت هايمة فيها أصفن وافكر واشلون اعترف لها وشلون اخليها تحبني، وبيوم من الايام انكطعت المدرسة عن الدوام وبقيت حايرة اسأل وادور عليها حتى حصلت على عنوان بعد ٣ سنين تسكن مدينة تانية، جمعت كل قوتي ورحت لبيتها من ورا اهلي، تغيبت عن دراستي، دكيت الباب وطلعت المدرسة الي اتفاجات بيا ودخلتني للبيت ورحبت بيا وبعدين سألتني شلون حصلت عنوانها وشنو سبب الزيارة وهي تشوف فيا مرتبكة وارجف وما تعرف شتكول، فهمت نظراتي وارتباكي تقربت مني ومسكت يدي وصارت تطبطب علي وتنطيني الامان والحنية حتى رميت نفسي بحضنها قامت اخدتني للحمام حممتني بيدها وسحبتني لغرفة نومها واخذتها

بحضني وصار ما صار بيننا لأول مرة احس بالامان ومن وقتها ما حصلتها، واريد اموت، من كد ما مشتاقتلها واحبها شسوي ساعدوني.

منشور ٤

ي.عت

في الصباح هي شمسي وفي المساء هي قمري وب الحالتين هي حبيبتي

منشور ٥

خ. ف تعال وخلي نتزاعل،

انا مشتاگ لفراكك البيه رجعة.

منشور ٦

سو. أدمن

سؤالنا لليوم؛؛

بتفضلوا يوم الجمعه يكون الغداء منسف والا مفتول والا في خيارات تانيه .....

٥ أعجبني. رد

منشور٧

سو. أدمن

لو كنتوا تقدروا تعترفوا لاهلكم انكم مثليين قولكم شو لازم نقول

كثير الفكرة محيرتني شو هنقول؟

١٠ أحزنني. ٢ رد
س---- ليز وشنو الفائده من القول
أعجبني. رد

منشور٨
سو. أدمن
بوجهة نظركم شو اسوء شي ممكن يصيب الانسان؟
أعجبني. ٢١ رد
D-----e يغتصب
أعجبني. رد
J-----yr اسوء شي انك تكون رجل بجسد انثى
والاسوء لما تحب حدا مابحب الرجل ولا البوتش
والاسوء انوا يصير معي برود من الدنيه كلا... كمل ولا كافي
أعجبني. رد
Azizou Milouja Milouja موت الام
أعجبني. رد
Ham Sa الاختيار بين ما يريده القلب وما يرفضه العقل
٢ أعجبني. رد
منشور ٩
MR R---sh
مرتبطة مع Mrss R---sh

١١ فبراير
٣٠ أعجبني. ١١ رد
س ---- ع مبروك ربنا يتمم بخير ويسعدكم
أعجبني رد
ل ---- ش ربي يهنيكم بزاف
أعجبني رد
يا --- عت تتهنوا
أعجبني رد
ن--- أدمن خلوا بالكم من نفسكم
أعجبني رد
ج--- ز ما ضل غيري عزابي بدي ارتبط
أعجبني. رد
منشور١٠
بنت ب---ا
ابحث عن شاب مثلي يعاني من مشاكل مع عائلته لنتزوج زواج امامهم فيستطيع كل منا ممارسة ميوله بدون مشاكل
١١ أبريل
أعجبني. رد
د--- س انا مهتم حاكيني خاص

الكذبة الخامسة

«ماذا يعني تعاطفك مع شخص ما؟كيف لك أن تستثني الجسد من هذا التعاطف؟ فهل يظل الإنسان إنساناً إذا جرّدناه من الجسد؟»

ميلان كونديرا

الصمت يسود وجبة الغداء «لا تتحدثي بفم ممتلئ بالطعام». جملة الأم المفضلة التي تكررها على مدار خمسة وثلاثين عاماً، لكنها رغم ذلك فشلت في فرضها على ابنتها الكبرى التي وإن صمتت دفعت تصرفاتها الآخرين للحديث. في ذلك اليوم طاردتها عيون أختها الصغيرة طيلة الوجبة، لم تفلح في بلع الكلمات العالقة وأبت تمزيق تعاليم أمها فلاذت بالأكل إلى أن دفع الشغف صوتها قسراً للخروج.

– لقد التقيت زوجكِ السابق اليوم وما إن لمحني حتى أعاد الحديث عن رجوعكم وطلب مني...

– كفى جميعكم تعرفون رأيي.

ثم غادرتْ المائدة كي تقطع السبل عن كل حديث في هذا، أختها الصغيرة، أمها وذلك الأخرق زوجها السابق لا يتوقفان عن الثرثرة والتدخل في قراراتها، زواجها كان خطأ كبيراً، محاولة

فاشلة لإيصال رسالة لرجل لا يسمع. الرجل الوحيد الذي أحبته «والدها» غادر بيتهم وهي في سن الثانية عشرة ولم تره بعدها سوى مرات قليلة أولها يوم تخرجها، تذكر جيدا ملامح ذاك اليوم البائس حيث أشرق وجهها حين علمت بأن والدها ينتظرها في مكتبه. أن تكون ابنة رجل عسكري ذي منصب رفيع أمر رائع في دولنا التي تنعم بصخب الديكتاتورية والفساد الإداري إلا في قصتها، اصطبغ دور والدها في أنه القدوة / المرشد / الشيخ وهي المريد الأعمى، غريب حديثها عن حبها له أمام جفاء رحيله وتجاهله لعائلتها. لم يكن سهلا اخفاء ذلك الحب في حضرة السيدة الناظرة والدتها، بشخصيتها الجادة الجامدة التي لا تسمع سوى صوت عقلها يحكي عن زوجها قصصا تلصق به انعدام المسؤولية، وتفضيله لعمله على وجوده بين أسرته.

كانت تفكر أن والدها محق في هروبه، كيف لرجل أن يعايش العصا في عمله ومنزله معا؟

تحتاج الحياة لأكثر من فكرة الجدية، الحياة ساخرة يناسبها بعض اللهو.

حقيقة لا تقنع أمها بالعدول عن قلقها غير المبرر تجاه كل فكرة أو موقف يمر بهم، وعند غياب عوامل التوتر تصنع خوفا وهميا تسقيه ثم تنميه ليكون ذريعة عبوسها الأبدي، جرح إصبع ابنتها الصغيرة، مستقبل البلد، تأخر الراتب، موعد تجديد تأمينهم الصحي وربما العقوبات على كوريا الشمالية. صور متلاحقة تبلبل أفكارها المتدافعة أثناء طريقها إلى مكتب والدها، تذكر كيف

رافقها، لعب معها وجعل لطفولتها وجها ضاحكا، كان يكرر عليها:

– أنتِ صديقي الجميل الذي حلمت به.

يفرح كثيرا حين ترتدي ملابس الذكور وترافقه في التسكع وإلقاء بعض الغزل على فاتنات الطريق، بل يتجاوز ذلك إلى الصفير والغمز أيضاً. تشاركه رجولته كما يشاركها طفولتها، برحيله ترك فجوة كبيرة من الفراغ تعتري أيامها، ثُقب علَّمها أنه لا قيمة للحياة بلا شريك يمسد لكَ حزنكَ ويطرز ابتسامتكِ، حتى الحزن يهجر المنبوذين.

لم يتغير، زادته بعض سمات الكبر وسامة، بيد أن نظرته بدت مختلفة، ملوثة بكراهية غير مبررة. أيسلب الوقت العيون محبتها؟

تحدث بنبرة غاضبة:

– ما الذي سمعته؟

– أهي وسيلتكَ في تهنئتي بالتخرج والتعبير عن شوقكَ لي؟

– دعكِ من الفراسة ولا تغيري الموضوع.

– إذن الإجابة نعم.

– هذا النسب لا يليق بشهادتكِ ولا بمنصب أمكِ ومنصبي.

– أتراه يحدث فارقا أنتَ لا تذكر وجودنا على أية حال.

– حمقاء عابثة أضعتِ عاماً في دراسة الطب ونصف عام في دراسة الهندسة ثم كلية الحقوق، والآن انظري إلى الفتى الذي اخترته.

– ربما هو إرثي عنكَ اللا مسئولية أو...

– عودي إلى بيت أمك وانتظري جثته.

صفعتْ الباب مغادرة والخوف يسبق خطواتها، ما الذي سيفعله والدها إنه ليس قاتلاً هي تعرفه، تحبه لن يفعل ذلك تهديده هراء. تنفست الفكرة بهدوء واعتنقتها ليتها لم تفعل. استدُعيَ الشاب للخدمة العسكرية على أطراف البلاد، لم يعد الأمر مزحة، حياته على المحك. تَدخُل أقاربها وشفاعتهم أرغم والدها على العدول عن قراره. تمت الخطبة وانتصرت لقرارها كعادتها. عنيدة تشبه والدها، تحاول أن تكون جزءا منه لتقنعه أنها شبيهه وتستوفي شروط حبه، وإن كانت الفاتورة المدفوعة باهظة كأن تهب نفسها لرجل عنيف متسلط كخطيبها الذي ما إن أطبق بخاتمه على إصبعها حتى كشر عن عنفه بكل غباء. إهانة وتحكم بلا سبب، مجرد محاولة لبسط الهيمنة الذكورية إلى أن وصل به الأمر حد لطم وجهها وسط طريق حافل بأبواق المارة والفضيحة، كيف تخبر والدها أنها أخطأت في قرارها؟

بأي وجه تطالب بخلع هذا البلاء عن حياتها! لكن صوت الفضائح ذو رائحة، فحين عَلِم والدها بالأمر سرعان ما اقتلع منصبه المشكلة من قاعها وسقطت هي في بئر من الخجل، وقد عرَّاها خطأ قرارها وضيَّع كل محاولاتها في إثبات بنوتها لصرامة والدها وقراراته. لم تجد مهربا سوى رئيس اتحاد جامعتهم، شاب أنيق ابن عائلة بسيطة لكن طموحه كبير، درس الصيدلة بتفوق وجلس على مقعد اتحاد الطلاب ثلاث سنوات متتالية، وعقب تخرجه التحق بوظيفة في إحدى المستشفيات الكبرى. فوجئت أنها أصبحت

زوجة لرجل يقدسها، تراءت له بحجم يفوق مخيلته، نزل عند رغبتها في كل شيء، حتى أضحى وجوده في حياتها مجرد وهم لا يذكر. لم ترَ نفسها يوما فتاة عادية كي تتزوج برجل يستأذنها في قضاء حاجته، يحتاج إذنا ليقبلها ويصمت إن أمرته بذلك.

رآه الجميع زوجا مثاليا ورأت فيه بلاء، لذا لم يفهمها أحد حين طلبت الطلاق. كيف لامرأة أن تعاشر رجلا لا وجود له، يعود إليها في كل قرار، عاجز عن رجولته. كان يخشى والدها لدرجة جعلته يبحث عن الحب في علاقات فيسبوكية ليثبت رجولة يخشى خروجها في حضرتها. حتى جاء اليوم الذي عثرت على محادثة غرامية على جهازه المحمول وكانت تلك ذريعة النهاية. رجل يدَّخر راتبه، يعيش بمالي، يدخر رجولته ويخونني، ما حاجتي إليه! جملة ختمتْ بها زواجها.

عِشقها للأدب جعل توجهها للقراءة يسلبها أغلب وقتها، تتصيد الكُتاب والجُمل عبر الوجه الأزرق «الفيسبوك»، كانت تبحث عن شيء آخر لم تجده، أن تكون ضعيفة في حضن آمن يحتويها.

كونت صداقات متعددة أغلبها صداقاتها مع من يكبرونها على الأقل بعشرة أعوام، وأهمها «منال» سيدة المجتمع، صديقة بعمر والدتها لها أولاد وأحفاد. لم تلتقها واقعيا لكنهما تشاركتا الحياة والوقت افتراضياً حتى وقع أمر غريب في ذكرى صداقتهما الثانية وتّرَها ولم تجد مخرجا له. اتصلت بها السيدة «منال» والتي كانت ترى في حضنها دفء أم تتوق له، بصوت تكسوه نبرة

مرتعدة لتخبرها أنها تعشقها وتشتهيها. نزل الأمر صاعقة أمطرت مزيدا من التوتر. من السهل صدها بجملة كالسكين وما أبرعها في هذا، لكنها لم تجرؤ، حيث بدا صوت المرأة منهكاً متوتراً يعبر عن حالة وجع وجنون لحظي أنساها عمرها ومنزلتها.

أجابت الفتاة بارتباك:

– صدقيني لا أجد إجابة، ماذا تريدين مني أن أفعل كيف أريحك؟

قاطعتها السيدة منال باعتذار مرتبك وخجل ثم غابت يومين كاملين، مفسحة المجال للأفكار كي تساور الفتاة التي تلتقي بشيء لم تسمع عنه من قبل. تلبستها أسئلة لا حصر لها، جعلتها تطرق أبواب الإنترنت الخفية وترى أشياء علمت بوجودها للتو. بدا الأمر في حالتها تجربة مميزة، ما الذي تحتاجه امرأة فشلت في علاقتين، ربما تحتاج شيئا فريدا يخبرها عنها، ربما تحتاج امرأة. «منال»، سيدة عجوز لا تستطيع التفكير بها على هذا النحو، أي جنون هذا! راحت تطرد الفكرة، هرعت للقراءة هرباً. اعتذار السيدة «منال» ورعايتها جعل تلك الذكرى تموت في جسدها، مرت الأيام متشابهة حتى عثرت على حساب مقترح يحمل اسم «بلا جسد».

«صوتكِ العميق بروحي يشدني، أشعر بالضياع كأن روحي رحلت وجسدي بلا رأس يدور حول جوعه دوائر مفرغة دونك.

الفضاء يسلبني الضوء، عيوني تائهة تنقب عن ظل عابر له نكهتكِ.

اختفى الطريق.

المتاهة تنشد أغنيات ناي عِشقكِ، ذات رتال أضاعكِ راح ينوح اسمكِ على كتفي علنا نستدل عليكِ».

صعقتها الروح الحزينة المستترة بين الحروف. أرسلت طلب الصداقة وتم القبول ليتغير التوقيت ويصبح لكونها مرجع آخر «بلا جسد».

مر الشهر الأول بلا نطق تتابعه صامتة، تتفقد الحساب يومياً أكثر من تفقدها لأهلها وروتين حياتها. مَن صاحب الحساب؟بِمَ يفكر؟ فيمَ حزنه؟

أعاشق هو؟ ما الذي يوجعه؟

غموض يغرقها، الكلمات تعكس وعي رجل دافىء فهم روح المرأة لا جسدها وكتب عنه، تُرى أية ملامح ملائكية تكسو وجهه؟

تزداد الأسئلة في صدرها وتطرد النوم. لياليَ تقضيها ساهدة تراقب تلك الحروف تتلألأ، شلال أزرق يتماهى ويصنع صباحاتها ومساءاتها.

أسئلة هائجة تداويها المنشورات مؤقتاً، حروف فيسبوكية تفوح وجعاً وهدوءاً يُسَكِّن حدة الاستفهام. جوع الحرف للحرف يستعر، تقاوم رغبة الكتابة في داخلها.

صامتة تراقب اشتياق الأيام لقصة هلامية بلا هيئة، كدهشة ترتجف لها أوتار كمان وبحة ناي.

فتاة! صاحب الحساب فتاة، في رد أخضر شفاف استهلته بتائها، تاء رقيقة تعلن هوية صاحبتها. لم تشعر بفارق كبير بعد أن

كشف الأكاونت عن بعض صاحبه / صاحبته وقد استحقت تاءها. ازدادت متابعتها للحساب بشغف ولم تفكر بالجدوى أو بالقادم أياً كانت شاكلته، ولا بمشاعرها العارية عن أي مسمى. تتقلب في سهدها المالح، جسدها البحري يشتد ويرتخي، ينقبض وينبسط، تتقلب يمنة ويسرة بلا نوم، ترى كيف تبدو تلك الغريبة الهاربة في سطورها. روحها المدمنة تطالب بجرعة منها بلا وعي، فتحت جهازها وتفقدت دخول «بلا جسد» الأخير، نشطة.

إنها الثالثة بعد منتصف الحلكة، ماذا تفعلي أيتها الـ«بلا جسد» في هذا الوقت، أعاشقة أنتِ؟

كم أحسد من نقشتِ له من روحكِ تلك الكلمات. الضوء تدريجياً يكشف عضلاته معلناً صباحاً من عمل، يجب أن ترتدي ملابسها وتغادر محرابها المقدس مرغمة.

لم تعد تحتمل، قررت مشاركة هذه الخفية الرائعة بالرد.

– كنت أكتب بلا وعي أو معرفة بأن هناك قلباً نضراً يضج بالهوى في ذلك الأفق الافتراضي الأزرق، يراقبني، لولا أنكِ أخبرتني. ليبدأ عهدك في حياتي، يبدأ من نقطة ولادة القسوة على حد قول الكاتب حسين البرغوثي[١٧] «شهر إبريل أقسى شهور السنة حين تمتزج الذكريات بالرغبات»، تلك مثلت له مقولة

(١٧) كتاب الضوء الأزرق للكاتب حسين جميل البرغوثي (٥ مايو ١٩٥٤-١ مايو ٢٠٠٢) شاعر ومفكر فلسطيني.

ولي حياة عايشتها، إذ حمل أبريل على أكتافه دهشات حكايتي، ذاكرةً، رغبةً، ووجعاً خالصاً. إبريل مارد نفخ نيرانه عاما تلو الأخر بي يأبى إلا دور البطولة. مصادفة حاصر جوعي وأطعمني قصصا ذابلة لم تُخلِّف غير شوك جاف يؤلم حبر رزنامتي.

كابوس آخر يهاجمني، صوتها لا يزال يرجف بين شراييني وأوردتي، صراخها يطاردني في كل منام، بلا وجه أتبين وجعها المحجوب، ولا أعرف لها قصة. كما لا أذكر من ذلك الرجل سوى جسده القاسي، أرتجف ويرشح جسدي عرق الخوف. أما آن لهذا الكابوس أن يرحل.

تمر بعقلي تلك الفتاة الفيسبوكية «أنتِ» تساجلني الحروف، حروفها خُبز صباحي عُجن بأصابع أم حاكت جهدها غذاء ودثارا من حب تحيط به أبناءها. وجودها ربيع إبريلي تفتحت له زهوري، إبريل جاء بنسيمه العليل، جاء بها.

للمرة الثانية أقف على حافة النطق بلهفة الصائم لمائدته، كيف أستهلُكِ، من أي الحروف أعبركِ؟

جاء مايو ولم يأتِ الحديث بعد، بتِ جزءً من طقوس صفحتي، أكتب فقط لأقرأ ردكِ، وجودكِ غدا المغزى والحياة.

عاد لي خوفي الأول رعباً مهيباً أحمله، رعب النطق الأول، بادئة الحديث. أصابعي تُطبق بقوة على حروفها تُعيق دفق الحبر، إنه الخوف مجدداً.

الخوف، لن أنسبه للبشرية بل هو غريزة تتملك كل شيء بشري وغير بشري كتملكه حروفي الآن. أظن أن الأرض بل

الكون برمته خلق من رمل وخوف. قوة مطلقة تشل ذهني وأصابعي وكمبيوتري أيضا، كيف للحديث أن يولد، أي شكل سيحمل؟

عادت ذاكرة الرهبة بقوة، ذاكرة البداية، عُدت تلميذة الثانوية بصمتي الأول إلى قاع الحكاية، حيث لا فتيل ينير هذا الصمت الحالك. لكن البداية حتمية تستحق شراسة قتالي.

هل أخبرك سراً؟

بكل توق أنتظرك.

لعبت الرزنامة دورا باهتا في حقبتي الحياتية تلك، لم يكن للأرقام أو مسارات الشمس والكواكب أي دور تصنعه بي، لم يميز الليل عن النهار سواه، إنه ظلي يجلس على الأرض إلى جواري بعيون كبيرة لها حجم السخرية ونكهتها. يولد عند موت الشمس، ويموت عند ولادتها، يعاندني كثيرا، اتخذ من الشمعة رفيقة تعينه عليَّ، يرغمني على سماع ثرثراته وهرطقاته.

– إلى أين ستحملك الأسئلة؟

أواصل تجاهلي ويواصل رقصته، يضرب الأرض بكعوبه الوهمية، محاولاً تشتيت أفكاري لكنها تدور في مداراتها متجاهلة صخبه، وأجلس أنا في أحد الجدران صورة بلا حراك.

هنا ضربتني لعنة تحمل اسم «هدى» إحدى صديقات ايميلي القديم.

عادت في رسالة جاءتني منها كرد على رسالة أرسلتها لها من حساب «بلا جسد»، دعوة تلقتها بفرح ماكر. «هدى» فتاة

متواضعة المواصفات وفق معايير ألفيتنا هذه. قصصت عليها بعضا مني، حديثي ولد أخضرَ، لكنها أكسبته ألواناً تناسب جوعها لإحساس ما. «هدى» تحمل أنوثتها متذمرة، قسراً تنزلق خَبَاياها من عيونها، تتخذ شكل السؤال وعقمه. ما جدوى أنوثة ملتهبة لم يشتهها أحد؟

لكن ذلك يولِد مزيدا من الأسئلة الحارقة في حشاي.

أتكمن الإجابة في شخص يقدسكِ يوماً وبعدها يرحل بفعل عوامل التعرية الحياتية، موتاً، هجرةً أو ربما خيانة فتعودين لذاتك خائبة مترقبة عيوناً جديدة تثني على بعضكِ وتهجره؟

أعلى كل شيء أن يكون ذا جدوى؟

الوحدة جسر يحملكَ صوب هذيانكَ الأنقى، تهب لكل ما هو غير بشري صوتاً وعيوناً وجسداً، أتصدقين أن المرآة تغازلني أحيانا، ظلي يعاندني وحروفي تُعلِّقني على حائط الغرفة ثم تقفز حولي.أحلامي تعنفني حينا وأخرى تدللني.

أتظنين نطفتي به قد تنمو طفلاً؟

يشكل الحديث البشري ترفا لشخص تحدث إلى القهوة، الجوع والظلال. حدثتُ «هدى» وحدثتني، أطلقنا جفون الكاميرا وغدا الحديث صوراً متحركة تحمل شكلنا. أشعر دائما بوجود شخوص كثيرة تحتلني، لكنها المرة الأولى التي أكتشف ذاتي البدائية وأدين بذلك لـ«هدى».

كانت تُكسب حديثنا ثوب الغواية، ترتدي ملابس تبرز ثقل أنوثتها، يرتجف صوتي أمام بريق طاغٍ، جسد اعتصرته ملابسه،

قمصان ضيقة مكشوفة تكشف جوعه الشرس، أتعرق وتزداد حركاتها طغياناً. تشتعل سعادة كلما ازدادت عيوني ارتباكا وتدفق ريقي المنهك. حديث تلو الآخر والأمر يزداد جنوناً، الملابس تزداد شفافية وقسوة على جسدٍ يشتهي رؤية انعكاسه في أنفاسي المرتعشة، أغلي وجسدي على شفا انفجار يعرقله صمودي.

جوعها أيقظ ذاتا بدائية اختبأت سنين بي، استيقظت وراحت تحاربني، تصرخ مطالبة بالحرية، تسأل عن حقها في جسدي وفي أنوثة «هدى».

عقب كل محادثة كنت أبدل ملابسي المبتلة وذاكرة عيوني مصطنعة النوم، لكن الصور تتسلط عليَّ، تمر بذاكرتي، تتبختر، ويزداد ألمي.

غابت المواضيع عن أحاديثنا وكانت مجرد غطاء تافه حمل فكرة واحدة، الإثارة. دفعتني على الاعتراف جسدياً بها ومنحها البلل المقدس.

سوط إغرائها يزداد فحولة، يجلدني مرة بعد مرة، انفجرت قذائف مقاومتي. دُفِعت لما كنت أبغضه، بلا وعي مارست الجسد إلكترونياً. لم تكتفِ بمرة بل ازدادت ضراوة وشراهة، تتعرى أمامي أو لنقل أمام الكاميرا، تتموج، تعزف نوتات الغواية بخفة الأصابع على جسدها. تتأوه وأتساقط أكثر في بدائيتي، أصير رجل غاب أبغضه، أرتجف نظراً، نرتعش، ثم يهطل ماءنا. أكاد أجزم أن حاسوبها شاركنا البلل والارتعاش أيضاً. لم تطالبني يوماً بالتعري أمامها، كانت تكتفي بعيوني وأنفاسي عوضا عن الجسد بأكمله.

ترتكز رغبتها على رؤية انعكاسها نيرانا تتقد في عين، انعكاس يخبرها أنها فاتنة وليست مجرد عانس لم يلتفت لها شباب الحي.

كرِهتُني، كرهتُها وكرهتُ حاسوبي. فشلت كل محاولاتي أمام جنون رغبتها، ضاجعتْ عيوني وتركت لي عقلا يلعنني.

جسدها صياد ماهر، يشد بدائيتي من براثن العقل، أغدو كرة لهب متعرقة تنفجر أمام مجون آهاتها. حتى جاء اليوم الذي تقت له، حظرتها وأوقفت المهزلة، لا وصف يشبهها أكثر من «مهزلة». نضاجع أوهامنا، نسخر من جوعنا وندسه في علاقة وهمية لا تزيدنا إلا احتقارا لأنفسنا.

العلاقة الجسدية روح، دفء، مسامات وبلل، اللمسة وسحرها، كل ركن في الجسد يمتلك ملمسه الخاص، دفئه وذاكرته. هذه هي الحقيقة التي تناسيتها حين ألقيت بجسدي في علاقة افتراضية زائفة. تذكرت فتاة كنتها يوماً تمارس كره «الرجال الملوثة» فتاة تكتب آهات وهمية تشعلهم ثم تغلق هاتفها وتضحك ملء تيهها. رجال يمتهنون أنصاف الليل والفتيات، يتركون فراش زوجاتهن الدافئ ويغرقون في إثم العلاقات الافتراضية؛ لإشباع شرههم وأمراضهم النفسية، ألا تحق عليهم لعنتي؟

هل تطاردني لعنتهم؟ لأتحول إلى مسخ يشبه ما يكرهه؟

قد تبدو الفروق بين الكره والحب مسافة كبيرة لكن العجيب أننا ندين ولاء لما نكره، نكره بضمير وإتقان بل ونغذي هذا الكره يوماً بعد يوم حتى نكتشف أننا تعلقنا بما كرهنا حد الالتصاق. هل لاحظتِ انكِ تشبهين كل من كرهتِ كثيراً كما وتتصرفين مثلهم؟

تُضحكني الفكرة، لازالت الحياة ساخرة ونحن كذلك، لكن كلانا بكل سخريته تلك لا يجيد الابتسام.

احتجت فترة صمت لأفيق من دنس لعنة «هدى» وأعود لبعضي المشرذم، صورة باهتة أخرى كنتها.

الوحدة غول أنيابه الحادة تُقشرني، تلوكُني وتبلعني. أتوه داخل ممرات عالمي السفلي، عالم لامرئي صيغ بحبر عقلي اللاوعي. ممرات بيضاء تحمل جغرافيا ذاكرتي، تحفظها كي تخفيها عن ناظري.

عقلي يعاقبني، يعزلني عن كل ما حفظته وتعلمته، أقف عارية بلا بنت فكرة أحوك بها قصاصات روحي المُهَلْهَلة. كيف أعيد صياغة ما كنته؟

و ما سأكونه؟

لم أعد أعرف، هجرتْ المعرفة وعيي أو حجبها عقلي، أقرأ ولا أفهم الحروف. مُسختُ طفلة حديثة الولادة في جسد عشريني. عقلي يساومني كي أطعمه تجربة أخرى، مساومة دنيئة لا أملك ما أهبه إياه، لا تصالح يجمعنا وهو منحاز لما لم يكنه، وأنا قابعة أسفل جسد لا يشبهني.

كيف أحاور ما لا أراه لصالح ما لم أكنه؟

كيف أتنصل مني لأكونني أو لأكون ما يجب أن أكونه وفق منظور اجتمعوا عليه وفرقني؟

بلا حراك أتقوقع في قاعي، بذرة غمرها السواد الأول راقدة في مطلق الطين بلا ضوء تنتظر موتها، ربما تُنبتُ أظافر تحفر صوب النور.

يميل جسدي المتكور بوجعه صوب شمال لا يأخذني لخلاصي.لا يافطة مضيئة تدلني أو نجمة عالقة في أزرار الليل تشير إلى الطريق.

لمَ أنا وحدى؟

أين هم أشباهي الأربعة والأربعون؟

ألسنا كلنا مكررين، أين تكراري؟

نحن هذا التكاثر المكرر لجسد، مجرد تكرار لكن كل تكرار يحمل شيئاً من فرادة كما يقول مصطفى محمود[١٨]:

«إن جميع الأجنة الآدمية يتم توليفها من أكثر من عشرين حرفاً كيميائياً من بروتين RNA وDNA، وكما تتألف جميع الكتب والمؤلفات من الحروف الأبجدية، فيكون لكل كتاب روحه وشخصيته ونوعيته كمخلوق مستقل متفرد، مع أن جميع الكتب مؤلفة من الحروف نفسها. ويبلغ هذا التفرد لدرجة أن ينفرد كل واحد ببصمة خاصة مختلفة. لا تتشابه بصمتان لاثنين ولو كانا توأمين منذ بدء الخليقة إلى الآن، برغم آلاف آلاف وملايين الملايين من الأفراد. ونعلم الآن أن لكل جسد شفرة كيميائية خاصة به، بحيث يصبح من العسير وأحياناً من المستحيل ترقيع جسد بقطعة من جسد آخر. فما يلبث أن يرفض الجسد الرقعة الغريبة كما لو كانت ميكروباً أو جسماً أجنبياً أو مستعاراً، وهذه هي كبرى المشكلات في جراحات الترقيع ونقل الأعضاء».

---

(١٨) مصطفى محمود ١٩٢١ - ٢٠٠٩ ، فيلسوف وطبيب وكاتب مصري .

من الممتع معرفة أنني رغم وراثتي لجين آبائي وسماتهم الجسدية وأمراضهم أيضاً ما زلت أمتلك بعضا مما يجعلني فريدة غير مكررة تماما على صعيد الجسد، ولكن ماذا عن الروح؟

أتتكاثر مثل الجسد؟

هل أحمل بعضا من روح أبي وأمي كما أحمل بعض جسدهم؟

وروح أجدادي وأجداد أجدادي؟

هل أنا مسخ بالوراثة؟

تُضحكني الفكرة، أم إن ماهيتي هي فرادتي ولعنتي؟

الأفكار تُقلى في رأسي. خلوتي هي عذابي الأبدي، جحيمي الناري، درب جبلي مظلم يسير ويحفر. يصارع لتغيير معالم الطريق، علَّ النور يشُقني أو أشقه.

إنها الوحدة اللعينة تحدثني، تتيح لي رؤية ما أراه مكررا ولكن بصور أخرى وبمغزى مختلف، فأعيد طرح الأسئلة ذاتها ابتغاء جواب آخر.

طرح السؤال متاح دائماً كالقهوة الصباحية، لكن نيل الجواب قصة أخرى. ربما كان إقناع كريستوفر كولومبس بقدرة الطائرة على نقله عبر قارات الأرض في ساعات أسهل من إرغام الحياة على إجابة سؤال واحد، واحدٌ فقط، إجابة حقيقة.

فتاة الفيسبوك تُعلقُ برد على منشوراتي مجدداً، شعرت بحاجة للحديث، أي حديث، دخلت شاشتها مرتابة مثقلة بذاكرة «هدى».

دارت الكلمات بيننا وتبادلنا الأسئلة الاجتماعية الزائفة، هكذا اعتدنا البدء. السؤال عن الحال ولم ننتظر يوماً إجابته أو نطمح إلى الإسهاب في الجواب.

أنتِ، ما الذي جاء بك لتكسري قاعدة الوحدة وتصرخي كلمات!

***

صوت، إنه صوت الكيبورد الذي أعرفه.

ترتجف الروح وتدور حولها باحثة، الصوت يلتف حولها.

تك تك

يزداد جنوناً وضبابية، كأنه في حالة ولادة، يلد ذاكرة أخرى فتاة الفيسبوك، أنتِ، ألا زلتِ هنا !!

الكذبة السادسة

تنشأ العاطفة بداخلنا فى غفلة منّا، وغالبًا ما يكون ذلك ضد إرادتنا. وبمجرد أن نتعمّد الإحساس بها لا تعود العاطفة عاطفة، بل تتحول إلى محاكاة عاطفة، وإلى استعراض لها.

ميلان كونديرا

جلس الطبيب يتناول إفطاره بمحاذاة النافذة، مكان لم يختره، فمنذ الحادثة توقف عن اختيار أي شيء أو اتخاذ أي دور، كأنه وهب نفسه لتلك الأوراق التي لم يتوقف عن النظر إليها طيلة تناوله الطعام. تأوه من وجع ألّم بظهره إثر نومه الليلة السابقة على ذلك المقعد. هاتفه يرن مجدداً، إنه المدير أستاذه الذي رعاه منذ عامه الأول في الجامعة وخير صديق له.

– أهلا دكتور، أعرف لكنني أتابع الحالة. أشعر بالإرهاق لا أستطيع النزول إلى العمل، هل منحتني بضعة أيام للراحة؟

شكراً لك. لا تقلق نعم تشبهها كثيراً لاحظت ذلك منذ وصولها. لم أفقد صوابي بعد، أظنني سأفعل. نهارك سعيد.

نعم وعده بالراحة لكنه لم يفعل، طلب قهوته الصباحية وفتح الأوراق مجدداً.

كيف لبضع أوراق أن تسرد حياة كاملة؟ هل عليَّ اختصار القادم؟ أم ينبغي إعطاء كل حكاية مداها؟ أليس من حقكِ المعرفة؟

أتماهى بالحبر، أخلق أوراقا تشبهني حد الألم، تحكي ما لم تدركيه وما جهلته. ربما يحمل السطر الأخير إجابة، الإجابة بماذا؟

لا أعرف ما الذي علقت بين السطور في انتظاره !

هنا جاءتني رسائلها كنبؤة، لا أعرف كيف ألخص قصة سلبت عمري عامين كاملين، لتحمل فتاة الفيسبوك نعت أنتِ.

كيف اقتحمتِ جدراني، كيف اقتحمتكِ؟

الغواية تطهونا على حطبها الهادئ وننصاع للوقت، تَفِدُ ردودكِ على قلبي ماء مثلجا ينعش روحا موجوعة تحترق، أهي دعوة حب؟ أم أنك «هدى» أخرى؟

والهاجس الأكثر رعباً أن تكوني أحد أقاربي أو أحد المبتزين الهادفين إلى الإيقاع بي، للحظة ارتجفت وعاد الخوف يكبر من جديد؟

تكررين دائما «أنا أكثر شخص يعرفُكِ ويفهمُكِ» من أين لك بكل هذه الثقة؟

الأمور تتداخل في قلبي وعقلي، عليَّ سماع صوتك. الصوت هو الخلاص، ليكن نهاية البداية أو استهلالها هذا ما سأطلبه منك هذا المساء.

أفكارنا، أرواحنا، مشاعرنا دوائر طاقة مقدسة تدور حولنا، كينونتها تجعلها قادرة على النفاذ عبر عيون المسافة الوقحة، تعبر

الآخرين ويعبرونها، مشكلتها تكمن في أنها كالإكترونات عند تسخين النَّوَاةُ، تقفز خارج حدود السيطرة. كيف نسيطر على طاقة لا مرئية تختبئ في بعد آخر وتُخفي في حوزتها «ذات» تمثل نحن؟

طاقة نقية لا سلطة لأحد عليها، عبثية تثب في كل اتجاه متحررة من كل منطق. أين تهرب الأرواح عندما ينام الجسد؟

ربما تسافر عائدة إلى دائرة الطاقة خاصتها في ذلك البعد اللاجسدي، حيث تلتقي أرواحا أخرى صدفة أو بترتيب وحدها تفهمه ونجهله.

ألم يحدث أن التقيتِ شخصا وشعرتِ أن روحه مألوفة لك؟

دوائرنا، تبا لدوائرنا تدسنا في حكايا من صنعها، تكشف أسرارنا وتعري الآخرين وفق مشيئتها وحدها. كم فقير هو الإنسان! مشيئات عدة تحكمه ولا يزال يدعي الحرية والجبروت!

الأمر أكبر من فكرة ثرثرة، الدوائر تتسلم دورها لتلعب بي وبك، بكل ما هو نحن. فتاة الفيسبوك -أنتِ- نشط.

- هل أستطيع الاتصال بكِ؟

- فليكن

قفزت واقفة من هول دهشتي، إجابة تلقائية سريعة، متجاوزة تأخر الوقت، كلمة واحدة عبرت رهبة الفكرة.

جاء صوتكِ خافتاً مرتعشاً بالكاد يُسمع، صوت لم أسمعه من قبل، يبرئ ساحتكِ، لكنه يمنحني مشهداً كاملاً. فتاة خجولة

تخوض حديثا مع غريبة للمرة الأولى، منساقة لتجربة لا تعرف ماهيتها أو لعبة حياتية لم تمر بقواعدها، تتلعثم حروفاً غير مقروءة.

وقع عليَّ ثقل إدارة المحادثة، تكلمت عن الكتابة، عن الفيسبوك، عن أشياء لا أعرفها، محاولةً جرك للحديث وتخفيف وتيرة الريبة. لِمَ تُصر الحياة أن تجعل مني قصة مختلفة، هذا الاختلاف الذي يزج بي في شوارع جديدة من ألم، يصنع مني عقدا لا حل لها، فأي حبل جديد كنت؟

لو نظرنا إلى المشهد من أعلى لبدا أكثر من عادي، لكنه لم يكن كذلك، للحظة توقف كل شيء، لم أعد أسمع صوتي أو صوتكِ، توقف الوقت، كأن روحي سافرت بلا إذن إلى ذلك البعد اللاجسدي والتقت روحكِ، ليت هذا ما حدث فحسب بل وراحت تحدثني، وسمعتها. في بادئ الأمر ظننتني أهلوس، لكن الأمر لم يكن هلوسة، لقد سمعت هديل روحكِ رغم الصمت الذي غلف كل شيء.

– قوليها، قوليها

لا أعرف لماذا سألتكِ، ومن الطبيعي ألا تعرفي ما الذي أريدك أن تقوليه لكن ردك أكد لي ما سمعته روحي.

– أُحبكِ أُحبكِ أُحبكِ

ابتلعت ريقي من هول الصدمة، هذا ما سمعته تماماً، ما الذي حدث؟ وكيف؟

– أعدك بألا أتركك أبداً.

ما الذي قلته للتو، لقد قطعت وعدا بالبقاء لفتاة لا أعرف لها اسما أو شكلا، يا لي من حمقاء. هو هول المشهد الذي اتخذ منحى دراماتيكياً عجيباً، لا أعرف ما الذي أشعر به تجاهها أهو حب؟ أم استجابة لشعور بأن أحداً على قيد حبي أو ربما هي المسؤولية تجاه فتاة أجبرتها على التصريح بسريرتها قسراً، وغدا واجباً عليَّ مشاركتها هذا الحمل. الاحتمالات كثيرة لكن أسوأ ما في الأمر أنني لا أعرف شعوري.

دقت ساعة هاتفك، إنها الخامسة صباحاً، لم يعد هناك مجال إلا لإغلاق الهاتف إذ اقترب موعد عملك، دقات رحمة جاءت لتمنحنا بعض السكينة بعد معركة عجيبة ورحلة مجهولة.

وعدتني ألا تختفي وأن ترسلي لي صورتكِ ووعدتكِ بالمثل. تبادلنا الصور، بيد مرتجفة فتحت الرسالة، ماذا وإن كانت عجوزاً هرمة أو كائناً بشعاً مشوهاً أو... أتشكل لكِ القشرة كل هذا المعنى؟

بالطبع لا تمثل شيئاً، لقد سمعت أنين روح نقية وأظنني لا أحتاج أكثر. دَفَعْتُ الأفكار عني وفتحت الصورة التي صدمتني، جميلة بل مشعة، دافئة كشمس السادسة.

هكذا رُصف الحجر الأول بنا، صوتاً وصوراً. كنتِ أجمل من فكرة الحب ذاتها. الحب!

ما هو تعريف الحب هنا؟ تصنيفه؟ ماهيته؟ رغباته؟

أنتِ، لا تعرفين ميولي، لم أخبرك ولم أسألك. اعترافك بالحب غامض ومعقد، أخبرتني أنك مطلقة، أذكر ذلك جيداً.

لم ارتجفت حين نطقتِ بحروف حبك لي؟

ربما كان طبيعياً ولخللٍ نابع من عزلتي الاجتماعية ومتاهاتي الخاصة رأيت الأمر غريباً. قد أكون أنا مصيبة في ريبتي، التتمة وحدها ستجيبني.

حل المساء بعد مغيب ألف سكتة وملايين الريب، أنتِ نشطة مجدداً.

السؤال عن الحب فظ، الحب لا يُروى، الحب يُحس، قررت ألا أسألك. سردتُ عليكِ ملحمتي مع الحياة وكنتِ صامتة، صامتةً جداً حد الموت. حملتكِ في رحلة لم يرافقني فيها قبلك أحد إلى قاعي الشاحب، المكان الذي أخافه.

– من الصعب سماع هذا وتقبله، أحتاج وقتا لي.

أتزعجها ماهيتي؟

ألم تكن تقصد الحب الذي فهمته، أم كَرِهتْ ما فعلته وخُضتُه؟

هل أرعبني خوفها؟ أم بادلتها شعور الحب اللحظي ذاك؟

الحياة معقدة والناس أضلعها الأشد انحرافاً، من الصعب التنبؤ بي/ بها. نحن شفرة ثلاثية متداخلة، عقل، قلب وروح، «الغوريثم»[١٩] كُتب متشابكاً كي لا يُقرأ. أتعجب من هؤلاء الذين يصفونكَ بثقة، مدعيون فهمك والدراية باحتياجك، إن

(١٩) algorithm : هي مجموعة قواعد وخطوات حسابية خوارزمية .

كنت تقف عاجزاً عن فهم ذاتكَ كيف ستفهم الآخر؟

– ليس سهلاً قبول حب شخص مُجرِب ارتشف قبلي أخريات لكن شفاعتي أنهن سبقنني. أوجعتني علاقتك الانترنتية مع تلك الـ«هدى» كونها تخالف كل مبدأ، هي فتاة ساقطة ولا أصدق أنكِ جاريتها في كل ذلك.

– إنها ليست ساقطة كما تظنين، تلك تجربتها الوحيدة ولها أسباب، لقد مرت بظروف قاسية، لقد تعرضت ل..

– كفى أتدافعين عنها في حضرتي، لا أطيق سماع أي كلام عنها.

– أنا لا أحدثها الآن على أية حال.

– مجرد مرورها الافتراضي ذاك لا يغتفر لكنني سأتناسى قدر ما يهبني قلبي حباً.

هكذا عدتِ إليَّ في اليوم التالي، عودة تؤكد تجاوزك تلك الأزمة، لكنها لم تجب عن أسئلتي، بل أجلتها للقادم. اتخذ الحديث صوراً عذبةً دافقة، حديث حبيبين لوعهما الهوى. سرعان ما انقلب صيفكِ خريفا عاصفا وتقلَّبت كلماتكِ على وجهها الشائك لسبب لا أذكره، أغلقتِ المحادثة وذهبتِ. بدا الأمر حجة هروب مهلهلة أخفت بداخلها قصة لم تخبريني عنها إلا لاحقاً.

حاولتِ الهرب لكن قلبك أعادكِ، علاقتي بك كانت من أغرب ما خضته، في الأشهر الأولى لم يتطلب ما بيننا شيئاً، الحديث متعتنا، مشاعر دافئة لم أشعر بها من قبل لونت عالمي الرمادي، لا جسد، لا مطالب، مجرد عزف أفلاطوني يشبه

موسيقى «رحلة الليل» لويليام شومان، تشاركنا الحياة، كنتُ أنتِ وكنتِ أنا، اختلطنا، شاركتك قراراتك ومشاعرك.

– لماذا أنتِ صامتة؟

– نور، الروح مرهقة لا نوم ولا راحة، كل ما بي ينتفض بالوتيرة المتسارعة نفسها.

– ماذا أصابكِ؟

– ربما لأنك حدث غير عادي أضرم الحياة في روح أتلفتها القصص الرتيبة.

– أنا أبسط الظن.

– إنها المرة الأولى التي أشعر بهذا الإحساس الصادق.

– هذا الصدق يخيف.

– أنتِ كل شيء، لا أكترث برأي الأخرين.

– تخيفني الهالة التي تصنعينها حولي، حين تنفجر سأبدو لك أقل وهجاً مما ظننتِ.

– وجودكِ، أنهك..

– أنهككِ؟

– بل صناعة يدي وأنتِ بريئة.

– ألمكِ أكبر مني.

الرسالة تعطي إشارة مفردة، «لم تصل» قُطع الاتصال وبقيت أنتظر وقتاً لم أُحصهِ لكنه بدا سمجا بطيئا.

– الليل حالكٌ جدا.

– أتودين النوم؟

– لا نوم، هبيني صوتك وسادة وغطاء، صوتك هو الحضور الفعلي لما هو نحن، ترى هل سيهبني ظلال نوم؟

– سننام معاً اليوم وكل يوم، سأتصل، أينك؟

غاب الاتصال.

– المساء لا يريدنا

– ربما

– أنتِ أجمل ما في المساء والحياة.

– وأنتِ أجمل إحساس تنفسته.

– أحبكِ.

– تُحرقُنَي حُروفكِ.

– تخرجُ من عُروقي.

– تنتفضُ في كل مسامات جسدي.

أشهر مرت وعلاقتنا كبذرة ضوء أنبتت ثمارا شمسية وهاجة لا دنس فيها ولا ريبة أو خوف. بلا مسمى أو اعتقاد، تجرد من الشكل أو الفكرة، وهج تحرر من القولبة حتى جاء ذلك اليوم. تحدثنا وتحدثنا ثم وجدتني أنهال على هاتفي قُبلاً متقدة متتالية بلا وعي، ما الذي أفعله، ارتعد كل ما بي وصرخ بلا صوت «توقفي».

صمتكِ أرعبني أكثر.

– هل أنتِ بخير؟ أجيبيني لا أعرف ما الذي أصابني؟

لكن أنفاسكِ المضطربة لم تُهَدِئ ذعري، سألتك مجدداً وأجبت:

– لم أشعر بذلك من قبل.

إجابتك زادتني خوفاً، استأذنتك وغادرت سماءَكِ الزرقاء، عدت إليَّ أُعاقبُني وأُعنفُني.

ما الذي فعلتُه! إنني أقودك في درب لا يناسب سواي، حبي يدمركِ، لابد من الابتعاد وتركك لحياتك العادية بعيداً عن نقمة اختلافي. لا أحتمل هذا الوجع ولا أجد حلا له فكيف أهبه لمن أحببتها حد الهوس.

– عليّ أن أتركك، أنت لستِ مثلي.

– لا تصدري أحكاماً وتجيبي عن أسئلتي نيابة عني. أتذكرين ثالث يوم تلا اعترافنا، حاولتُ الهرب منكِ ولم أبرر ذلك، ليلتها حلمتُ أننا نمارس الحب معاً واستيقظت متعرقة مستمتعة حد الذعر، ولم أملك القدرة على الرحيل فقد غُرستِ بي وفات أوان الهرب.

– لن أشاركُ في انحرافك عن مسارك الطبيعي، هذا ما وجدتُني عليه، كيف أُحمّلكِ ما لا قلب لكِ به وقد أقسمت ألا أهب هذا الوجع لأحد لم يكنه، لن أكون تجربتك الأولى.

– لستِ تجربتي الأولى.

– هل سبقني أحد في حياتك؟

أخبرَتْني عن السيدة «منال» وأضافت:

– لم أستطع زجها في هذا الإطار لأنني اعتدتها «أماً» ولم أرها يوماً حبيبة.

حماقتي أو لنقل حبي دفعني للتصديق، أُخذت بالحالة

وهرب التفكير عني، عجيبة هي أنانا تنغمس في تعذيبنا حد المازوشية[٢٠] حتى يقع ما تتوق له، تبني حائطاً شمعياً عازلا بيننا وبين كل ما نعتقده وما نخافه لتنغمس في متعتها المطلقة. طلبتِ أن تكون تلك ليلتنا لنعقد نذور حب خالدة، زواج!

الزواج أحد الشعائر الدينية والأيديولوجية[٢١]، التي صِيغت لِتُقوِّم علاقات البشر وفق المنظومة المتبعة، علاقة الذكر بالأنثى، أما ما نحن بصدده هو انقلاب على الأيديولوجية، قد يكون انقلاباً لا قصدياً لكنه يبقى مرفوضا ومذموما من المجتمع وكل أديانه كما يقول رجال الدين.

– كيف نُخضع اللاديني اللا أيدلوجي المرفوض لأحد الشعائر الدينية والأيديولوجية وهو الزواج؟ ما الذي يفعله من هم في مثل وضعنا؟

لم أجد ما أُجيبكِ به فأنا لم ألتقِ أياً من شبيهاتي الأربعين أمثالنا، ولا أعرف ما الذي ينتهجنه؟

---

(٢٠) اضطراب المازوخية الجنسي أو الماسوشية أو المازوخية أو المازوكية أو الخضوعية، وتعني الحصول على المتعة عند تلقي التعذيب الجسدي أو النفسي .

(٢١) الأيديولوجية : علم الأفكار ، أو العلم الذي يدرس مدى صحة أو خطأ الأفكار التي يحملها الناس . هذه الأفكار التي تُبنى منها النظريات والفرضيات ، التي تتلاءم مع العمليات العقلية لأعضاء المجتمع . وقد انتشر استعمال هذا الاصطلاح بحيث أصبح لا يعني علم الأفكار فحسب ، بل النظام الفكري والعاطفي الشامل الذي يُعبّر عن مواقف الأفراد من العالم والمجتمع والإنسان .

– كثير من الشيوخ والقساوسة حرموا علاقتنا ولعنوها لكنهم ليسوا صوت الله. لا أدري إن كان سيغضب كما صوروا لنا؟ لا أريد التنكر لربي ودِيني، ولا أملك التنكر لحاجتي وإنسانيتي. أنا مرتبكة وخائفة.

– لقد شرَّع الله الزواج لينظم حياتنا ويلزمنا به؛ لذا أنا معك حبيبتي فلتكن ليلتنا ونذورها ودعي عنك التفكير.

كانت ليلة لا تنسى، لم أطلب منك ارتداء شيئ خاص، لكن كلتينا ارتدت صوت قلبها، فستانك الأزرق الفاتن حدَّثَني بعريه وبريقه أنكِ وهبتِ روحكِ وجسدكِ لقلبي. وشى قميصي الواسع بسريرتي، لا أعير الجسد أولوية بقدر هيامي بما هو أنتِ بكلِ تفاصيلكِ.

تبادلنا نذورنا عبر الإنترنت ولم نقرب الجسد بعد، كانت ليلة عيون خالصة، اللهفة للاّشيء، فقط تبادل النظر.

في الشهور اللاحقة ربما مارسنا العلاقة الجسدية إلكترونيا مرتين أو ثلاثاً على الأكثر، علاقة لا أجد أهمية في سردها لأنها كانت جافة بلا ملمس، لم ترح شغفنا أو ترتقي لمسمى علاقة جنسية. بعد تلك الليلة اتخذنا قرارات هامة، أولها أن أقدم أوراقي لنيل فيزا دولتكِ كي نستقر معا، والثاني أن أبدأ البحث عن عمل لأوفر بعض المال، فما أملك بدأ ينفد. رأيتُ بي زوجكِ المسؤول عن هذا الشق. هذا ما كنت أشعر به رغم عدم تصريحي، وقرارنا الثالث كان البحث عن أندادنا والخروج إلى عالم يشبهنا لا نشعر فيه بالغربة.

أنشأنا حسابا فيسبوكيا مشتركاً تحت اسم «سيدة قلبي» والكناية «أفروديت وإنانا قصة عشق»، وهبنا لنا أسماء آلهة العشق الأنثوية في الأساطير القديمة، كينونتي الرجولية المختبئة اختفت عنكِ؛ لأنكِ ادعيتِ، رغم أنوثتك المفرطة، السلطة والذكورة. حبي لكِ دفعني لقبول ثوب لا يتطابق معي خوفاً وتحسباً لغضبك. كنت أشعر دائماً أنكِ سترحلين عني، علاقتي بكِ كانت هرولة تُسقط مني كرامتي وأفكاري من دون أن ألاحظ أو كنت أتجاهل. حين يقف المرء أمام شخص يُحبه وسط هالة من الفراغ والكراهية يتخلى عن كينونته لصالح تلك الوقفة، أنا الآن حرة منكِ أقف عارية وجها لوجه مع تنازلاتي التي أوصلتنا إلى حتفنا، خجلة أتساءل أكان عليَّ الهرب منذ البداية أم خوضك حد التلاشي ألماً؟

فم التيه يتسع، يُذيبني في غربة صدئة أتلفها ملح الحكاية. ملح تفاصيل كتبتِها علينا، فكنتِ أشد صرامة من تلك المسافة التي شقت روحنا وجعين، ووطن هُتكت عُذرية أرضه وتمزق جسدَه إلى ألف وطين، ولكل وطين قواد وسوق. لم أكن يوماً ماهرة في الطهي لكنني أعرف أن الدفء أو ما نسميه السمن هو ما يصهر مكونات الكعك ويكسبها لذة الهشاشة لكن الإفراط به يُتلفه، يجعل المكونات تتفتت لتغدو عديمة المسمى أو الصفة. الدفء والحميمية الزائدة حين يمتزجان بمكونات مختلفة تُمهد لنهاية مفجعة. كنا مختلفتين، كنا واحداً أنهكه انفصال الشخصية، لِمَ لم تتناوليني كما أنا!

أكان عليكِ الإفراط بالسمن؟

هل عرفتنيِ؟ أم كنتِ ترين فيَّ هيكلا أنتِ رسمتِه ليتطابق وما اشتهيتِه، ويتضاد معي بلا اكتراث بحقيقتي أو برغبتي وما كنتهُ حقاً؟

أعترف، أحببتكِ رغم كل شيء.

موسيقى موزارت اللعينة تُهيج شهوة التحليق بي، الانفراط إلى مليارات من إلكترونات ممسوسة تحمل صفاتي وحريتها، تقفز بجنون بين مدارات الكون، لا تَرى، لا تَسأل، لا تُحاسب، لا تفكر، مجرد انفراط لما فوق فكرة التجميع، ما قبل الخليقة، ما قبل الخطيئة /اللهفة/ الرغبات، نقاء خالص وانفجار عذب. من أين تنشأ فكرة الآلهة والعبودية؟

تُغزل كلتاهما في الزمان والمكان نفسيهما. في اللحظة التي نجح اتصالنا الروحي الأول وأعقبته صورتكِ ذات الملامح الجذابة اكتملت صورة الإله الذي صنعتُه «أنتِ» والعبد الذي تحولتُ إليه «أنا». كنتِ شديدة الدهاء بحيث وثبتِ سريعا من مقعد الخجل إلى عرش الآلهة، ولم تبذلي أي جهد معي، بكل حماقة ارتديتُ ثوب العبودية راضيةً.

جاءني الخطاب الأرضي الذي قدَّنا إلى ألف حزن ونهاية متسارعة، رُفضتْ الفيزا....

هل لاحظتِ يوما أن حياتكِ كلها عبارة عن إيقاع، أحيانا تسيرين في الطريق وفجأة تجدين قدم أحدهم تسير بإيقاع قدميكِ أو العكس، تسير قدميكِ وفق إيقاع شخص عبر أمامكِ أو بجواركِ

حد تقمصه، تفقدين أي إحساس بجسدك كأنه بلا وزن، أهي وسيلة العقل للهرب من حمله؟

حياتنا خط طويل يحتوي عدة نقاط هي الحدث، الحدث شيء ما أو لنقل ضيف ما حل على حياتنا ينتج عنه انفعال مثل الغضب/ الفرح أيٍّ كان، والمسافة بين كل حدثين هي الإيقاع أو تكرار المسافة بين كل حدثين هو الإيقاع.

ما الذي أقوله؟

يبدو أن الصمت جعل مني ثرثارة، ربما تقولين في نفسك الآن، وأنا أعرف تماما أنك تكرهين أن يتنبأ أحد بتصرفاتك أو يقول شيئا مدعيا أناك، لكن التوقع هنا في محله كونه في سياق ما أقصه، يحمل النغمة والإيقاع نفسيهما. تسألين ما علاقتكِ بكل هذا الحديث؟

ما أحاول إخباركِ به هنا هو تأثير هذا الإيقاع على قصتنا.

يخلق توارد الأحداث في حياتنا إيقاعا سريعا، وكلما أسرع الإيقاع زادت النشوة، ولكن تجاوز السرعة المفرطة في الإيقاع يسبب ردة فعل عكسية هي الاعتياد حد السقوط في اللامبالاة. وكذلك الإفراط في البطء يخلق دورة حياة ميتة تسقُط في البرودة ذاتها. علاوة على أن هناك علاقة طردية بين الوقت والإيقاع، فكلما تناقص الحدث صار الوقت بطيئا لا يمشي، وكلما تزايدت الأحداث هرب الوقت، لكن بين الإيقاع والعمر علاقة عكسية، فكلما بطأ الإيقاع يهرب العمر؛ لأن العمر يرتبط بخط زمن وهمي فهو مجرد هلوسة مثل الرؤية عبر الزجاج بأنواعه، فتختلف رؤية

المشهد ذاته من خلف زجاجة مقعرة أو زجاجة محدبة، وفق نوع الزجاج يولد إحساسنا بالعمر. كلما بطأ الإيقاع يصير إحساسنا بالعمر أنه سريع لكن بلا جدوى، وذلك عكس الحياة ضمن الإيقاع السريع. وهذا ما حدث في علاقتنا، رفض الفيزا كان آخر حدث ضرب إيقاعنا لفترة طويلة، جعل القفز إلى نقطة أخرى يحتاج وقتا أطول مما جعل إيقاع علاقتنا بطيئاً حد الوقوف. هل جربت الوقوف طويلا وعلى ظهرك حقيبة ممتلئة؟

فتحَ درب النهاية كلتا يديه وباتت مشاعرنا أفيالاً تسير إلى مقبرتها. لا أذكر كم علِقنا في هذه النغمة الميتة. فقدتُ الإحساس بالوقت، تجمدنا وبدأتْ روح العلاقة تخرج تدريجيا من أجسادنا لا راضية ولا مرضية.

من أنتِ؟

المتاهات تتسعُ في علاقة عالقة، مشكلة تلو أخرى، كلما خرجت للبحث عن عمل عُدتُ إلى سيل من عقابات متتالية تسنينها تصل حد إغلاق الانترنت أياماً عدة بحجة أنني أهملتك حين خرجت؟ أيبدو لك ذلك سببا مقنعاً!

وأنا المغلفة بهوس عشقك لم أفكر، كنت أبرِرُكِ لي وأصالحكِ، أستجديك، أستجدي رفاقكِ التدخل، فقط اصفحي. تزايدت ردات فعلك في الأشهر اللاحقة، اتهمتني بمغازلة فتيات ذوات ميول جنسية مشابهة، أنتِ من أدخلهم حسابنا الفيسبوكي بحجة التقرب من أشباهنا، لم يكن كل ذلك سوى حيل لتبرير رحيلك للأبد عن صفحتنا.

– أشعر بالتقزز منها ومن كل فتاة في هذا العالم المشبوه، كلهن ساقطات ولا أُريد أي تواصل معهن.

– كيف تنعتيهن بالعهر وهن نحن.

– إنني أعلم ما جَهِلتِه.

صَدقتكِ واستسلمت لقرارك، كنت أدخل صفحتنا بين الحين والحين أكتب لكِ/ لنا/ عنا، رغم يقيني برحيلك عنها، كم نكذب على أنفسنا فقط للبقاء ضمن إطار نحبه ويضيق بنا.

غيابك يزداد، قُبلت في أحد معاهد السكرتاريا، رغم التهام الدراسة والبحث عن عمل جُلَّ وقتي، بدا غيابك فترات عن برامج التواصل –عنا– وقلة اكتراثك واضحة لمن يريد أن يرى ليس للمخمور بنشوة القصة «أنا». استمر عقلي في لعبة التبرير السخيفة.

الفيسبوك يشبه كثيراً الجارة سليطة العين واللسان تلك التي تجلس على قارعة الحكايا وتثرثر، كخاطبة تُزوج وتُطلق، تدس أنفها في كل حدث، وتفشي سر كل مار، سيدة تنام قصص الغرباء في كلماتها. هكذا أرسل لي وشايته الزرقاء، حسابا مقترحا لشخص من منطقتك، المهنة طبيبة، تلك المهنة التي عشقتِها وتركتها عن حماقة ولم يكن بمقدورك العودة إليها. سيبدو الحسابِ مجرد مصادفة سمجة بائسة لولا أنه قد اختفى من الفيس فجأة كما ظهر، ترى أحقيقة هي المصادفة؟ أم هي من صنع وعينا؟ الإفراط بالوعي؟

– هل ترين تلك الفتاة لقد قالت إنها ممسوسة بي، وأخبرتها أنني مرتبطة فطلبت ألا أتركها، قررت جعلها صديقة.

أعقبتِ تلك اللطمة بصورة فتاة قصيرة الشعر ترتدي ملابس مفرطة في السواد والذكورة.

– من أين أتت بحسابك الرسمي؟

– ربما مصادفة من أحد الجروبات.

تكرر الموقف مرات عدة حتى خجلت الـ ربما وتوردت.

أكلتني ريبة متأخرة كأعراض تفوح بعد انتشار المرض، معلنة اقتراب سيطرته ونهايتك. حسابكِ الأصلي لا يمتُ لتلك الشريحة بصلة ولا تتوفر أية صورة لكِ عليه، حتى إنه صار باهتاً من شدة غيابك وقلة تفاعلك، من أين لكِ بتلك الفتيات والقصص؟

تأججت نار الغيرة بي أكثر والخوف أيضاً، ماذا وإن كنتِ... لا، لن أفكر بالأمر ولكن....

أنشأتُ صفحة جديدة بلا أي ملمح عني وبحثت عن ذلك الحساب، صُدمتُ بوجوده ولهذا الأمر معنى واحد أنه محجوب عن صفحتنا فقط.

نشرتُ على الحساب الجديد عدة منشورات من أحدث ما كتبت، من أين لكِ بمعرفة جديدي إن كنتِ قد هجرتِ كلماتي وهجرتني.

أرسلتُ عدة طلبات صداقة لفتيات من مجموعات مختلفة بشكل عشوائي، استعدادا لاكتشاف سرطاني الأعظم، وجع الخديعة وشحوب المتاهة «أنتِ»، أرسلت لكِ طلب صداقة.

قبلتِ....

صدمة بحجم السماء تلك الحروف تُشبهكِ، تنقلتُ بين

مناشيركِ القديمة المضافة منذ عدة شهور وُفجعت، هل لاحتراق الروح أية رائحة؟

كيف يمكن وزن الفاجعة أو منحها حجما؟

صور لأماكن في طريق عملكِ اليومي أخبرتني أنكِ التقطتها لي وحدي.

– دعينا نتشارك في كل ما تراه أعيننا.

كم يبدو الأمر الآن ساخراً حد الغثيان. قلبي يقرصني بشدة والغصة تخنقني، هل هذا ما كنت تفعلينه مؤخراً، خيانتي؟

لابد أن أتأكد، يا للقلب حين يعشق كم يصبح أحمقاً!

حاصرتكِ في المحادثة لم أحتمل الوقت، ثقيلاً تطوح على ظهر ألمي. الحديث سِجال يترنح بين مريب وبارد، كنتِ محنكة، الخوف والشك يملأ كلتينا أو ربما كلتانا تعرف وتنتظر اللطمة من الأخرى.

أرسلتُ لكِ مكالمة صوتية، هو الصوت بدايتنا ترى هل سيحمل النهاية على عاتقه؟

– أنت جريئة جداً.

– أجيبي أو سألغي الصداقة، أحتاج للتأكد أن محدثتي فتاة.

– أحتاج وقتاً.

– الآن أو لا.

لا وجع يشبه الصعقة إلا انتظارها المتباطئ. قبلتِ المكالمة ومع أول أنفاسكِ عرفتكِ، أجبتكِ بـ ألو مشدوهة، فخرجت منكِ شهقة أعلنت وصولنا لما قبل النهاية برشفة. حظرتكِ وجلستُ أتحسر وأبكي، أيبدو الأمر مهماً لكِ الآن؟

لا أظنه كذلك فلقد كنتِ أكثر إيماناً مني بأن الدنيا تعشق العراة، تُخصص جزءاً كبيراً من جُندها لكشف جسد الكذب، على مرأى السُذَج أو لنقل الحمقى ممن أسرفوا في إغلاق بصيرتهم؛ كي لا يعرفوا أبدا أو لأنهم يعرفون ولا يقبلون تلك الهبة، المعرفة. أرسلتِ تُبرري بحجج واهية، لا تقنع طفل السابعة، أقرؤها وأحترق.

في وقتٍ فيسبوكي سابق التقيت بـ«س» على إحدى المجموعات. فتاة عرفتُ فيها الحِنكة والصدق، أخبرتها بقصتي في محاولة عابثة لإفراغ الروح من احتقان سببته بكتيريا حماقتك، ربما أُشفى وأَعود لمتاهتي متجددة طازجة. طلبتْ «س» مني إعطاءك فرصة والإنصات لعذركِ بعين خبيرة هادئة. لن أقول إن حديثها أقنعني بل لبى مطلب قلبي، فعلتُها وعدنا لكن بعلاقة عرجاء بُتر أحد أركانها.

بعيداً عن كل تلك المبررات غير المقنعة التي منحَتني إياها لنعود معا – تلك التي اختلقتها لحفظ ماء وجهك– اختبأت الحقيقة في أقصى أعماقك، حقيقة لم أعرفها إلا لاحقاً بعد فوات اللهفة. تائهةً تبحثين عن أجوبتك الخاصة، كُنتِ ما تجهلينه أو ربما عرفتِ، لكنكِ سعيتِ للاختلاف طمعا بالخلاص من القطيع. التمرد والخروج بصرخةِ «أنا هنا» تلك التي لم يكن ليسمعها أحد وسط هذا الطريق الفارغ، سوانا.

المعرفة مجدداً، الوعي مصيبتنا وهلاكنا.

– قادمة بعد سبعة أيام.

الفرحة أفقدتني ذاكرة اللحظة، سأراكِ، سأضمكِ، سأمحو تراب المسافة عن شوقنا. قدمتُ اعتذارا للمعهد عن غياب سيجمعني بنهايتنا لا بكِ. أعددتُ كل شيء، كل شيء دوني، بعد يومين أخبرتِني بعدولكِ عن المجيء بطريقة حادة.

– أنت لم تعودي تكترثين، بي أنت لا تحبينني، كفى...لقد انتهينا.

كيف للوعد أن يتهاوى عند اقترابه، أهو الضوء إذن أحرق أبناءه الفراش ونجا؟

لم أمتلك في ذلك الوقت معرفة تَبرر لي أسبابِ حدتكِ. كنت تعانين مشاكل جدية تفرضها ظروف بلدكِ، ووضعاً مادياً غير مستقر يمنعك من المغادرة. بخلتِ في مشاركتي التفاصيل، أسرفتِ في تعذيبي بلا مبرر وإن كنت أراه الآن خوفكِ من مواجهة ذاتكِ وأنا.

لِمَ نفضل تصدير المشكلة للآخر كبديل عن مشاركته الفكرة والوجع؟

نُدير دفة الاتهام، نطلق صواريخ غضبنا المبطنة كي لا نوقِّع صكّ الخروج من كل العبث المحيط بنا. «س» الصديقة والمستمعة الجيدة، صاحبة الصوت الهادىء الرقيق والمواقف الصادقة تُهوِن عليَّ. نتحدث كثيراً أهرب من أوجاعنا بالثرثرة ومشاركة «س» فراغنا. في اليوم التالي أبلغتِني بتراجعك عن قرارك وأنكِ ستكونين هنا في الموعد. وما كاد يوم آخر يمضي حتى غرستِ ناب قسوتك في قلبي مجددا.

– لن آتي أنتِ لا تستحقينني.
– من حقي عليكِ إيفاء التزامكِ بنا.
– أنت لم تعودي الشخص ذاته الذي وعدتُه بالمجيء.
– إنها أنا، فلتمنحي حبنا فرصته الأخيرة.
– عليكِ التخلي عن دراستكِ وجنسيتكِ والانضمام لي هنا بأية طريقة، لا أكترث.
– لقد جننتِ تماما.
– بل قولي انتهينا.

دخلت محادثتي مع «س» يطوحني وجع النهاية التي وثقت بحدوثها، لكنني كابرت وكذبت بلا عقل. أتفوه بترهات بلا وعي كمن شرب جرعة كبيرة من خمر ثقيل مر أفقده ما تبقى من عقل.

– أُحبك.
– ما الذي أصابك هل جننتِ، أنتِ تحبينها؟
– علاقتنا منتهية لا فائدة هي لم تعد تريدني وأنا أريدك أنتِ.

أفقتُ على وقع المصيبة التي صنعتها تحت تأثير القهر ورغبتي بالثأر لي ومني، لكنني في هذه المرة زججت بفتاة بريئة في قصة لم تُخلق لها.

نحن كالزجاج حين يُكسر يجرح كل عابر بلا قصد – عادة إنسانية حمقاء– إذا مسنا فرط الوجع واليأس نلجأ للاختباء في ظل حب جديد أو علاقة جسد باهتة، أنفعل ذلك لنثبت لأنفسنا

أننا مرغوبون، نملكُ قدرة تملك الحب والسيطرة المفرطة على جسد؟

«س»، فتاة عابرة جنسياً لديها قصتها الخاصة ومرضها، عالقة في آخر بقاع الأرض لا تستطيع المغادرة. ما الذي فعلته بفتاة حدَّدَت الدنيا منذ البدء خيارها وسلبتُها حق الانطلاق في أي مشروع حب؟

حبي لم يتجاوز الصداقة كيف تفوهت بهذه الفوضى؟

كم كرهتُني في تلك اللحظة! وكم كرهتُ قَسمي للروح بأن ألتزم بـ«س» ما دمت حية، لكن تأرجحك أقسم على سلبي كل فرصة نبل، أطاح بي في جب المتاهة أكثر فأكثر.

– غداً سأكون في مطاركم ها قد وفيت بالوعد.

– أنتِ قادمة، كيف؟ لِمَ؟

زرقاء باردة تماماً تجمدتُ صنماً، لا يوجد الكثير لفعله، حاولت تهدئة «س» التي من سوء حظها قد أحبتني، ورأت فيَّ حلماً حط عليه الغبار منذ سنين لتحمله لها النافذة الفيسبوكية عائداً.

– علاقتنا منتهية، غرورها دفعها للقدوم لكن الأمر قد قضي.

– ستتغيرين بعد رؤيتها.

– لا فائدة.

انتهاء علاقتنا كان جلياً، عرفتُ أن زيارتك محاولة بائسة لترميم جثة،

أيستيقظ الأموات بعد أيام من حتفهم؟

وقع الأفكار مخيف على قلب قد لطمهُ للتو قطار ضخم، كيف أستقبلك؟

الأسئلة تقفز كحبوب الذرة بين جنبات رأسي المشتعل.

ها أنت ذي، لوحت لكِ بفتور ميت، سلام بالأيدي لا يليق بعلاقة يوماً جمعتنا على مائدة لهفتها، حملتُ الحقائب وانطلقنا صوب غرفتك الفندقية، من أنتِ؟

بعيون صقر طاردتُ ملامحكِ المرتبكة.

– أشيحي بنظركِ عني... عيونكِ تربكيني.

***

كيبورد، صوت كيبورد يرتفع يملأ المكان يحيط بكل تلك الأرواح السابحة.

إنها أنتِ كنت أعرف أنني سألتقيكِ، بيننا حسابات كثيرة، أنا لم أخنك، أحببتكِ هل تذكرين قصائدنا؟

تتجاهل فتاة النت حديث الروح، تنظر إليها بعين من عتب وتتلفت يمنة ويسرة كمن أضاع بعضا منه والروح تحركها صوبها، لكن عيون فتاة النت لا تلتف للروح كأنها شفيفة لا تُرى.

خلفها تشكل هلام ضبابي ذو عيون واسعة جاحظة واضحة الشرود، يتشكل ويتبعثر بأشكال مبهمة على كرسي ضبابي متحرك، يدور في فلك ضبابه.

«س» تقلَّدتْ الذاكرة فجأة كما تقلَّدَتني، أي صفح أُطالبك به وقد كبلتِني بسوءتي وعريت، جرحك بي، بك.

تتابع «صفاء» المشهد بروتينية والروح تقفز بين الجميع بلا وعي.

الحب صانع الوجع المطلق والولادة، مؤلم الاقتراب من قطعك

المتشرذمة أيتها الروح، ليتك تطلقين الخيوط وتصفحين عن القصص، عنهن..

***

بحركات متوترة حادة تضعين الملابس في الخزانة تارة، وأخرى تضعين بين أصابعي هدايا لم ألتفت إليها، من أنتِ؟ من أنا وسط كل هذا الصخب؟

تتجول الأسئلة حرة بي، تعتصر كل شريان وتنزف ذواكر وأمنيات ميتة. كيف ألتُقطنا من متاهة النهاية، ومن سيعيد رسم خطوط الشوق على رماد ورق خريفي ميت؟

إنه الجسد، ربما هو بوصلة تملكُ كشف طريق العودة وسط متاهات النهاية المحدقة بنا، علَّه يُملكني زمام حضورك الغائر في متاهته.

عانقتك فأبعدتني بسرعة قبل اكتمال الفكرة.

– ليس الآن.

– انها أحلامنا ورعشتنا المؤجلة.

بدأتْ ملامح الاستسلام المرتاب جلية، انتهزتُ شككِ وضممتكُ لي وبي، حاولتِ التملص، تململتِ بين قرار السير في هذا أو العودة، بصوت مرتبك همستِ:

– أطفئي الأضواء.

أكَملتُ رصف الرغبة على أجسادنا المتعطشة لرعشة طال انتظارها، رعشة خاوية، مجرد انتفاضات جسدية لم تمس الروح أو تصنع فارقاً.

انتهى كل شيء، مات الأمل المضطرب، اشتكيتِ قسوتي

الجسدية التي لم تحضر إلا بين جُملك الهاربة، وتذمرتِ من عدم وصولك للنشوة.

مضى اليومان التاليان في محاولات جسدية باردة لا حضور لنشوتي فيها، مجرد محاولات لإرضائكِ، محاولات فاشلة، كيف أهبك نشوة لم تكن بكِ أو لكِ؟

مجرد نزوة حاولتِ بها صنع تفرد، وهل يبدو لك هذا التشرذم المحاط بدائرة من الكراهية واللعنات فرادة تستحق الخوض؟

ليتني كنت جزءاً من القطيع ومرت بي الدنيا مسالمة. ليتني كنت حقيقة واضحة، أنثى خلقت لذكر أو ذكراً خلق لأنثى، لكنني مع الأسف شيء لا أعرفه ولم يعرفه أحد؟

هي عادة الناس منح الكراهية لكل مجهول وإهدار دمه، لقد أُهدرتُ رغم محاولة الطاعة التي رسمتُها، وكنتِ أنتِ ما كنتِه وسعيتِ نحو لعنتي منصاعة لهوس الفرادة الأحمق. مارسنا جنس الهاتف ثلاث مرات على مدار علاقتنا الإلكترونية، بدا الأمر ناجحاً وقتها ومبشرا، هو جمال الخيال الذي نَخلقُ به ما لا نستطيع لمسه في الواقع، إيهام أنفسنا بما نريده، هذيان نُشَيِّد جدرانه على قياس الـ«هو»[٢٢] بنا. قصر رمال باهر يذوب حين يتجسد في ثوبه المادي على صحراء الواقع. عِلَّة الخيال التحقيق، الواقع يُفقده قيمته وتميزه، يُخضعه لمقاييس أخرى لم تخطر لنشوتنا ببال. نحن لا نعرف ما نريد، فقط نبحث عنا في متاهة الكون العظيمة. لا أحد يعرف،

---

(٢٢) هو : نظرية فرويد تم ذكرها سابقا .

يذوب العمر في البحث الذي غدا الغاية لا الوسيلة. أي الأدوار تلعب كلتانا على خشبة الوقت الباردة والحاضر غير معلوم النية؟

تكرار لا ينتهي للوقت جعل من اليوم مطلقاً، لُعن الزمن، وتنكرت الفيزياء لعقارب الساعة الضجرة. «س» صبرها ينفد وأنا العاجز القابع تحت مراقبتك المتوعدة، تقرأين ريبتي بعمق.

– أريني محادثتك مع صديقتك الجديدة تلك.

– محوتها

– لقد خنتني

الدموع تكسِر حواجز قوتي، لا أجوبة، ضممتني.

– لقد سامحتك إن فعلت.

كُنتُ حمقاء كي أصدق أنك وَقَّعتِ غُفرانك الوهمي لإنقاذ كذبة عشناها وعراها الجسد. «س» تجدد إرسال الأسئلة والعبارات المتوعدة الغاضبة، تهددني بك وقد سلَّمتها رأسي وغفِلت أنها امرأة.

أُخفي الرسائل، أتحجج بشراء الأشياء وأخرجَ للاتصال بها وإقناعها بالتريث، سفرك أخيرا اقترب، لم أكن أتوقع هذا التحول بي كأن أنتظر مغادرتك.

– عِديني ألا تحادثيها مجدداً.

يا الله أية حال تلك، هل أكسر قلبها أم قلبكِ أم صورتي أمام ذات كرهتَني وكرهتهُا؛ لأصبح حقيرة كاذبة خائنة. شرحتُ محاولةً إقناعك أنها بعيدة لن تتأثري بوجودها، هي صديقة إنترنت لا أكثر لكن شيئاً لم يشفع. وعدتكِ ويعي القلب كم كنت كاذبة.

انتـهي كل شيء، أنتِ تغـادرين، لا أدري كـيف انفـجـرت الفقاعـة اللزجة التي غلَّفتني، وكأن حبك استيقظ لتوه من نوبة تخدير طويلة، رجوتك ألا تغادري، ارتميت في حضنك مختبئة من رحيلك الوشيك، بكيتُ حتى زاغ بصري وفقدت اتزاني. حضن، أو لنقل إثم عـايرتني به لاحـقـاً. رحلتِ وتركـتني في جب من الاسئلة الجافة.

من أنا؟

لَمْ أستطع الشعور بجسدك، ولم أمنحك اللذة المرجوة.

هل كنتُ فتاة عادية خَلقت من الأسئلة مسخا وهميا وارتدته؟

من أنا يا الله؟

هل يخبرني أحد؟

لم تمنحني الأحداث فرصة السقوط في أقصى عمقي، وقع كل شيء بَغْتَة وبسرعة مفرطة. راسلتكِ «س» وأخبرتك عن تواصلي معها، فاتهمتني بالخيانة ووصمتني بأبشع المكائد، عايرتني بكل عطاياكِ واختتمتِ رسائلك قائلة:

– جئتكِ كي تضميني، لكن أنا من ضمكِ فماذا وهبني حبكِ؟

تلك هي حقيقة الأمر المختبئة، لم تكن علاقتي الانترنتية الخالية من الروح والجسد لتصيبك بكل هذا الأرق، بل عثورك على أناكِ وإدراككِ حاجتكِ لرجل لا لامرأة، مما جعل من «س» طيناً خصباً لزرعك المر اليابس.

عُدتُ بلا أحد وعاءً للوجع والأسئلة المثلجة الحادة، بجب عميق

من اللاشيء أطاح بكل صورة رسمتُها لما كُنته أو ما جهلتُه مني.

معاناةٌ ولدتني بيضاء لا أم ترضعني السلام، ولا أب يشذب خوفي، جُرحتُ بعناق ظَننتهُ لي. سكبتْ الدنيا صدمةً أخرى على وجعي الملتهب، حيرة الوعد تسلَّلت ببطء لتجاويف عقلي وقلبي، «س» ماذا أفعل بهذا التركيب المعقد من حبها وإيماني بوهن العلاقات الإنترنتية الباردة؟

التعود ووعدي لها هما خلاصة ما جمعني بضفافها، لكن الوقت وهبني هدية النهاية. ظَنتْ «س» أنني بمعرفتي فعلتِها سأتركها لذا سارعت بتهديدي.

– هكرتُ جهازكِ والتقطت لكِ صورا مختلفة عبر الكاميرا سأنشرها وأفضحكِ.

مشدوهة تلقيت رسائلها، ما أحمق أن تحارب ذاتك من أجل شخص امتهن خوفك ليبقيك قسراً جزءا منه. تركتها رغم رسائل اعتذارها، لم أحتج عذراً للترك، كنتُ صادقة في وعدي، لكن من فكر للحظةٍ بنسج تلك القصة لن يجد ما يمنعه يوماً من تنفيذها. كيف تزرع ثقة في تصحر بلع أخضره؟

***

تلتفُ حول ظلها مغادرة، تذوب وسط دخان الأسئلة، والروح مشدوهة من هول هذا الرحيل. الزوج يدور في غضبه وكرسي الضباب المتحرك يداعب ظله يميناً ويسارا.

– جميعهم خالدون في سواد ذاكرتي إلاكِ قد عزمتِ الهرب مجدداً، هل هي رغبتكِ أم أنكِ مجرد تفسير لرغبات روح مكبوتة؟

لا إجابة...

غـريب مـا أصـاب الروح من راحـة ولَّدها رحـيلهـا، بعض التجارب لم تُخلق على مقاسنا ونهايتها عدالة مطلقة.

- اتصدقين بأنني لا أكترث برحيلها.

طوت «صـفـاء» تلك المعرفـة في ابتـسـامتـهـا مـحـافظةً على هدوئها.

***

لِمَ يلعنوا روايات وأفلام الجنس في الضوء، ثم يبحثون عنها في العتمة؟

أهو البحث عن ما خفي بالداخل؟

ربما هي حالة هروب عبثي نحو العمق. قرأت دراسة تقول عند إخضاع بعض الأشخاص لتخطيط الدماغ وإعطائهم الكوكايين، ثم مقارنتهم بآخرين تمت إثارتهم جنسياً، كانت النتيجة أن المناطق التي تضيء في الدماغ في كلتا الحالتين واحدة. لأكون أكثر وضوحاً، السبب العلمي لممارسة الجنس هو إفراز هرمون الدوبامين[٢٣] (يسمى هرمون المكافأة) وهو السبب ذاته الذي يدفع

---

(٢٣) الدوبامين (بالإنجليزية : Dopamine) مادة كيميائية تتفاعل في الدماغ لتؤثر على كثير من الأحاسيس والسلوكيات، بما في ذلك الانتباه ، والتوجيه وتحريك الجسم . ويؤدي الدوبامين دوراً رئيسياً في الإحساس بالمتعة والسعادة والإدمان . إن الدوبامين أحد المجموعات الكيميائية التي تسمى النواقل العصبية التي تحمل المعلومات من عصبون (خلية عصبية) ، إلى آخر .

البعض لإدمان المخدرات، كونها تحفز إفراز الهرمون ذاته، أي أن النشوة الجنسية تُحدِث استجابة في المخ تتشابه وجرعة من الكوكايين. لماذا حُرِّمتْ المخدرات وأبيح الجنس في أشكاله المجتمعية المقبولة؟

أهو الخيط الرفيع بين الصواب المقبول والخطأ المحرم؟

ما الخطأ وما الصواب في ظل هذا التشابه العبثي؟

إنه الخروج البري نحو غابة الـ«هو» المكبوتة والغاضبة التي تجثم على حافة المنحدر متصلبة، لينطلق هو حراً جائعاً، إلى أين تأخذني الحرية؟

كيف لكل هذه الفوضى الشرسة الشرهة والالتزام الحاد أن يستكينا بي؟ رائحة حرب وهستيريا، عِواء غاضب، تتعرى الأسماء، كل صفة تهرب إذا تحررت البديهة الأولى «الرغبة»، التصور الأول لـ ذات معتقلة حانقة.

من يُخرج أسوأكَ قد لمس قاعكَ، وأناي حائط عذري لم يصبه اللمس.

أيكفي الاحتماء بالإدراك العاقل لكبح زئير مشتعل شره عاقبتهُ الفضيلة/الأنا العليا سجناً وحرمانا مطبقا.

حافية على الحافة يلتهمني شبق مستتر، أبحث عن معجزة تكشف لي شبقي الخاص، كيف للشبق أن يحمل هوية؟ بأي شكل يُخلق وينمو؟

كيف يُخفي ستار أبيض شفيف خلفه كل هذا السواد شاهراً أنيابه!

الوصف لا يحمل معنى ثابت الصحة هو رؤية القاص لأحد جوانب الحكاية، بأي طريقة أقص ما لا أرى؟

أنا كائن مشتعل خلف شبق بلا هوية، جسد يرسم شِرك المتاهة، والروح تتعثر ولا تصل. كيف أهرب من حافة بركانية بلا أجنحة؟

سيقان بلا ريش تدور بي، أهو الجنس أم الحاجة لدفء الجسد؟

وحوش تتصارع في داخلي لا يفلح في إطلاقها أحد، وحوش تنهشني، قطعة لحم صغيرة ترتعش تُفجِّر الفقاعة وتنقلني بسلاسة إلى منطقة أخرى مني؟

كم وجهاً أمتلك وأيهم الحقيقي، إن كانت هناك حقيقة في كل هذه الهرطقة؟

أريد أن أكون حرة لرعشة واحدة، تُرى أكان مغزى خلق الحرب ولادة السلام في مكان ما أو جسد ما؟ هل أحتاج أصابع لأكتشف ذواتي، أصابع غريبة تدلني على نفسي لأكتشفني؟

في لحظة الذروة يُغلق الكون نوافذه وأبوابه ويُخرس الوقت، يتجمد كل شيء ليتيح لأصابع غريب أو غريبة رسم تفاصيل الذات والهوية على صفحات الجسد.

متى سأحمل هُوية؟

يصرخُ جسدي وألوذ بمتاهتي بلا أدنى صوت. الآن أنا هشة جداً عاجزة عن إدراكي لذاتي، أيحق لي لحظة اكتشاف واحدة!

ما الذي عليَّ توقعه، أناي بلا أصابع، مبتلة تماماً برغبة مبهمة وقرار حُسم للتو، سأعود إلى بيت أهلي.

الكذبة السابعة

«ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم وخسر روحه؟ أن يربح العالم ويخسر روحه. نحن فعلنا أفضل من ذلك، خسرنا الاثنين معاً»

إميل سيوران

أحاسيسٌ تتحلل في ألم بليد، أجلس كقطعة ثلج على سطح بلوتو[٢٤] أدور بلا وعي حول شمس ما، لِمَ أدُور حول كُتلة دفء لم تُذب تجمد أطرافي؟

بلوتو كوكب أحمق يسير مع القطيع بلا أدنى تَفَكُرْ. أين ستحملني مداراتي المتناقضة؟

سئمتُ التلفت والانتظار، نبض الخوف يسكن عروقي، سئمتُ السؤال الذي نبذَ الأجوبة ونام جسراً بيني وبين متاهتي السوداء القاحلة. تتواتر مشاعري، يتبلَّد كل شي وتتخلى العزيمة عني. وسط حالة اللافهم في لحظة باردة عَبرتُ عقلي على أطراف

---

(٢٤) بلوتو : أصغر كواكب المجموعة الشمسية التسعة ، ويتكون بلوتو في المقام الأول من الجليد والصخور، كما يستغرق ضوء الشمس حوالي ٥,٥ ساعة للوصول إليه .

أفكاري واتخذت القرار بالعودة.

ما الذي يجول في رأس المنتحر قبل لحظته الأخيرة كي تذوب مخاوفه ومشاعره تجاه العالم ورهبة ردات الفعل؟ كيف يتجاهل الأمل؟

ربما تتلَبد سماءه بهذيان العبور صوب الضفة الأخرى، فيعبر فيزيائيته ويقفز عن كل ما كانه أو تمناه. الانتحار جسر يؤدي إلى الضفة الثانية لكنني الآن هادئة أسير نحو ضفة ثالثة، المجهول.

ماذا يحمل المجهول؟ وجه أبي بعبوسه وأصابعه الثقيلة على وجنتي، أم ارتجاف جسد أمي. أهو دبق كما الزبد السائل من صراخ أخي؟

أيملك حفيف وشوشة الجيران التي وشمتْ كل ركن بي بلطخة عار وعلَّقتها في خاصرة أمي أو في آخر كلمة من اسم والدي الرباعي؟

أم هو سكين تنتظر وتشتهي نهش أحشائي وتطهير فِعلتي؟

أسير فارغة تماماً من أسبابي يُحركني جهلي، ربما يُمهلني موتي المرتقب لحظة ألوذ بـ«أم» لعبت دور اللا دور؛ لأستعلم عني علَّها تحوكُ الفجوة الغائرة بي، وتوصلني إلى أناي المختبئة خلف وعيي الحاضر الغائب. لحظة واحدة من الأجوبة قد تكفيني الحياة بسنينها ومكائدها. معرفة لا أكترث بعدها بالقادم. كم أشتهي برهة من الهدوء الذهني.

كيف أصنع مقبرة في رأسي لأدفن فقاعات الأفكار فيها وسط غليان الذاكرة واستفساراتها التي لا تنطفئ؟

ابتسمتْ أشجار الطريق التي كانت تلاحق نوافذ الباص لي محاولة منعي من الإكمال في هذا الجنون، الجنون هنا يحمل معنى واحداً، العودة إلى بيت أهلي بعد حقبة من هرب.

من مساوئ الانتحار، أنه يُولدُ من دهشة لا يملك العقل فيها أية حصة، يكون المرء ملِكا لرياح الصدفة؛ لذا لم أختر توقيت عودتي ولم أنظر إلى أية ساعة، أنا في الأصل هاربة من الوقت لا أحمل ساعات ولا أميز نتوءات وجهها أو دنائة عقاربها. الهرب حولني إلى خرونوس[٢٥] إله وقتي ولم يعد شريط الزمن الوهمي يحكمني. تحررتُ من كل ما حولي ولم أتحرر من قيدي الحقيقي «أنا». لخطأ ما عدت وقت خروج موظفي الدوائر الحكومية، ثملة دون خمر يجلس حولي أشباح بشر، أشباح دوغمائية تحمل رائحة لحية أبي ولا تملك خشونتها وطولها. باص ممتلىء بنساء عاملات يحملنَ سياطاً لجَلدِ بنات جنسهن، سياطاً أشد حدة من تلك التي يحملها الرجال، هي حكمة «تفوق التلميذ الأحمق بالحفظ على أستاذه» الحفظ بلا فهم. صنع الرجال منهن آلات ناسخة تحل لهم معادلات الحياة المعقدة. تبرر نقائصهم وتغطي عيوبهم، لكنها تُعري أترابهم من النساء؛ لتتحول بوصلة الخطأ صوب المرأة دائماً حتى في أشد لحظات وقع الظلم العاتي عليها. كم أكره تلك العينة من النساء.

(٢٥) خرونوس يعني بالإغريقية الزمن وهو في الميثولوجيا الإغريقية إله الزمن ويجسد انتهاء الزمن والعمر . بعض الحكايات خلطت بينه وبين كرونوس لكن هذا ليس إلا تأويلاً شعبياً ، إذ انه لا علاقة بين الاثنين .

ما معنى الكره؟

ظننتُ للحظة أن لدي مشاعر لكن سرعان ما تحولتُ إلى شيء لا أفهمه، تجمدتُ والنساء يثرثرن من حولي.

– بالأمس كان الباص ممتلئاً إلا المقعد الأمامي وآخر بالخلف، لكنها جلست بجوار السائق بلا حياء أو شرف.

– كيف دخل وسرق الصور عن هاتفها، تلك حجج ملفقة بالتأكيد هي من دعته وسلمته كل شيء.

– نساء يخرجن عاريات ويتهمن الرجال بالتحرش، مجتمع ساقطات.

– يعود إلى المنزل لا يجد طعاما أو اهتماماً، تغضب لأنه تزوج بغيرها، وإن كانت تعمل خارج المنزل عليها فور عودتها الاهتمام بزوجها ومتطلباته، لماذا تزوجها إذن؟

أشعر بغثيان ذلك الخمر الذي لم أشربه، الرجل الذي يحمل المسبحة، يتحدث في الدين مسترسلاً وكأنه يجلس في عقل من يشاطره المقعد ملقنا. أعرفه تماما، ذات منتصف ليل، طلب مضاجعتي إلكترونيا ككل هؤلاء المجرمين في حقنا، وقد عوقب ليلتها بحظر قاس يليق به.

تحول المشهد إلى هستيريا دوغمائية بشعة، لكن ثمة من هم أنقياء أعرف ذلك. مصيبتهم الحفظ دون أدنى فكرة كبلوتو المنهك في دوران بلا معنى. يطلب أحدهم من السائق فتح الراديو على خطبة الشيخ.... كما يفعل كل يوم. يخرج صوت الشيخ موجاً ترتفع نبراته بالحرام ومسببات جهنم التي أسقطها على كل شيء

نحياه ونفعله، وإن كان اعتيادياً كتصوير الأوراق الثبوتية. ثم يخفضه ليرسم حياة خالية من الروح ويدعي أنها طريق سالك صوب جنة ما أشك أنه يعرف عنها شيئاً. لَعبَ في الأحكام الدينية بسلاسة كمدافع في أحد فرق إسبانيا لكرة القدم. عبر الحقيقة بمرواغة تحتاج خبيراً وسط قطيع من الحَفظة العمي يؤَمنون وراءه: أحسنت.

تعبث الشمالة بي أكثر تستغل غياب عقلي اللحظي وتسأل، ماذا سيحدث لو وضعتُ بدلاً من هذه الخطبة أغنية «بروحي فتاة بالعفاف تجملت»[٢٦] بصوت أديب الدايخ عند مقطع:

وَلَمَّا طلبَت الْوَصْل منْهَا تَمَنَّعْت
وَقَالَت أَمَّا تَخْشَى وَأَنْت إِمَام
مَقَامَك يَاهَذَا مَقَام مُبَجَّل
وَفِي الْدِّيْن وَالْدُّنْيَا عَلَيْك الْمُعَوَّل
أَتَزْعُم أن الرِّيَق منِّي مُحَلَّل
فَرِيْقَي مُدَام وَالْمُدَام حَرَام.

هل سيرتدون عن دين شيخهم الأول، أم سيزعمون أنها علامات الساعة!

أو أغنية شاكيرا «My Number One» ورفعتُ الصوت حتى يحتل فراغات الباص كاملة، أسيتنفسون الموسيقى ويستسلمون

---

(٢٦) هي قصيدة من شعر الأدب الإسلامي القديم ، غناها الكثير من المطربين والمنشدين .

لحركات الجسد اللا إرادية، ويرقصون بلا وعي أم سيلقونني بحجارة الكلمات ويغلقون الصوت بسرعة تحول بينهم وبين إنسانيتهم وانفعالاتها؟

الهروب للعبث لن يغير من واقع ما ينتظرني، لكنه يُضعف محاولات عقلي في استعادة السيطرة. يغلفُني بفقاعة اللامبالاة ويذيب ذهني الواعي.

جُلَّ ما أشعر به رغبة محترقة لإنهاء كل شيء من نقطة بدايته. المتناقضات كما علَّمتني الحياة، بداية شيء تولدُ من نهاية ما قبله. بأقدام عارية أسير نحو ما لا أعرفه علَّه يُريحني. أنا مرهقة، أحتاج «أماً» وإن كانت وهمية، أختبئ في حضنها، ونهاية لكل هذا الخراب القابع على صدري.

يطوف بي كل ما حدث معي منذ لحظة مغادرتي. هي محاولة ساذجة أخرى من قلبي الذي يرتجف بجنون. يحاول منحي إجابة أو إيقاظ ادرينالين الخوف بعروقي، فأعود لما كنته لضياعي في غابات منفاي بحثاً عن هوية فقدتُ أمل العثور عليها. أنا بلا جدوى مسخ غير منطقي يجب أن ينتهي على يد من أوجده منذ البداية، عائلتي.

توقف الباص، تسير أقدامي متباطئة نحو البيت، والشمس تسير ببطء نحو غروبها، تخشى تفويت مشهد مهم لروح تمشي نحو انعتاقها بخطى مرتابة وخوف بارد. يدي المهزوزة ترسم طَرقات واهنة على قسوة باب بيتنا. أطرق بهدوء وأعيدها إليَّ علَّني أحتاجها فيما سيأتي. ربما تستيقظ شهوة الحياة بي وأدافع عن

رحيلي ببقاء أمام قبضة أبي الغاضبة. ماذا إن فتح الباب وضمني إليه وتحدث عن شوق وخوف أصابا قلبه منذ رحيلي؟

ماذا وإن ابيضت عينا أمي وانحنى ظهر أخي لهفةً؟

لن أغفر فِعلتي، أشعر بشوق لهم وأحتاج التدثر بأحضانهم لأخبرهم كم أشعر بالخوف مني وبالبرد. كم أحتاج مساعدتهم لأفهم ذاتاً استعمرتني واستعمرتها حتى ضللتُ. هم لم يعانقوني يوماً لكنني بعناق هذه اللحظة سأغفر خطاياهم كلها، وأكتفي، لقد تعبت.

خطوات أمي تقترب من الباب ثقيلة بطيئة كما اعتدتها. جسدي يرتعد وروحي أيضاً. فُتح الباب ببطء، أطلت برأسها ونَظَرتْ إليَّ بدهشة الصدمة، ثم أعقبتها نظرة حادة ارتجف لها جسدي كله، دفعتني للخارج بكلتي يديها قائلة:

– ما الذي أعادك؟ اذهبي، لقد أقسم أخاك على قتلك، يكفينا ما بَليتنا به، أتريدين أَن تُقتلي ويُسجن! اذهبي وانسي هذا البيت.

لمحت تلألؤ دمع في عينيها وهي تغلق الباب بكل قسوة.

أهي دموع شوق أم هو وهم أحاول فيه تضميد جرح صنعَته من ظننت فيها دواء كل جرح!

وقفتُ مذهولة بلا حراك زائغة العيون، ضالة أتمتم أهذا كل شيء؟

سمعتُ صوت والدي من الخلف يتلفظ بكلمات مبهمة، رصاصات يطلقها على جدران غيابي، أيقظت بساقيَّ نشوة الهرب. سلمتُ وزني لسَاعِدَّي الريح وركضت بلا وعي. لا أدري كيف

عُدت إلى المحطة مجدداً. كنت ممسوسة بخوفي ولايزال عقلي يعاني بعض آثار تبلده. حلت عتمة الليل على كل ما حولي. لماذا عُدت ثم عَدلت عن العودة في أول هجمة؟

ركبتُ الباص وجلستُ أنتظر، أتلفتُ حولي خشية أن أجد الموت النائم في كف أخي وصوت والدي يتربصان بي. كيف للحياة أن تخذلني بكل هذا الهدوء والرتابة؟

ذهبتُ إلى بيتنا للعثور عليَّ أو لفقدي إلى الأبد، لكنني بدلا من ذلك غرقت أكثر في متاهتي ولم يعد الخلاص ممكنا.

***

جلستْ الروح على حافة الأوراق منشغلة بتأمل وجه الطبيب يتصبب عرقاً، تخطف النظر لأوراقها وله. الحياة أعقد من فهم دوافعها أو احتواء دهائها. لِمَ أوقَعتني بفك النهاية، جعلتني أكتبُ سطور وجعي الأزلي ونهايتي بخط يدي؟

أكان هذا هو السؤال الأصح أيتها الحياة، أتصادرين حق زوارك في طرح الأسئلة؟ كيف لكِ أن تحملي كل هذه الدمامة واللؤم؟

***

فتحتُ شاشتي الزرقاء واسترسلت في كتاباتي هرباً من سياط أسئلتي وقرصات قلبي.

«غريبة كحبة قمح
حملتها أظافر طير لأودية نار
احترقتْ

لم تصر خبزا
لم تطعم جوعى»

«عالقة أقشِر الملح عن أمنياتي..
أغني بلا صوت
أخشى ضجيج الوجع في قلبي
أعبر صورتي
لا أرى إلا سواد الصمت»
«في الحلم ترتدي الأشياء ألوانها السبعة
كلما اقتربت من واقعيتها عادت لصورتها الأولى... رمادية
/رماد»

أيام من المتابعة لهذا الأزرق السري، علاقات تبدأ وأخرى تموت. علاقة عابسة وأخرى صادقة. ترهات، خيانات، انفصالات، خيبات وأوجاع ترمي بثقلها على جوانب هذا العالم البائس. لعنه المجتمع إذ جردَه من الأهلية والحقوق، كمن رفع العصب عن ضرسه وتركه هشا تكسره القضمة تلو الأخرى. «لم أكن كذلك»، ما الذي يحدث لي؟

«لم أكن كذلك» ردَّدْتها كثيراً، نعم لست ولم أكن. لِمَ لا أفرح بتلك النتيجة بعد كل هذا الوجع غير المبرر؟ ألم أنته من كل ما كنته على عتبة آخر أوجاعي تلك حين فشلت في إقامة علاقة جسدية مع فتاة الفيسبوك؟

ما شأني بكل ما ظننته ومن نبذوني وقد برِئت. فرص كثيرة

تدور في فلك الطرقات تنتظرني، لن يكرهني أو يخافني ويلعنني أحد بعد اليوم. يمكنني الإكمال في درب الحياة ككل هؤلاء البشر، ملونة زاهية مشعة، أنتظر غدا يحمل لي كل ما تحلُمه فتيات عالمنا هذا.

– لنحتفل إذن.

– وماذا عن تلك المشاعر..

– اصمتا كلاكما أريد النوم.

– ما المميز في هذا الكون يدعونا لنتشبه به، أفيقي أنت لست منهم.

– ولستُ من هناك أيضاً.

– اصمتوا جميعاً.

– دعيهم، الأسرار، أحب الأسرار وأصوات صراخهم، البدلة البيضاء والزغاريد، بنطاله المنتفخ، أنفاس اقترابه، الصراخ تلك القرون والأنياب، البياض الممزق، صراخ وخوف ينتفضان في الحنجرة.

– لالالا اصمتي لا أريد تذكر ذلك. لماذا لا أذكر رحم أمي الدافئ، حرروا تلك الذاكرة أشعر بالبرد. كفاااااا

أصوات الغرباء في رأسي، أكتب بصعوبة، بالكاد أتنفس، اخرجوا من هنا، لا أريد تلك الذاكرة. ترى إن أفرغتها في الأوراق ستنضب وتموت مثل صبارة اقتلع جذرها؟ الشوك لا يموت، لِمَ أنجبتني يا أماه لتلقيني في اليم؟

لماذا ألقيتَ نطفتك للوجود بشراً يا أبتي لتلعنني !

لا أريدكـمـا، أنا حـرة تمامـاً، حـرة من هواجـسي من أفكاري ومنكم. لماذا لا أحـتـفل، أنا فـتـاة عـادية ولم يكن مـا سـبق سـوى ظنون لا أرض لها ولا سماء. لقد حصدتُ حقيقتي في أول علاقة مكتملة كانت وهماً، مجرد وهم. لكنني لستُ سعيدة رغم تحرري من لعنتي. أريد أن أكـون حـرة طليـقـة كـهـؤلاء السـائرين تحت الشـمس تعـانقـهـم أديانهم ومعـتـقداتهم بالحب. أرواحـهم تمنحـهم رضاً وسكينة يواجهون بها قسوة الحياة وغدرها.

سـأعـود إلى حـيـاتي الاعـتـيـادية، إلى معـهـدي، للبـحث عن الأمل والغـد. لابد أن تصـفـحي عن نفسك يا نور. تُقري براءتها وتهبيها سلاما لا أحق منها بذلك بعد كل ما عانيتُه من خراب.

التـزمتُ بالمعـهـد، أُفرغ شُـحنات أسـئلتي وكـهـرباء الـريبـة في حقـول الكتب، أقـفـز بين المواد بسـرعـة تقربُني من التخـرج. كنت بحاجة للهرب من هواجس الذات، من نقود توشك على الانتهاء. في بلاد لا يجـد الخـريج فـيـهـا قـوت يومـه، هل سـتـتـرك المؤسـسـة الفاسدة مكانا لمن لم يحمل شهادة بعد؟

وقتُ غـائم مسموم يُفقد المعاني السامية بريقها. لم يعد هناك مكان لحملةِ الشهادات ولا للجاهلين بل أصحاب المعارف، نصابي المجتمع، دعينَي أُسميهم كذلك. يدَّعون معرفة كاملة وفي الحقيقة لا يملكون سـوى بادئة لكل حكاية يسـردونهـا بثـقـة تمنحـهم ثوب دهشـة، كـسـاحـر يخـفي العـملة بين أصـابعـه ويدَّعي خلقـهـا من جـديد. تُصـفق لـه الأيدي وتَسـجـد لـه العـقـول إيماناً. لا مكان للحـقـيـقـيين في هذا العـهـد الزائف، رغم ذلك كـان عليَّ أن أدرس

وأراهن بـ واحد في المئة أن شيئاً ما سيحدث وأجد عملا أشكل به بداية مختلفة لحياتي، بعد انجلاء لعنة سوء الفهم تلك. تجنبتُ محاورة نفسي وأصواتها قدر المستطاع، تجاهلت جسدي بل حمّلتَه من العناء ما يُفقده التفكير أو المطالبة بحقوقه، شغلته عن نفسه بي. استعمرته وفرضتُ عليه ضرائب تنهكه فلا يمتلك برهة يفكر بها في حاجته. بقدر ما خشيته بقدر ما أنهكته، أغلقت بوابة الروح المخيفة. عدلتُ عن رحلتي بي فلأكن أحد هؤلاء المارة في مدار التكرار الإنساني، أحمل أسماءهم، صفاتهم، هباتهم ولعناتهم. لنتشارك معا أوجاعنا المقدسة، نسبح في مياه الحياة السوداء، نُغرق بعضنا بعضاً.

سناء، علا، ريم، خالد، محمد، لينا، ليلى، محمود، سها، هل تحتاجين معرفتهم؟ أيجب عليَّ ذكرهم في كتابتي إليكِ؟

على أية حال هم زملائي في التخصص. سأخبرك سراً، أعرف أنك تحبين الأسرار. هناك قصة حب دافئة تنمو بين «عُلا» ومحمود، أشعر بذلك. هالةٌ تحيط بهما كلما وقفنا معا كأن لهما لغة ترسل مشاعرهما أضواء وأبواقاً عشوائية تنطلق وترتد عبرهما، دون تعقيب من الواقفين المسترسلين بأحاديث الطلاب الاعتيادية في نقد الأساتذة والمنهاج، وصولا إلى المنظومة التعليمية بأكملها. «عُلا» فتاة مميزة بضحكة تفوح بالبنفسج وزهر البرتقال تجذب محدثها. هي أول من تعرفتُ عليه من فتيات المعهد. جمعَتنا إحدى المواد، كنا الفتاتين الوحيدتين وسط مجموعة من الذكور. تسابق الجميع للحديث معها، فعلت ذلك أيضاً. اقترب «محمود»

منها وكانت محاولاته هي الأنجح؛ إذ لاقت استحسان «علا» واهتمامها. نبتَ بداخلي كره غير مبرر «لمحمود». اصطدمت به أكثر من مرة على مرأى الجميع وبادلته عداءغير مبرر. لا أعرف ما الذي أصابني، إنه نذير شؤم، جعلني أرتطم بحائط بنيته بيني وبين هواجس شيطانية نبتت في داخلي. هكذا نعتُها وبنيت حولها أسوارا ضخمة تحول بينها وبين الخروج للنور ولي. لم يتبقَ بي طاقة للمواجهة بت أتجنب كليهما. انسحبت من التجمعات رُويداً رُويداً في غياب غير ملحوظ لـ كائن لم يسترع وجوده أو غيابه أحد. ربما هو إعلان عن فشلي في التواصل مع الآخرين وعدم قدرتي على توصيل أفكاري، أنا لا أصلح للحياة المجتمعية ولا أجيد الناس.

استنزِفتُ في أكثر من مؤسسة كمتطوعة بعد الدوام، طمعاً في نقود بالكاد تُغطي مصاريف التنقل، وشيء من طعام قليل لكائن زهد بكل شيء إلا الهرب. هرب من الأهل، المجتمع، الأسئلة، ذاته، خوفا من قدرٍ لا مفر منه قد يحمل في عباءته درب النهاية.

إنسان أفزعته كوامنه، غاباتُ وأحراش الذات بطرقها الضحلة والقاسية، أزهارها السوداء وأغوارها الشاحبة. غيومها الذابلة التي لا تمطر، أرضها الصلبة حيث لا زرع يغويها ولا ماء يبلل شفاهها الدميمة.

بماذا تحلمون أيها البشر؟ ما الذي يخيفكم أو يسعدكم؟ ما هي أشد كوابيسكم؟ أتشبهونني بشيء؟

تعود الأسئلة في حلة بشر. لن أسأل مجددا، سأمضي فقط في مسيرة حياة كُتبت لنسير فيها على رصيف الصمت بلا

توجس. عبثاً نُخيَّر بينما تفرض الظروف المحيطة علينا القرار وتترك لنا ترف الظن بأننا أسياد مصيرنا المكتوب مسبقا.

لجأت كثيراً إلى الله تقربا في صلاة لا أضيعها. بكل حرص أؤدي مناسكها. بيضاء بلا خطيئة مستحدثة، أقف بين يديه، أستحضره لكن وجعاً يختبئ في روحي، وجع بلا تبرير أجهله عن قصد، تنهمر دموع ما عدت أحبسها.

الكوابيس والأحلام دكت عزلتي وأوجعتني. نار الرغبة تتقد من جديد، كيف أطعمكِ أيتها الحمقاء بلا معرفة؟

رغبتي كائن مريخي يتضور جوعا، قدمتُ له مائدة ممتلئة بأذواق البشر، فلم يصطفِ شيئاً ولم يكفّ عن الصراخ وركلي أيضاً.

– ماذا وإن كان العيب في فتاة النت وكنتِ..

– أرجوكِ لا أريد عبور هذا الدغل المتشابك المعتم مجدداً.

– التجربة هي البوصلة والبرهان.

– أتعتقدين أنه من السهل العثور على «أنتِ»، إنهم موجودون كعرق أو قبيلة أضاع بعضها بعضاً داخل متاهة ضبابية. كُل واحد يخاف إطلاق صوته أو مناداة البقية، خشية أن يلتقط الوحش مكانه ويَصِلَهُ قبلهم. في رحلة بحث صامتة متعثرة كيف اللقاء؟

– ما الذي تورطين نفسك به يا صغيرتي، علاقات.. علاقات.

– إنني أجمع وجهي من أرواحهن، أنا بلا وجه، لم يكن الجنس بل هو ضياع ملامحي.

– أتظنين هذا العبث سيحملك لشيء!

كفى، أصوات رأسي تراودني عن قراري لكنني لن أبيح لهم الحديث، أو السير على محك المتاهات مجدداً رغم صراخهم بي. لجأت إلى الكتابة، عادة علمتني إياها العزلة، فتحت شاشتي وكتبت:

«ضجر الرغبة يتلبسني
أرتعد كورقة
اعترت كف الهواء... حلَّقت
مسلوبة
اعتقلتها الرياح
وأنا بلا مطر
أقلِّب شهوة الكلمات»

كدتُ أطفئ جهازي لولا أن استرعى انتباهي ردود مُطَمْئِنة كـ يدٍ عانقت كلماتي لفتاة لا أعرفها. لم تترك لعقلي متسعا من بحث فقد دخلت على الخاص وحدثتني:

– أشعر بما بكِ هوني عليكِ.

– أنفاسي تخنقني.

استرسلنا في حديث طويل ووعدتني بصداقة، أحببت عقلها وتناولها البسيط للأمور. تواصلنا مدة شهر كما ينبغي للأصدقاء. كانت تحاول ترميم أوجاعي. حدثتها عن لقائي بفتاة الفيسبوك التي لم تعد «أنتِ»، لم أُخبرها بوساوسي حول هوية جسدي. شق عليَّ الأمر، أنا لا أعرف هويتي. يا لها من جملة حمقاء لا تصلح للسرد بل هي فضيحة وجبت مواراتها. لم أخبرها أيضاً عن آخر

استنتاجاتي خشية فقدان حضن صداقتها. اكتفيت بسرد وجع الشوق وقهر الانفصال عن علاقتي الأخيرة، وعن صدمتي بعائلتي. قليلا ما كانت تحدثني عن نفسها كملاك تسمعني أثرثر، تُضمد حروفي.

***

توقف الوقت كأنه عربة انفجر إطارها في الصحراء، لا أملك إلا انتظار القادم. لا زال هذا الأحمق يزمجر، صوته يطن في رأسي الشفيف. كيف أصرفه؟ أنتَ استمع إليَّ جيداً لن أسمح لك بتعكير استراحتي المؤقتة أريد لقاء الموت بسلام. اذهب من هنا لقد انتهيت منكَ، لماذا تسكنني بعد كل هذا؟ فيم هذا الإصرار يا صاحب الأيام الثلاثة؟

أخررررررررج.

فجأة تصاعد الدخان، أيحرق الروح الغضب؟ الدخان يشدُ بعضه يمتزج، يتخذ شكل حذاء أنثوي عالٍ. سندريلا، إنها أنتِ، ذاكرتكِ تستوطنني، أينك؟

أترفضين التشكل بصورتك، تتحاشين لمسي لمرة واحدة أخيرة. القسوة الحلوة إحدى سمات خلق الأنثى، ربما مسح الزمن ما تبقى من ملامحكِ بي، واكتفى بالأثر.

تبا للطبيب أخرج أرواحي كلها إلى الوجود، الحروف تهبني للوجع يا «صفاء»، الأرواح تتألم أيضاً.

***

ما الذي يحتاجه المرء وسط وحدة تلفه برداء مخملي غليظ يحجبه عن العالم سوى صديقة تفهمه. أخرج من إدمان إلى آخر، من سؤال لبئر لا قرار لها، لمعارك طاحنة وأسئلة رمادية تمطر دماء حامضة حارقة.

القدر يُعيد حياكة الحكاية بما يليقُ بحبكَتِه، يرسلُ خيطان صدَفِهِ الحلزونية على شكلها الإنساني، لغة مشفرة لا نملك معاجمها. نستجيب فقط كمريونت تُحركها خيطان القادم، الأعياد المسيحية والعطل، صُدف مرتبة بشكل أنيق لا لَغو فيه. أخبرَتني أنها ستأتي مع أصدقائها في رحلة لعدة أيام إلى منطقتي. فرحتُ كثيرا بفكرة الحديث المباشر معها، فرحة لا تحمل أدنى تعقل. العقل لا يخضع لإرادتنا، أزرار تشغيله أبعد من أصابع أرواحنا، تسكن تلك الصُدَف. الدهشة تُفقد العقل اتزانه، والعقل جبان يهرب للنوم من معاركه الخاسرة، أما الدهشة فهي ابنة الصُدَفِ القدرية المدللة. الثرثرة تلجم قلباً يخشى القادم وينتظره.

لم تكن مجرد صديقة بل عائلتي الوحيدة وسط غياب البشر عن كوني الباهت، لسبب ما هجرت الناس شوارعي، تركوا روحي جافة باردة بلا أحداث. تواعدنا لشُرب القهوة في أحد الأماكن التي اختارتها بنفسها، كانت تعرف أكثر مني بخريطة هذه المتاهة التي أقطنها.

وقعت عليها عيني للوهلة الأولى تسمرت كلتانا، لا أجد كلاما يصف ما شعرتُ به، شيء في داخلي تحرك، ظننت الوجع

أباده. صافحتني بعيون تبرق وتُخبر عن أشياء خشي اللسان تحريرها. نحن أصدقاء فقط، هل كنا كذلك في تلك اللحظة؟ لا أعرف ما الذي كناه، إذ علينا أن نملك تصنيفا ونعتا لكل شيء. التصنيفات مجدداً، لعنتي الأبدية. جلسنا لشرب القهوة، انساب الحديث بيننا كعادته إلى أن بدأت تحكي قصتها للمرة الأولى:

– أتصدقين لا أعرف إن كنتُ ما أظنه أم لا، لكن ما أعرفه تماماً كُرهي لزوجي، وكما تعرفين الطلاق محرم في ديننا «وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فاقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلّة الزنى يجعلها تزني ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني»[٢٧] علاوة على تحريم جرم الزنا شعرتُ أن النساء هي ملاذى وحِلى. آخر ارتباط لي كان منذ خمسة أعوام بفتاة تفوق الرجال قوة ودفئاً، تعرفُ مداخلي، تُجيد التعامل مع رُوحي وجَسدي بمهارة لكن الحياة فرقت بيننا. ما زلت أبحث عن فتاة أخرى تشاركني الحزن والفرح، تعانقني كلما احتجت بلا طلب، تقف معي في نوائب الحياة كقطعة مني.

ضحكتُ وأجبتها مازحةً:

– ربما أصلح.

ضحكنا ضحك من يُدرك حقيقة ويختبئ منها، غادَرَتْ المكان لكنها أيقظت بداخلي مشاعر عدة، أهذا أنا؟

ثقب السواد يتفتح في داخلي، يشدني لأغواره. الثقب

---

(٢٧) (إنجيل متى الإصحاح الخامس الآية رقم ٣١-٣٢).

الفلكي الأسود[٢٨] حَيَّر العلماء كثيراً، أوقف أكبر نظريتين فيزيائيتين غيرتا العالم أمام بعضهما البعض. ألا يحيرني؟

خمسة أيام مرت، لا رسالة منها تشق صدر الصمت ولا رنة توقظ الحياة فيَّ. ما الخطأ في مقابلتنا تلك، ربما انشغالها أو..

– كُفي عن خلق الأعذار، أنتِ تعرفين السبب تماماً، كم أنت مشوهة.

– اصمتي لا شأن لكِ.

– أنتِ بشعة ربما لم تنالي إعجابها.

– ما الذي تقولينه أنا لم أطمح في.

– كاذبة تملؤك الرغبة بها أشم ذلك بوضوح.

– إنها جميلة جداً كقطفة تفاح طازجة.

– أنا خائفة.

– اخرسوا جميعاً.

كيف أغلقُ كل تلك الأفواه في رأسي، جميعهم يصرخون معا بأصوات عدة. يتراقصون في داخلي، يعبثون بي، يتلفونني، زومبي يأكلونني من الداخل، يتغذون على عقلي، لا ملاذ من أنيابهم

---

(٢٨) الثقب الأسود هو منطقة في الفضاء ذات كثافة مهولة (أي تحوي كتلة بالغة الكبر بالنسبة لحجمها) تفوق غالباً مليون كتلة شمسية ، وتصل الجاذبية فيها إلى مقدار لا يستطيع الضوء الإفلات منها ، ولهذا تسمى ثقبا أسود ، يتكون الثقب الأسود بتجمع مادة كثيرة تنضغط تحت تأثير جاذبيتها الخاصة ، وتلتهم معظم ما حولها من مادة حتى تصل إلى حالة ثقب أسود ، وكل هذا يحدث فيها بفعل الجاذبية .

وصدى صوتهم الدميم في دمي سوى المعهد، فقط المعهد.

أروقة مزدحمة بصخب الأحلام، الهواجس والثرثرة، الكثير من الثرثرة. أتابع بإرهاق لا منته بلا اكتراث بالعابرين. مُحاولةً الهرب من الزومبي خاصتي لزومبي العالم الدميم. الأصوات تتداخل، همس، صراخ، كلمات، نظرات، خطوات، شوارع، جدران. يتصاعد كل شيء نحو قمم تُفقدني صوابي. إنني أذوب وأختنق، جنون في الخارج كما في الداخل. صفير ومشاحنات، أقدامي تسير بلا تحكم مني. من حسن الحظ أن لكل عضو ذاكرته التي يحفظها وتحفظه وإلا تهت وسط بقع التشوه التي تشل عقلي وتشرذمه.

– نور

صوتُ واضح شق الصخب. بثبات لا أملكه استدرت صوب صاحبة الصوت، استدرت بكامل مجساتي، إنها «مها» صديقة الطفولة، صاحبة نظرية «تمايلي أيتها الحمقاء كي لا يميل بختك»، لم أَرتبْ أو أهرول هاربة، لأنها لا تشكل خطرا على هربي. لقد غادرتْ منطقتنا منذ زمن ولم تعلم شيئا مما أصابني.

– أتدرسين هنا؟

– نعم وأبحث عن عمل أقتات منه.

– والعائلة؟

– شأن لا أود التحدث عنه.

هذا كل ما أذكره من تلك المحادثة لأن عقلي رفض تذكر البقية، ساءني جداً معرفتها بأناي دون حاجتي للشرح. مضحك

جداً كيف يستطيع الغرباء رؤيتكَ بشكل أوضح منكَ؟

أتعلمين أن المرآة ترانا قبل أن نرى أنفسنا، تسبقنا بخطوة ومن ثم تعكس لنا فقط ما نود رؤيته. يختاره لاوعينا بعناية ذلك الجزء من الحقيقة ويهمل الأجزاء التي يصعب عليه التعامل معها.

عُدتُ إلى البيت لأجد رسالة من صديقة الإنترنت، مجرد تحية لا تحمل أي تفسير، تبادلنا الرسائل كما اعتدنا وعلمت أنها لم تغادر المنطقة بعد.

مرت عشرة أيام لم نتوقف عن التواصل الأزرق، وعند التطرق إلى فكرة اللقاء تتذرع بألف عذر لتتجنب لقائي، لم أتوقف يوماً عن الإلحاح حتى وافقت.

لا شيء يشغل ذهني، لم أرسم شكلا لتلك المقابلة، سِرت مدفوعة فقط برغبة في لقائها. أَطلتْ في انبعاثها الملائكي، وهج يُسكر العين، يزيدُ عتامة عدستها الشفافة، يفُقدها التمييز، تتداخل الألوان والصور. تعبرني بقعة وهج دافئة لا أرى فيها أي ملمح أستطيع تحميله صفات بشرية.

جلسنا في أحد المقاهي، استرسلت في حديثها واسترسلت في انبهاري. أطالعها مشدوهةً ولا أسمع سوى رنين صوتها يعانق روحي بكلمات مبهمة.

- هل تسمعينني؟

أومأتُ برأسي موافقة. مددت يدي ولمستُ خضرة صليبها الذي كان على غير العادة موشوما بالقرب من مرفقها بدلا من الرسغ.

– لماذا رسمتِه هنا؟

– هي رغبة والدي.

لَمسُ ذِراعها جعل شرارة لهبٍ تمر إليَّ تلفحني. نفضتُ يدي مبتعدة لكنها أمسكتهما وقالت:

– لم يداكِ باردتان بكل هذا القدر؟

لُذتُ بالصمت لأنني لم أنتبه لهما.

– هذا المكان يُذكرني بفتاة تعرفتُ عليها منذ عدة سنوات والتقينا لمرة واحدة. يومها أخبرتني بأنها سوف تتجه إلى حمام المطعم وعليَّ اللحاق بها. لا أعرف ما الذي أصابني فتبعتُها بالفعل، لا أعرف كيف مارست الحب معي بكل هذه السرعة والدقة و...

أكانت دعوة خفية منها للحب، شعرت بحالة من البله أفقدتني القدرة على الرؤية أو التمييز وقراءة السطور وما دونها. مصلوبة على أخشاب حب لا أعرف متى بدأ ولا أية نهاية ستكتب له، حب نفضني نبت سريعاً كحبوب الفاصولياء في حكايات الأطفال.

– أنتِ لستِ بخير اليوم دعينا نرحل.

لم أُجبِ بكلمة غادرنا، بلا تفكير قلتُ.

– ألتقيكِ للمرة الثانية وأُخفق من جديد في تقبيل هذه الشامة التي تتوج شفاهك.

ضحكتِ بأنوثة رقيقة وخجل.

– أعدكِ أن أقبل وجنتيك في نهاية الطريق.

– أشعر بالجوع لم أتناول شيئاً منذ الأمس، دعينا نأكل وجبة سريعة في هذا المطعم.

وافقت لم يكن جوعا بل محاولة لإطالة لقائنا. جلسنا متجاورتين على الطاولة والطعام أمامنا، دق هاتفها أجابت وجلستُ أتأملها مذهولة بسحرها، ودون إنذار خفضتُ رأسي صوب يدها وقبلتها. صُدِمَتْ وتلعثمتْ كلماتها، اعتذرتْ للمتصل وأغلقتْ الهاتف.

– أمجنونة أنتِ، المطعم يضج بكاميرات المراقبة، ألستِ جائعة؟

– شبعتُ دعينا نرحل.

أجبتُ وكل ما بي ينتفض. سرنا بهدوء إلى الحمام، أصلحتْ مكياجها واتزانها عبثاً. غسلتُ يدي، كادت أن تخرج حين ناديتها نداء تلقائيا خرج تحت وطأة اللهفة.

– وَعدْتني بقبلة.

اقتربتْ وقبلتْ خدِّي محاولةً إنهاء هذه الوقفة، شعرتُ بارتجافها الخفي، مددت يدي واستوقفتها.

– أتسمينها قبلة.

ما الذي أصابني كي أقتربُ منها وأنهالُ على شفاهها بقبلٍ مجنونة طويلةٍ جائعة جعلتها تدوخ وتكاد تسقط. حاولت إسنادها على الحائط. تمتمت:

– نحن منهكتان أرجوكِ لا تفعلي ذلك.

قالتها بصوت ذائب رقيق أيقظ كل شبق رجولي بي، عُدتُ

أقبلها بجنون أكبر، تمتمت شفاهها كلمات مشتتة.

– الناس.. سيروننا.

دفعتُها داخل أحد الحمامات ثم أغلقتُ الباب وكأنني بهذا أيقظت عشقاً أخفيناه حتى نفد صبره. تبادلنا الحب بجنون، لا أعرف كيف تجرَدنا من ملابسنا ووعينا. وقع الحب بأجمل حالاته، ألقت بنفسها على صدري بعد أن لَمستْ رعشة الجسد أعمق نقطة في روحها. ضممتُها بقوة هزت دواخلنا، فَتتَ وَحدَتنا، أعاد تجميعنا كائناً واحداً مكتملا. هدأت أنفاسنا فطلَبتْ مني أن أسبقها بالخروج بعد تأكدها أن الحمام فارغ. غسلتُ يدي ثم لحَقَتْني وتعلَّقتْ بذراعي كأنني أصبحت لها كل شيء، خجلٌ غشي عينيها فهربتا بعيداً عن عيني التي ملأهما حب مجنون، حب أعاد لي هويتي، أعادني إليَّ.

– انظري إليَّ، لا تهربي، أُحبكِ.

– أنا مرتبكة قليلا.

طلبتُ منها زيارة الكنيسة، دخلنا معا، أشعلت كل منا شمعة، تمنيتها، ثم غادرنا. ركبتْ السيارة وابتعدت لكن عيونها بقيت تلاحقني حتى ذابت في الطريق. عدتُ إلى البيت مشدوهة بكل ما حدث. أعرف أنني أحببتها منذ البداية وحاولتُ جاهدة لكن الحب نفضني وخرج بلا تخطيط. وصلتني رسالة منها تطلب مني زيارة غرفتها لاحقا، ترددتُ قليلاً، في تلك اللحظة لم أرغب بتطوير علاقتي الجسدية بها بل علاقتنا الروحية، لكنني لم أعلن ذلك واكتفيت بالقول:

– حسنا اتركيها للظروف.

وفي اليوم التالي راسلَتْني مجدداً، كتبتْ لي أسوأ ما يمكن تلقيه.

– سأغادر البلد وحياتك أيضاً.

– لِمَ؟

– لقد أخبرتك سابقا أنني لا أقيم علاقات حب افتراضية، أحتاج حبيبة تكون معي تضمني حين أتألم، تقف معي في السراء والضراء لا مجرد جمل وصور. ماذا لو التقيت بفتاة مناسبة تقطن بالقرب مني وكنتُ مرتبطة بعهدك، أنا لا أخون لذلك لا أمل في مثل علاقتنا، وأنت أيضا ابحثي بالقرب منك. صدقيني لقد وجدت فيكِ كل ما حلمت به لكن...

كتبتُ رداً ومسحت وكتبتُ ولم أكد أمسح وإذا بها قد حظرتني، فقدتُ صوابي، مرتْ أيام وأنا أبحث عنها بلا جدوى. أنا أيضا وجدتُ فيها كل ما حلمتُ به وشعرتُ معها بكل ما وددته، كيف يجد المرء ضالته ويضيعها؟ رحلتْ بقسوة رغم كل الحب الذي اندفع منها صوبي. قاومتْ كل شيء ورحلتْ حتى دون أن تقول لي مرة واحدة «أحبك» وددتُ أن أسميها أنتِ، لكنها أبت إلا الخروج القاسي من حياتي. اكتشاف جديد، أقوى أنواع الحب ينهار تحت المؤثرات الجغرافية أيضا. تداعيات الاختلاف تتجلى بقسوة وجرأة. اختيار الشريك في حالتنا يخضع لكثير من الشروط التي تسبق الحب، رغم رغبتنا في جعل الحب يسبق كل شيء. عليكِ أن تمري بقائمة طويلة من الشروط:

* أن تكون مثلكِ تميل إلى جنسها، لكن كيف تعرفين ذلك؟توفر هذا الشرط يخضع للمصادفة فقط.
* أن تكون من البلد والمدينة ذاتها وإلا كتب على علاقتكما أن تكون وهمية عبر الأجهزة والكاميرات الحمقاء. علاقة باردة لا روح فيها.
* أن تملك ظروفا وحالة اجتماعية تشبهكِ.
* أن يكون فكرها وشكلها مقبولين بالنسبة لك ولمعاييرك بحيث تستطيعين معاشرتها.
* أن يكون سنها مناسبة.

ربما بعد كل هذا نستطيع إدراج بند الحب وذلك ليس تقليلا من شأنه، بل كون توفره دون توفر تلك المعايير سيوقفكِ على عتبتي هذه، تلفظين حبكِ وروحكِ معا. أتعرفين أن كل حب يرحل يقتطع جزءا من روحك معه. هذا الاقتطاع المتواصل يقضي على ما تبقى من روح. يُحيلنا أجساداً باردة تتعفن دون أن تشعر ويأكلها دود الحياة تدريجياً، تصير مومياء تطوف حول انهيارها تنتظر رقادها الأخير دون حياة.

كتبت على صفحة الفيسبوك خاصتي:

«كيف أرمم جروح قلبي؟

أنا هنا

أنتِ هنا

لكنَ بيننا ألف غياب

وألف لهفة معلقة»

«أنا مرآة
والظل يفضح المشعوذ..
أنا انعكاس بصيرة
غلفها ثوب الصدمة
تذوقتكِ
قرأتُ سَم أضلعك
ومت بالمعرفة»
«لن أؤمن بوعود الشمع بعد اليوم»

لا أعرف لِمَ كتبت ذلك، أهو استجداء لها بالعودة وثقة أنها رغم الرحيل ما تزال حولي. أم أنني أتخلص من أثرها، أفرغه على شاكلة حروف. لم يكن الأمر سيئاً تماماً، فما حدث بيننا كَتبَ بخط عريض حقيقة ميولي التي تنكرت لتصديقها. لم أعد أملك حق الإنكار بعد أن حوصرت بدليل إثباته. في تلك اللحظة عقدتُ سلاماً مؤقتا مع أسئلتي وشكي، هكذا نفعل حينما نُهزم، وحده المهزوم يلهث خلف اتفاقات السلام ويتناسى أن الانتصار يُنهك المنتصر أيضاً. نهرول بلا تفكير ظنا بأننا نقتنص الفرص وهي مجرد أقدار كتبت لنا عاجلة كانت أم آجلة، آتية على أية حال، ليتنا نوفر اللهاث ونسير هادئين نحوها على الأقل نتذوق بهجات الطريق.

صنعتُ سلاًما مؤقتاً مع الذات لكن العالم لا يزال يُشهر أبشع أسلحة رفضه في وجهي. العالم، وجعي الأكبر، جُب لا قرار له ذو جدران دائرية ملساء. لا تسلق ينزعكَ عن كل هذا العبث، ولا دلو

يقيكَ أنياب الغرق. بدا الغد فارغاً كأناي. لم يكتفِ القدر بسلبي الهوية بل سلبني شغف الغد. لِمَ عليَّ أن أنام وأستيقظ ولا شيء في هذا الكون يعنيني.

استعذت من سوادي، ارتديت ما وجدته من ثياب وانطلقت إلى المعهد، مدعية أنني ما زلت أقطن هذه الدمامة المسماة حياة، هي محاولة هرب جديدة لكن هذه المرة من أنين قلبي البشع وأسئلته، القلب جلاد شأنه شأن العقل رفيقه الأبدي، تحالفا وتناوبا على روحي، أين الملاذ مني ومنكِ؟

فراغ نقي يتكدس في جيوب روحي، أسير بلا وجه، مجردة من كينونتي. جسد فيزيائي يعبر تجمعات وكتلاً بشرية لا يميزها ولا يكترث. أسير بآلية خطوات مكررة روتينية تحكمها تلك القطعة اللزجة «المخيخ»[٢٩] بهدوء تام وملل. بينما يتردد عقلي على نقاط الذاكرة حاملاً حقيبة معداته، يستغل تلك البرهة من اللاتفكير كي يعدل بعض الأنشطة الكهربائية الزائدة ويكنس بعض خلاياه التي أتلفتها الأسئلة، متيحاً لبعض الأكسجين والأمل أن يعبرا، بلا جدوى.

ملابس مزركشة، واسعة، ضيقة، قهقهات، ثرثرة، كثير من الثرثرة، عيون فضولية وأخرى باردة، لا شيء يضيء شبكية

---

(٢٩) المُخَيخ (والتي تعني «الدماغ الصغير») هو القسم الثاني بحجمه بعد المخ الكبير، وهو في جوهره عضو حركي، مسؤول عن تنظيم توتر العضلات، تنسيق الحركات خاصة الحركات الإرادية منها، ومراقبة الوقوف والمشي.

عيني أو يعيد وعيي لتقلد منصبه في القيادة. كلمة جاءت من عمق هذه الفوضى، هزتني بل نفضت كل ثبات عن مفاصلي ووعيي.

– نور

إنها «مها» من جديد، هكذا أذكرها هي ومحاولاتها المضحكة أيام المدرسة. تُمسك بيدي تعلَّمني إخفاء رجولة احترفتني ومن ثم تدمدم ممتعضةً:

– إن لم تُصلحي خطواتك الرجولية لن تتزوجي.

مسكينة «مها» مهووسة بفكرة الزواج تراه ميلاد الحياة وموتها، كذلك أمي.

– تمايلي أيتها الحمقاء أو يميل بختك.

لم تكن تعرف أنني أستيقظ كل يوم أتحسس رجولتي، ذكري الضامر، متوجسة خيراً علَّه ذات يوم يخرج إلى النور ويخبرهم كم كنت صادقةّ في رجولتي، وكم كانوا عمياً في دروب أنوثتي الزائفة. اعتدت أن أكلمه واثقة أنه هنا بداخلي يعيش بحريته بعيداً عن ضوضاء الأسئلة. حراً في انتصابه ونومه. حراً في انكساره أمام امرأة تفوق لذة الروايات حلاوة، عبرَتْه لتوها ولم يعبرها.

–آه يا رَجُلي الصغير ألا تستيقظ؟

تلك الثرثرات طليقة تعبث برأسي في الوقت الذي اعتقل فيه جسدي ومارس عقلي حقه في الإيمان بكل طلاقة وبراءة. ما الذي انتهك إيماني وكبلَّ براءتي؟ أهي رغبتي في الانخراط بكون لعنني

وهوسي بأن أكون أحد تلك التكرارات التي تسير وسط الحشود آمنة؟

تبا للدورة الشهرية التي تصيبني خطأً تُخصي رجولتي، تكبل رَجُلي الصغير، تمنعه من الصعود إلى سطح واقعي المر.

غريب ذلك الشعور الذي أحملهُ لجسدي، متضارب يشبه فكرة ابتلاع القط لأبنائه. لا أحتمل النظر إليه، أختبئ منه أكثر من إخفائي له، تارة أرآه سِجناً اعتلى روحي الحرة، وأخرى أراه شهيا فاتنا لكنني أكره لمسه. لا أمارس العادة السرية رغم اشتعال الغُلمة بي وجوع الطبيعة الغرائزي للارتعاش جسداً وروحا. شعوري تجاه هذا الجسد يشبه شعور الأب تجاه ابنته له حُرمة. في جوف هذا الكم من المتاهات في داخلي، أقف عاجزة أمام جوعه وشرهه وظمئه لأن يقتات مثل الكائنات الأخرى.

أفقتُ على صوت «مها»:

– منذ لقائنا الأخير وأنا أفكر بطلبك.

– أي طلب؟

– العمل، سأرسلك إلى شخص يستطيع مساعدتك.

داهية كانت أم مجرد صديقة تحاول المساعدة، لا أعرف. أرسلتني إلى سيدة أعمال عُرف عنها مساعدة النساء اللواتي يحاولن بناء أنفسهن. سيدة ثرية وطيبة كما وصَفَتْها. لم أكن لأهتم بالأمر لولا حاجتي إلى النقود وقد نفد مخزون مالي وصبري.

***

-أيها الطبيب.

أخرج الصوت الطبيب من أوراقه، لا أحد يعرفه هنا سوى صديقة «نور»، تمالك اندهاشه وأجاب ببطء.

- أتعرفني؟

- بالطبع أخبروني عنك، أنا «أحمد» زوج نور ووالد طفلها.

شرد للحظة ثم تابع حديثه: في حقيقة الأمر حبيبها أيضاً.

الكذبة الثامنة

«ربما لست أحداً
صحيح أن لي جسداً ولا يمكنني الفرار منه
أحب الفرار من رأسي وهذا غير وارد البتة
قد كتب على لوح القدر أن أظل عالقة في هذه الهيئة البشرية
ولذلك ربما أود لفت النظر إلى مشكلتي»
آن سكستون

غريبةٌ وسط ضباب سميك يحتل عقلي، لا أرى أبعد من تلك الظلال التي تحمل أسماء ذاكرتي. يطوفون في أفلاكهم مقيدين بي، ربما أنا من قُيِّدتْ كبهيمة تطهو ضعفها في دورانات لامنتهية لا تفقه لها هدفاً. مجردةٌ مني، حركاتهم المكررة تلك هي الصورة الوحيدة التي حجزتها الذاكرة لهم بي، تُلخصهم وتفسر حضورهم الباهت في عمقي. أُنهكتُ، أما آن لتلك الغيوم أن تمطرني موتاً، سئمتُ الانتظار.

جاء من البعيد الرمادي صرير باب قديم شديد الصخب. أعقبته خطوات ثقيلة لكائن يجر شيئا. حاولتْ الروح أن تشيح

بغصون الضباب عن مساراتها علَّها تستوضح القادم. الصوت يقترب، أزيز خوفها يعلو، يرفرف كطير محاصر في أحلامه. يقترب الصوت أكثر، يحبو ببطىء نحو رهبتها، ثقيلاً، بدأ يتضح، يأخذ شكلا قديما باليا. يفوح منه الموت، دخان يلتف حوله منه/ إليه يتضح أكثر. إنها السيدة تبدو أكبر من عمرها بمئة عام، تجر لوحة متشحة بالضباب. لقد زرتُ قبركِ، أيعبر الموتى أسوار الأرواح!

كيف لمن وصل مشاركة السائرين الجدد انتظار الوصول؟

ملفوفةٌ بقطعة قماش بيضاء رثة، تعبق بغبار القدم والشقوق. وجهها شاحب، تضاعفت تجاعيده ولم تتبقَ خصلة سوداء في انفجارات شعرها الأبيض، أسرعت الروح صوب السيدة وتفاجأت بإشارة يدها توقفها. -عجيب، شعرتُ ببرودة اليد، إنها تمتلك كتلة ليست ككل هؤلاء الظلال، ما الذي يعنيه ذلك؟

حركت السيدة اللوحة للأمام، لوحة تحمل صورتها في عمر الستين. الصورة التي لم تفارق مكتبها يوماً تذكرها الروح جيداً. هي أول ما ترسو عليه أشرعة عيونك حين تدلفُ غرفتها، تجلس بسمو وسط الحائط أعلى المكتب في بروازها الذهبي. ذابت ملامح السيدة عنها وحلت مكانها صور متحركة. تجلس السيدة على مكتبها تمارس أعمالها اليومية، خرج صوت مديرة مكتبها من أحد الأجهزة:

- هناك فتاة تحمل اسم «نور» تدَّعي أن لديها موعدا شخصيا معكِ.

- نور؟

– تقول إنها من طرف «مها»

– دعيها تدخل.

تدخل!

آلاف من الصحفيين والعاطلين والمتشدقين والمتسولين وباعة الحكايا، الكثير يحاولون لقائي يوميا، لماذا قبلتُ لقاءها؟

لا أعرف أية هالة تملك كي تُمسد طريقا سالكاً نحوي، سهماً يعرف طريقه. منذ حدثتني هاتفياً ثمة شيء لسعني، برق ينبىء عن مطر قريب. البعض يرى في المطر خيرا ونماء وآخرون يجدون فيه تعطيلاً لحركة الشوارع والحياة. تُرى أية رؤية للمطر تحملين أيتها الشابة الغريبة؟

أطلتْ من باب غرفتي وكأنها هناك منذ زمن تنتظر أن ينزع الوقت عباءته عنها، تتقدم بخطوات واثقة بنظرة أربكتني.

– هذا أنا... تمتمتْ، حَطَ الصمت على وجهي بكامل أجنحته، من أنتِ؟

تساءل قلبي. أشعر ببريق عيني دون أن أراه، بهوائِها الذي لفح وجهي بعبقِ رائحة قديمة لياسمينة. هي حلم نبت في قلبي ويئستُ من فكرة لمسه واحتوائه بين ضلوعي. حلمتُ بها طيلة أربعين عاماً. كيف عبرتْ أنياب الوقت وشراسة المستحيل لتقفَ أمامي بشراً سوياً له ملمح الحلم وفيزياء الواقع. أي مبسم متشدق تملك الحياة وأي حبر هذا الذي يُدّور الأفلاك جميعاً لتلتقي. ربما أتسرع في نسج رؤياي، قد أحتاج عرافة أو قارئة فنجان حاذقة تعِدُني بحب قادم، طمعا في بضعة نقود وابتسامة.

أنا تلك السيدة الرزينة التي لا تُحرك ساكنا لأهم مديري الشركات وكبار الدولة، وقفت واتجهت نحوكِ معانقة، أدهشتِنيّ بقدر ما أدهشتُ صَمتكِ.

– أبحث عن عمل وأعرف تماما ضعف مؤهلاتي لكنني.

– ستعملين ضمن سكرتاريا مكتبي، الأمر ليس صعباً، تبدين مألوفة لي.

– لا أذكر أننا التقينا لكنني أشعر بألفة.

– حدثيني أكثر عن نفسك.

– لقد درستُ بعض مهام السكرتاريا لكن في الحقيقة هي ليست طموحي. أود العثور على نفسي أجمعها من وجوه المحيطين بي، رغم أن محيطي صحراوي المناخ لا يسكنه أحد. ما الذي أقوله تُرهات لا تليق بمقابلة عمل، أعتذر.

– أرجوكِ تحدثي بما تشعرين.

– أظنكِ تعرفين أنني أقطن هنا وحدي؛ لذا أحببت العمل في مجال إنساني بين الفقراء الذين لدغتهم الحياة. أجد العمل في أسفل هرم المؤسسة التي تملكين هو الأنسب لي.

– حديثك... حديثك يُربكُ شيبي وتجربتي، أشكركِ لقد أعدتِ لي أملاً ظننت بأنني أضعته للأبد.

– أملا؟

– دعكِ من هذا الآن، بالنسبة للعمل تعلمين أن إحدى مؤسساتي تقدم العون للفقراء والمنكوبين، وأكثر ما يخيفني هو ذم العاملين فيها وعدل خيارهم، سأرسلك هناك على أن يكون بيننا

اجتماع مغلق في نهاية كل أسبوع، تحدثينني عما جال بقلبك وعقلك طيلة متابعتك لسير العمل.

– الناس على الضفة الأخرى، حيث لا يسمعهم أحد سوى غصة القهر والظلم المؤسساتي الذي...

نظرتُها، كلماتُها التي تخرج بسلاسة تلمس حشاي وتذيبني في دهشة حلوة الملمس. أريد معرفتها أكثر، فهمها، الغوص فيها. التنهيدة تسلخ نشوة قلبي، لماذا الآن؟ في هذا التوقيت من اللاقلب تحديداً، بعد توقيعي نهاية الشراكة مع علاقتي بالعالم الخارجي بدهور طويلة، بعد اكتفائي بي، تأتي فتاة عشرينية لها هذا العقل وتلك الحكمة لتنتهكَ حرمة إيماني وتهزم يقيني شر هزيمة.

توالت اللقاءات، تحدثنا كثيراً، في كل شيء وأي شيء، قلبي عاد يخفق بعد سنوات من موت مزعوم. لعنَتي أو رؤياي أذكرها، في عمر الرابعة والعشرين، حديث مع زميل رافقني في الجامعة والعمل.

– أحبكِ وأريدكِ زوجة.

– صدقني لا أصلح.

– امرأة لا تصلح !

– سأحدثكَ بما أخفيه في طيات عمقي، أنا مختلفة. لقد حاربتُ هذا وتألمتُ لكنني لا أملكُ خيارا آخر، أميل بالحب صوب النساء عشقاً وشهوةً.

– الأمر ليس طبيعيا لِمَ لا تراجعي طبيبا نفسيا؟

– أتظنني لم أفعل، الأول طبيبة أخبرتني بأنني أعاني من

ضُعف ديني وعليَّ توطيد علاقتي بخالقي. الثاني زَج بي في جلسات كهرباء وأدوية طيلة عام، محصلتها الانحدار نحو هُوة الاكتئاب، السمنة، الكسل والنوم المتواصل، فقدان الوعي والانهيار الجسدي. الثالث أخبرني بأن ذلك ليس مرضاً وعليَّ التعايش معه. الرابعة امتلكت الميل ذاته وحاولت مضاجعتي. الخامس أخبرني بعد جلسات عديدة أنه ابتلاء رباني عليَّ مقاومته بالصبر. السادس حاول تزويجي. أما الأخير الذي وصلت أريكته منهكة تماماً، بعد رحلة طويلة استهلكت عدة سنوات من البحث عن دواء. أذكر كلماته جيداً، عليك التجرد ومساعدتي للوصول إلى قاعك لأصل الأشياء بك، بعيداً عن الغريزة أو ما تحملين من أفكار، تجردي من التوجه الذي يقودك كي تلمسي مشاعرك الحقيقية. دعي لا وعيك يقود ولا تخضعي لما تتبنينه. واستند بذلك إلى حديث فرويد الذي رفض قبول فكرة أن هذا الشذوذ يخلق معنا، بل وتبنى فكرة وقوع حدث ما في مرحلة الطفولة أو النمو قد لا يذكره العقل الواعي لكنه تخزن في اللاوعي، وأثر لاحقاً على سلوك الشخص فأجبته مغادرة:

سيدي الطبيب إننا نولد صفحة بيضاء وما يُحيط بنا من بشر وأحداث يُشكلنا، أليس هذا حديثك؟ لكن سواء وُلدنا بيضا وكَتَب شيء ما هذا الوجع قدرا علينا بأية طريقة كانت، مشهدا تلفزيونيا أو تحرشاً أو.. أو. أي من تلك الخيارات التي لا تنتهي. أم وُلدنا هكذا بسبب خلل جيني أو حادثة ألمت بحمل أمهاتنا. سواء خُلق هذا الميل معنا أو اُكتسِب فالجواب الفيصل لدى الروح، لكن

الروح تُجيد حماية أسرارها ولا تبوح بها لذاتها أيضاً. بقائي هو درب عبث، فالأجوبة مسجونة بي كما سُجنت بها، وكلانا هنا أقصد أنا وأنتَ، عاطلان عن الوصول لا نجد لأجوبتنا سبيلا؛ لذا أستأذنكِ لم يعد لأحد منا حاجة بالاخر، وداعاً. هكذا غادرتُ عيادته وطِب النفس بأكمله.

تقول الأساطير القديمة إننا خلقنا ملتحمين وجاء أحد الآلهة قسم كل مخلوق إلى قسمين كي يقضي عمره في البحث عن شطره الآخر، وكنت أثق تماماً بوجود نصفي الآخر على شاكلة امرأة تُكمل نقائصي، تُحرك حواسي، روحي وغرائزي، تُعيدني إلى الحياة لكنني فقدت الأمل في وجودها وأحلتها طي الوهم والنسيان، لذا أقف أمامكَ بأصابع خاوية، وجسد فارغ من رغباته، لا يحركه أي من موجودات هذا الكون، أنا لا أصلح.

كلمات أسكنتها مقبرة ذاكرتي، غلَّفتها بغبار الزمن وهي، وحدها «نور» بثتْ في أروقة نبضي الحياة.

توالت اللقاءات والأحاديث، فتحتْ قلبها وارتاحت همومها في صدري، نضج وتبلور أنيني العاجز، الشعور الغريب حط في قلبي بعد طول هجرة، كيف نعرف الحب رغم أنها المرة الأولى التي نلعب بها دور الأحياء على هذه الأرض؟ لا حياة أخرى تمنحنا خبرة تمييز المشاعر. نستند إلى مأثور ما قبلنا في وصف كل موجة تلطمُ وجودنا الأثيري والحقيقي أيضاً. إن صدَقتْ وثائقهم لقد غرقتُ حتى أخمص اتزاني في حبها، وتلك كارثة ستودي بكل مجدي إلى هاوية الألسنة وسياط الصحافة والعامة.

في هذه اللحظة يبدو لي أن الحب مبرمج جينياً على تدمير كل متزن وكسر ما هو ثابت. موج فَتي يتحدى السفن في كل خطوة، لا يقبل إلا بموتها، يصنع بجثث السفن فيصلاً بين ما قبلها وما بعدها، فيصلاً بعمر حياة.

استبقاؤها بجواري هو مطلب احتجته لمواصلة التنفس، لكنني لم أجرؤ يوماً على البوح به، رغم اعترافها لي بميولها تجاه النساء منذ لقائنا الثالث. بت أعرفها أكثر من معرفتي بندبات الدهر على جسدي.

جاء اليوم الملعون، تتحدث بشغف طفولي عن آخر إنجازاتها. فقدتُ كل سيطرة على قِدم صبري، ووجدت أصابعي تتحرر من العقل تتحسس شفاهها. غلَّفتها الدهشة. انهرتُ على الأريكة أبكي قهراً، لِمَاذا تأخرتِ وجئتِ بعد وصولي أرذل القهر؟ جلستْ على الأرض بعيون دامعة.

– لا تتألمي أرجوكِ أخبريني كيف أنزع عن روحكِ هذا الألم ماذا أفعل؟

– غادري أرجوكِ.

– لا دعيني بجوارِكِ.

ضممتكِ إلى صدري بقوة.

– أنتِ ابنتي ويجب أن تظلي كذلك.

– لكنكِ تشعرين بأنني... كما أنني أدين لك بكل هذه الراحة التي مَنحتِني اياها..

– لا أريد شيئاً دعيني الآن وستجدينني غداً بحال أفضل.

لم أكن لأفعل بها هذا وهي اليافعة كسوسنة نضجت لتوها

ونشرت الألوان والعبق في كل مكان، وأنا سيدة على حافة موتها تجمع ما تبقى من تجاعيد أيامها استعداداً لنهايتها. الحب هو الإيثار لا الاستغلال، أعرف أنني احتفظت بعذريتي طوال سنين عمري البائس في انتظارها، لكن «نور» جاءت متأخرة جداً بعد أن غدوتُ كومة عظام بالية. لن ألوثَها بإثم شيخوختي فتتحول من عاشقة نضرة إلى ممرضة تحفظ مواعيد الأدوية أكثر من حفظها لبشاعة جسدي المنتهي. كل ذلك أُلقي في مزبلة النسيان عقب دخولها مكتبي بوجه متعرق وجسد مرتعش.

– أخي بالأسفل ينتظر لحظة قتلي.

كان عليَّ إيجاد طريقة سالمة لإخراجها من البلد. قضينا معا عدة أيام في مكتبي نعد أوراق السفر وحين اكتمل كل شيء سلَّمتها ورقة مكتوباً عليها اسم رجل ورقم هاتفه.

– هو صديق قديم أثق به ينتظرك هناك.

– أعرف هذا الاسم لقد مر بي، هل لديك حسابه الأزرق؟

فتحت جهازي وأشرت إليه فقالت:

– نعم.

– أنه «أحمد» الذي درس تخصص علم الاجتماع في إحدى الجامعات. كان صديقي الفيسبوكي الوحيد الذي لم يطمع بشيء أو يسألني رغبة. حين قرر والدي تزويجي أخبرته أنني أحب رجلا آخر ولا أعرف نهاية للمطاف. طلب مني رسم ثلاث دوائر أكتب اسم عائلتي والعريس المزعوم في الأولى، وفي الثانية اسم من أحب، وفي الثالثة كلمة مستقبل، وأن أوصل الدوائر ببعضها وأقرأ

مميزات وعيوب كل طريق وتأثيره على مستقبلي، بعيداً عن هوس الشعور ودفق الرغبات. كم هو حكيم وراق، حين أخبرته بحقيقة ميلي أجابني «أنا لست إلهاً يحاسب أو يُقَيِّم، أنا مجرد رجل على الجهة الأخرى من الحديث أُكن لك الدعم والنصيحة».

أوصلها رجال حراستي إلى الحدود بسلام، وبقيت في مكتبي لا أدري كم ساعة أو يوماً منهمكة في العمل عبادةً، أحاول بها نفي حزني، عبثاً أسأل السلام لروحي البائسة.

سقط رأس السيدة على أريكتها في سلام وصَمَتَ فمها ثم تفتتت اللوحة كتمثال رملي بلا أثر، نظرت الروح إلى السيدة.

– ربما كان علي أن أصرَ وأمنحكِ شيئا من السلام الذي وهبتني إياه لكنني أحبها وأنت تعلمين. كيف أخونها ألا يكفيني ما غرقت به من إثم تلك المتاهة.

أوقفت السيدة الروح بايماءة أخرى.

– سامحيني.

تابعت الروح:

أيملك الأموات دفء المغفرة؟

***

من هذا الرجل؟ وإن كان حبيبكِ كما قال لمَ كل هذا الألم؟ ما الذي تفعلينه بي وأي جبروت تملكين؟ حتى في سقوطك تنُهكينَ علمي وقدرتي.

أكمل الطبيب حديثه وغادر غرفة نور عائدا إلى الأريكة التي باتت جزءاً من أيامه بجوار قسم العناية المركزة. بلا وعي أشعل

سيجارة وانغمس في طين أوراقها.

لم أحتجْ لتأكيد هواجسي عنها، أقصد الحياة، كنتُ واثقة تماما أنها تتلصص على ذهني وتُحوكُ من رؤوس أفكاري قصصها ككاتب يخلق أبطاله ويترك لهم سرد الحكاية لكن بطريقته، أحياناً يرسل لهم بشائره أو نذائره ومن ثم يصنع من ردات فعلهم حكاية.

الأمر يبدو غير مرتب وعبثياً في رأسي، تتبعتُ أثر خطى الحياة محاولة تفسير سلوكياتها وتوقع القادم. عكفتُ على هذا طيلة سنوات عمري بلا فائدة. المختلف هذا الصباح أنها كأي محارب مسها هوس المعركة حين لاحظتْ تقهقر واستسلام خصمها، أدركت أن ساحاتها ستغدو فارغة مملة، وأنها بانتهاء الحرب ستعود مزارعا عاديا تُكرر ذاتها يوما بعد يوم. فكرةٌ أخافتها حد الارتجاف، فقدان زهو النصر ورهبة الهزيمة. ذوبان حلوى التحدي وتحول هديره إلى بركة ثابتة تنتظر حجر طفل هارب من صراخ أمه يركل لها حجرها/حجره، تتموج المياه في دوائر معتقدة أن روحها تُبعث للحياة لكن ما تلبث أن تعود هادئة ميتة.

ذاك هو الكابوس الذي جعل الحياة ترسل العون لخصمها «أنا» كي تُعيدني للنزال قبل أن تحال إلى فراغ التكرار الميت. هكذا أرسلتْ إشارة توقظ شغف الباحث السمج بي.

فيلم يتحدث عن سيدة ثرية ووحيدة تكتشف الحياة وأسرارها بإعادة جدولة حيوات أخرى وحياتها أيضاً؛ إذ تقع في حب فتاة وتتخلى عن كل ما اعتادته كي تقضي لحظاتها الأخيرة معها

وتُعيدها إلى نفسها الضائعة. عثرتُ عليه منذ عدة شهور وتجنبت مشاهدته رغم شغفي في كل مرة أفتحه وأغلقه. قد تجدي جملتي القادمة كلاسيكية حد الغثيان إن اخبرتك إنني في كل مرة شعرت بحاجة لإغلاقه أو تجنبه، كأن وقته لم يحن بعد. حدس مسبق اِستُهلِكَ في الأفلام القديمة والروايات حتى كدنا نفقد قدرة تصديقه. يؤسفني أن أضع حروفي هذه في إطار من الشك والسخرية والاتهامات بالابتذال، وأخبرك إنني هذا الصباح بلا دافع واضح فتحت الفيلم وأكملته حتى النهاية، لكن قبل خمس دقائق من نهايته دق الهاتف.

– لقد نسيتُ إعطاءك رقم السيدة سأرسله لكِ في رسالة، فهي تنتظر اتصالا منكِ ثقي بي ستساعدك.

– لا أعرف ما الذي يجب عليّ قوله.

– لا داعي فقط اذهبي لها ولنبقَ على تواصل، وداعا.

في يوم ما تُقرر الحياة سجنكَ داخل أفكاركَ، تمنحكَ قلما لامرئيا وخلايا تَخُطُ عليها حكايتكَ لكن وفق ما صَنَعَتْهُ هي. تُمررُ لك بعض رؤاها عن المستقبل، تهبكَ مجد الغيب، لتسحَبه بقوة وتجبركَ على تتبعها من جديد.

كيف تقاتل عدوا يفوقك بأساً على أرضه وتخرج بلا انتصار كون الأهم هنا خروجك سالماً؟

أحيانا أرى في الحياة كائنا كسولا أو لنقل غير مكترث بي، يستغل قدرته على عبور ذهني ليستقي أقسى السيناريوهات الموجعة من حقول مخاوفي الأشد عتمة. أحياناً أخرى أتساءل عن الرابط

بيننا، أيعقل أنها تركت حبلا فكريا سُريا بيني وبينها، بحيث تتلقى خططها من مخاوفي اللاوعية. الأمر معقد يحتمل الكثير من التأويل، إلا أن يكون كل ما يحدث لي وما أخفيه في أدغال خوفي ثم يتسرب إلى الواقع ليصير حدثا ما يُطيح بي، صدفةً.

لا أؤمن بالصدف ولا بالحدس، فالحدس واحد من اثنتين، تمرير معلومة خبيثة من الحياة أو تكرار، مجرد تكرار لحدث يحمل صفات هذه اللحظة نفسها، مررنا به مسبقاً أو مر به أحد أجدادنا وأورثنا إياه في ذاكرته المنوية واستحدثناه.

ليس لدي الكثير لأكتبه عن السيدة، كانت طيبة بشكل لا يوصف. وظفتني في المتابعة الميدانية لإحدى مؤسساتها وتوطدت علاقتي بها. أخذتْ شكل الأمومة في دفئها ودعمها. أدين لها بسلام عِشته فترة قصيرة حتى جاء يوم بائس يوقظ كوابيسي كلها وأوجاعي دُفعة واحدة.

منذ عرف أخي بزيارتي وهو في تتبع لي وبحث دائم حتى وصل مؤسستها، مدججاً برغبته العارمة في قتلي بسكين تَقسمُ جسدي ومستقبله بضربة واحدة. ما كِدتُ ألمحه حتى عُدت ركضا إلى مكتبها ووقف الحراس بينه وبين نهايته، منعوه من اللحاق بي.

مرت أيام عصيبة عليَّ وأنا أنتظر في مكتب السيدة التي منعها دفء روحها من الرحيل وتركي. حتى جاء اليوم الذي دست في يدي أوراق السفر خارج البلاد وبعض النقود. ودعتها وخرجتُ تحت حراسة منعت أية محاولة للوصول اليَّ. غادرت البلاد لتبدأ حقبة جديدة في حياتي، لم تخطر ببالي يوما.

بادئة الحقيقة (التاسعة)

«لولا أن كل شيءٍ فيكِ أخرجني منكِ ما خرجت»
نور بعلوشة

فصل آخر للحكاية، أحببت تلك الفكرة كثيرا، نتجدد من حيث ننتهي ونطوي أوراق ما سبق. ما أحمقكَ! تظن طي الورق سيسقط وزرها وحكاياها عن كاهلك، هل تبدو الحياة بهذه الوداعة؟

لا شيء يمتثل لقراراتكَ سوى المصائب المرتبطة بكَ التي تزداد فحولة وبطشا.

أجلس بلا أنتِ، لأسرد عليكِ وجها جديداً من القصة. هل أنا موجودة وكل ما حولي حقيقي أم وهم أصنعه. هل أحتاج الجسد بخطاياه وجوعه وضعفه ولزوجته كي أثبت وجودي؟

ذات يوم غرقتُ في ثرثرة فلسفية لبورخيس وهو كاتب لم يختر الفلسفة لإثبات أناه بل ليضيعها. الساخر أن غيره ضيع أزمنة من أعمارهم في إيجاد ذواتهم الضالة، أحد هؤلاء الحمقى أنا. عودة لبورخيس الذي اصطفى باركلي[٣٠]

---

(٣٠) جورج بيركلي George Berkeley (مارس ١٦٨٥ - ١٤ يناير ١٧٥٣) كان فيلسوفًا بريطانيًا-إيرلنديًا وأسقفا أنجليكانيا .

وشـــوبنهور[٣١] ليكونا مركـز التفضيل والإعجاب لديه. يُقولب باكلي كل شيء في زاوية الإدراك، لا يكون الشيء مـوجـودا إلا بقدر ما تسقط عليه الحواس، وما لا يدرك يُنفى وجوده. إيمان مفرط بالحواس وتعظيمها. أما شوبنهور فقد امتص العالم لينفخ نفسه كما وصفه بورخيس، يؤمن بنظرية الإنسان المتفوق العظيم. أقف أمام كليهما ساخطة أتعجب كيف نرتكز على حواسنا بكل هذه القوة رغم خداعها ومكرها. هذا يعيدني إلى ذات الإشكاليات، أيجب أن أنعكس في المرآة، يكون لي ظل، أتناول الطعام، أمارس الجنس وأتفوق، أنال استحسان عاهرة ما لأُدركْ وأكون؟ أي عبث هذا الذي يُحيلنا إلى كائن منقوص، قِطعُ بازل تتداخل لتكتمل. الفوضى تملأ رأسي، هل سألتِ أي شعور ينتابني وأنا أكتب لك كل هذا؟

شعور مرير فارغ تماماً لكائن عجز عن بسطِ ظله بين البشر ليكون مُدْرَكا.

أوروبا، أرض الأحـلام والحـريات، هواء لا توقـفـه جـدران إسـمنتـيـة ولا أبواب مـغلقـة، أتدرين أية نكهـة تحـمل البـيـوت الخشبية؟

نكهة التحليق، بيوت تُعدكَ دائماً للرحيل، للمضي قدما.

---

(٣١) أرتور شوبنهاور (بالألمانية : Arthur Schopenhauer) (١٧٨٨–١٨٦٠م) فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية.

التنقل كجرادة خفيفة بين أغصان أمنياتكَ وكل ما طمحت إليه يوماً. لكننا لسنا معدين لذلك نحن المضللون المعتقلون في قوالبهم، أكبر أمنياتنا الخلاص من القولبة بدلا من رسم سبل الذات كي تزهر وتنمو. أقصى مآربنا التحرر منهم لا التحرر لأجلنا. مفهوم مشوه يُتلف كل فرصة للخلاص. تكرسُ حياتك للتخلص من فكرة هي بمثابة الدوران حولها حتى تُحكم قبضتها عليك وتُدمرك. كنتُ حديثة العهد لم أذق نكهة الحكمة بعد، غرقت في شوائب ظننتني تخلصتُ منها على ضفة العمر الجديد الذي منحني إياه القدر.

استقبلني في المطار أحد أصدقاء السيدة يدعى «أحمد»، للصدفة أو للعبث -كون الصدفة لا وجود لها- هو صديق فيسبوكي قديم لي انقطعت عنه بعد هروبي، ولم أتوقع الوقوف أمامه وجها لوجه. أحد القلة المحترمين الذي رَحبَ بي وأسكنني في غرفة لا بأس بها. بينما بدأ هو رحلة بحثه عن عمل لي وانغمست أنا في الحياة، الليلة المضيئة لعالم ما وراء الأزرق.

في بلادي أشباهُنا يعيشون عالما خفيا صامتا في هدوئهم وانتشارهم اللامرئي، مصاصي دماء مسالمين. حيواتهم تنشط في الظلام، كلٌّ يَدين ولاء لشريكه، ليسوا مختلفين أو مثاليين بل هم كالبشر صادقون وكاذبون، مخلصون وخائنون. الحصول على رفيق درب هو البحث الصعب الأقرب إلى المستحيل، حِرصاً على سلامتهم وخشية من المجتمع؛ لذا من يجد له رفيقا يحرص أشد الحرص عليه ويتقبله بعيوبه قبل مميزاته، لا خيار في ذلك. ومع

هذا علاقتهم في الأغلب قصيرة، تقف لهم سلطة المجتمع بالمرصاد رغم جهلها. يعزل الأهل أبناءهم عن رفاقهم إذا بدا لهم شيء من تعلق. مخاوف غريبة، العزل عن الجنس الآخر، والعزل عن الجنس ذاته يدفع بالأبناء دفعاً نحو ضياع الهوية والسقوط في متاهة التجريب والألم. يُردد الفلاسفة «الألم ضرورة وجودية» ربما لكن هناك فرق كبير بين الضياع والألم. في الحقيقة هي عادات توارثوها، يكررونها بلا وعي، يخشون عقولهم خشية الموت للحياة. أي غباء هذا! التفريط بهبة العقل وسجن أجيال بأكملها في تاريخ منته، خشية المجهول وإن حمل لنا الخلاص. كيف أرعبت الكتب لحية أبي إذ رآها تدقُ صندوق الرتابة في ذهني. لَمْ توجعني لكماتك يا أبي بقدر جروح الروح في عتمة الطرقات بحثاً عن خلاص، عن عابر سكير أفسدت ذائقته الحياة يَقْبلُني ويمنحني شرط الوجود.

أشباهنا تبدو كائنات ملوثة في أعلى سلم الشبق، من وُصم بعارها دفع عمره ضريبة؛ لذا صعب عليَّ أن أتعثر بك -أقصد أنتِ- لأجدني، مما جعلني أهرب مبتعدة نحو الغرب. أنسكب نحو سراب الملاهي الحياة الليلة هنا، أبحث عني أو لنقل أَفقدني أكثر بجهالة جائع لم يعد يكترث بنوع أو نكهة ما يلتهم.

عابرات، كن عابرات، يُمسدن أوجاعي بمُسكن العناق الدافئ والجنس الرديء، لكنه مُسكن ضعيف غير ذي جدوى ينتهي فور اختفائهم أو قبله. ذلك العناق لم يكن على قياسي، وتلك الشهقات تحمل لغة باردة غريبة لا تقرؤها أذناي. مجبولة برعشة

زائفة غير كفيلة لأن تقذفني سبع انفراجات سماوية صوب التحليق. أضيعُ بين أصابعهم الغريبة لأغدو مجهولة أكثر لا أعرف مني شيئا. أشتاقكِ أبحث عنكِ بين حروفي ومساماتهم، كطفلٍ ضيَّع قلبه، ألا ترين أنكِ أضعتِ شيئا مني؟

لقد أسرفتُ في حديثي عنكِ حتى بدا كل شيء يشبهكِ.

كيف أغسل السطور منكِ؟

أي شعور ستحملين وأنتِ تقرئين سطوري هذه، حين تصابين بإثم المعرفة، المعرفة دنيئة يا حبيبتي، تُوْجع. كيف ترينني بعد ما قرأته وستقرئينه، عاهرة، مسخ، شيطان، ضحية، مريضة أم مسلوبة؟

لا أكترث هل عليَّ أن أكون شيئا؟

الجنس هذا الثابت في حياتنا المتقلبة، فعل يخلقُ أجنحة لأجسادنا. يهبنا الخفة، خفة تدهش، يستبدل الأقدام بريش يتراقص خفيفاً على يابس الأرض بلا اكتراث. كيف لمثل هذا الفعل الذي يستغرق دقائق عدة إحاطتنا بهذه الخفة الزائفة، يزُجنا في وهم يكبرُ ليفوق ثِقل الجسد، يرفع عنه حِمل الجاذبية وصراع الوزن.

في العروض البصرية يتابع الجمهور الأجسام والأبطال المتحركة، ولا تذرف جفونهم رمشا صوب الثابت، كونه عالقاً في دائرة ثباته غير المنتهية. لهذا ترافق الساحر فتاة فاتنة تتحرك بعيونها ومبسمها ويديها كي تشغل المتفرج عن الثابت المتحرك «الساحر» ليتمكن من إكمال خدعته. لكن في عرضي الخاص، قصتي، أتابع الثابت -مشاعري الجامدة- وأسأل كيف لي الفرار

والخروج من هذه الدائرة المغلقة من الحركات والأفعال غير ذات الجدوى؟

سؤال أفقد الجسد شهية ظمأه المقدسة، لم يعد الجنس يستهويني. بتُ باردة تماماً، تسلل الشحوب إلى روحي واليأس تملكني. ما الذي أفعله؟

أشتري الأجساد كي أعثر على جسدي، وأترك ظلي على فراشهم وأرحل بلا جسد بلا ظل أو أدنى احترام لي. اتساع أوروبا المهيب يلتف حول عنقي، يقيدني في أحراشي الأشد سوادا. لستُ عاهرة ولم أكن، ما هذا الحال الذي وصلت إليه!

ليتك تشعرين بما أشعر به الآن وسط حبر اتخذ شاكلة النصال، يغرس في كل ركن مني ويُبيح دمي. ليتك تشعرين بكم الكره الذي أحمله الآن لي. في هذا الشكل المشوه المعتم، لم يعد لي هدف أو قضية، مجرد عابثة ترديتُ لمرحلة تبرير الجنس بالحب، إخفاء لما مُسخت إليه. ما الفرق بيني وبين هؤلاء اللزجين الجبناء المستغليين للنساء لإشباع شبقهم الحيواني. الفرق، نسائي مدفوعات الأجر غير مجبرات. نحتفل بكذبة الحب سوياً ونسفحه كل ليلة على فراش مدنس بلزوجة حقيرة لم تعد تخرج مني أو تحرك بي ساكناً. صنعتُ عدة علاقات سطحية محاولة إقناع ذاتي باللاوحدة، تسلل شغف الحياة مبتعداً. أجر قدميَّ جرا إلى الحانة، لا أشرب لا أجالس أحدا، أغادر من دون معرفة وجهتي ولِمَ جِئت. أدور في طرقات روحي وطرقات المدينة، كلتاهما متشابهة. عتمة وصمت، تترنح

البيوت مرهقة مع أضواء سيارة عابرة أو نجمة سماوية مضطربة تلاعب السحب «غميضة»[٣٢].

– نور عودي إلى رشدك وإلى طريقك أنتِ لست عاهرة، لا تجعلي نُعوتهم تُحولُكِ إلى صورة منها. أفيقي الحانة لم تكُ يوماً مكانكِ.

هكذا صرخ ظلي بي، أقسمت له إنها ليلتي الأخيرة في الحانة. انتظمت في دراسة اللغة ودوام العمل الذي وفره لي «أحمد». نادلة في أحد المطاعم ليس بعمل سيء على الإطلاق، مراقبة الناس، تصرفاتهم، اختياراتهم، ردات فعلهم، مخاوفهم، الإنسان هذا اللغز العظيم.

اعتاد «أحمد» زيارتي في العمل يرعاني كأحد أفراد عائلته، ولم يحاول يوما استغلالي رغم معرفته بقصتي. يحاورني مرات ويمازحني أخرى. يساعدني على التقاط روحي الضائعة، هو الوحيد الذي أقام في أيامي المتشابهة. حتى التقيت بها في تلك الليلة لترسم بداية واقع جديد. شاعرة ذات أصول عربية، التقينا في المطعم وكانت تقرأ بعض قصائدها، طُبعَتْ ملامح وجهها وتفاعلها مع الكلمات في عمق قلبي. شغفها في سرد قصص الحرب شعراً

---

(٣٢) الغُمَّيْضَة لعبة يلعبها الأطفال بالاختباء والبحث . حيث يبدأ أحدهم بالعد ووجهه على الحائط بينما يختبئ باقي الأطفال، وبعد أن ينتهي من العد يذهب للبحث عنهم .

ووجع الأطفال والانهيار الثقافي. تشعرك أنها محامية حقوقية أو ثائر يسعى صوب فكرة تحرير العالم وإنقاذه. يا لفظاظة الفكرة، أما زال أحد يحتفظ بتلك البراءة والسذاجة!

تحدثنا أثناء مناوبتي، فُتنتْ بي كما شَغُفْتُ بها. هل عليَّ الإسهاب في وصف قصتي معها، أسرع «أنتِ» عبرَتْني. أم أوجز ما حدث في بضعة سطور. لا أعرف ما المميز الذي لفتني بهذه الأنتِ. تواعدنا في أكثر من موعد عشاء. نتحدث، نضحك، نتكلم عن تفاصيل الحياة في أوروبا ومشاكل أيدلوجيتنا العربية، وكيف وصلت أوروبا. من المضحك ارتباط فتاة متواضعة الجمال متقدة الذكاء مفرطة الأنوثة برجل مريض قبيح فقط لمشاركته مصيره. زوجها أحد ضحايا الحرب الذي نال لجوء في أوروبا، وهي الفتاة الملحدة المحاصرة بأنياب العائلة ومخالب المجتمع. تطلقا فور وصولهما وانطلقت هي نحو العمل. نجحتْ لما تمتلكه من خفة دم ومهارة عالية في التواصل. استطاعت في عامين توفير منزل وسيارة ووظيفة لها. تدفع الضرائب في موعدها. تصنع من ذاتها إنسانا ملتزما في حريته، يحترم مجتمعا منحه كل هذا الرخاء عملا وحياة. أبسط الحقوق التي سلبها الشرق منا. زارتني في منزلي واعترفنا بالحب على سرير يومنا العاشر. توطدت العلاقة أكثر، تحدثني هاتفيا كل يوم في طريقها إلى العمل. أغازلها كما تحب، ترسل لي صورها وتترقب افتتاناني بها في دفق كلمات تُعدلها نحويا وشعرياً وتضحك.

– لو سمعك الدؤلي[٣٣] أو الفراهيدي[٣٤] لرموكِ بالرصاص الحي.

تسلل جسد المشكلة الأولى في شكل صورة بعد خمسة عشر يوماً. صورتها في ملابس البحر أرسلتها لي على شاشة المحادثة. لم أحتمل، غضبتُ بشدة، شعرت بغيرة بنخوة بـ....، ليحمل أي نعت، وردت هي ببرود:

– لم أترك بلاد العرب وأديانهم كي أعيش بها، ولن أسمح لك بالتعدي على حريتي الشخصية كما يفعل الرجال. إياك والتشكل بصفاتهم المستبدة معي.

كرهتُ الفراق وقهره مجددا. صوت الظلال والوحدة الكئيبة. العيش بلا شِعرها وضحكتها الدافئة. صَمَتُ عن كل ما أغضبني.

حيرني تجنبها للحديث أثناء وجودها في منزلها.

– مشغولة.

تكتبها وأتقبلها، ما حاجتي بالوحدة وهي معي، لكن لَماذا لا

---

(٣٣) أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي الكناني (١٦ ق .هـ/٦٩ هـ) ، وضع علم النحو في اللغة العربية وشكّل أحرف المصحف ، وضع النقاط على الأحرف العربية .

(٣٤) الخَليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ هـ١٧٠ هـ – ٧١٨م ٧٨٦م) ، من أئمة اللغة والأدب ، وواضع علم العروض ، أخذه من الموسيقى وكان عارفا بها .

نتشارك الأمسيات والصباحات، السرير جسداً وروحا، الكتابة، الجنون والعقل؟

– أعيش مع زوجي.

إجابة نفضتني، تدحرجتُ على وجع الحقيقة متورمة القلب.

– لماذا ارتبطتِ بي؟

– لا أستطيع العيش دون فتاة وأهلي يصرون على زواجي. هكذا أفضل من إلحاحهم. زوجي يعلم ويتقبل ميلي، أمنحه الجسد الأكثر أنوثة، ويمنحني حرية العلاقات، كما يملأ علاقتنا الحميمية بالشغف ويعرف كيف يمتعني جدا. ما دمت مرتاحة وسعيدة في الوضعين معا ما المشكلة؟

– أي عبث هذا؟

– لا تكوني مملة اقفزي وتمتعي بالحياة.

للمرة الثانية توقفني عارية أمام مبادئي بلا أجوبة. لا تستطيع إقامة علاقة مغايرة فتلجأ لكينونتك المثلية –الأمر الذي نسعى لإثبات أحقيته– لكن امتلاك قدرة التمتع بالجنس الآخر يجعلك ملطخاً بعلامات استفهام بلا حجة، ملطخ برفضي أيضاً. طالما تشككت في هذا النهج من الحياة وأسبابه لكن هذا شأنهم بعيداً عني. ها قد علقتُ معهم في شخص «أنتِ».

– الأمر لا يكمن في نوع الشريك بل في الحب والمشاعر التي لا تعرف التصنيف وتعقيدات البشر.

– وما نوع المشاعر التي تجعل المرء يرتبط بشخصين في الوقت نفسه بغض النظر عن تصنيفهم؟

اتخذت قرارا لم يتسم بالسهولة، الإكمال بكِ. مضى شهران على علاقتنا، وقعت المشكلة الأخيرة حادة مزقت ما تبقى. خبر وفاة السيدة جاء كشتاء عاصف في غير موعده. مضت عدة أيام وأنا على فراش البكاء يأكلني حزني.

– دعينا نرتبط و...

– لِمَ هذه الجدية المفرطة نحن هنا للتمتع فقط.

– إنها حياة كاملة، مشاركة في الحزن والفرح، خوض المشاكل وحلها.

– حبيبتي لو شئتُ مثل هذه الحياة لاكتفيتُ بزوجي، بَسِطي الأمور، علاقتنا للمتعة الخالصة بلا متطلبات أو واجبات أو حزن.

كم هي رخيصة هذه العلاقة، نتحول إلى فتيات متعة دون أجـــر. دون هدف نندرج تحت ســـقف حب زائف، هل هذه هي الحياة؟

هل هذا هو نحن؟

مررت بحالة سيئة، ربما الأسوأ. الفراق، رائحته الكريهة، نكهته وموت السيدة. ماتت وحيدة يأكلها الحزن. حَصدتْ من المال فراغه وماتتْ على قارعة قلبها المثقل بذاكرة رحيلي. ليتني منحتها حبي ورعايتي، وهل يمنح الحب؟ كيف أهبها ما لم أمتلكه؟

– ملعونة أما وهبتِه للعابرات يوماً بعد يوم؟

– لم يكن خيارا بل انهيار أيها العقل الأحمق.

– قاتلة.

– لالالالا.

أية لعنة حطت على عـمـري، الأوجـاع ثعـابين تقـرصني. مصلوبة أيامي على أخشاب الألم خالدة فيه. أكرر لفظ الخلاص كثيراً ولا أجد له دربا.

سمعت بشيخ من أصول عربية، يُدرِّس الدين للنساء، وجدتُها فرصة للتقرب إلى ربي علَّه يغسل قلبي من تقرحات الحياة ومرارة التيه. حمل صوتا شجيا وهدوءا يدفع بالمستمع إلى دولة الطمأنينة والسلام، إلى بر التصديق به والتسليم.

***

صـرخـةٌ دَوَّتْ لم يسـمـعـهـا غـيـر الروح التي التـفت صـوب الصوت. فتاة الشِعر تحترقُ بأوراقها في مشهد مريع كبلَّ الروح في مكانها.

– ما الذي يحدث لِمَ تحترق؟

ربتتْ على قلبها نظرة الشيخ الدافئة الذي سار مبتعداً دون أن تفارقه ابتسامته. التفتتْ الروح حولها مرتبكة أهي حياة أخرى، هل متنا وجاء الجحيم يلهث خلفنا؟

لا إجابة سوى تكرار الشخوص من حولها.

***

فاجأني «أحمد» بطلب الزواج، حدثني عن حب كبير يملكهُ لي. أقسمَ إن ما بي هو نتاج تجارب الحياة القاسية. أدهشني إيمانه بي كـامـرأة ووَعَـده بالوقوف بجـانبي وإعـادتي إلى أنوثتي والحيـاة. يسقي ويرعى السيدة في داخلي لتباشر النمو، أنوثة تحملني قواربها إلى مرفأ العائلة والحياة المستقرة.

لم أجبْ تحججت بموعد الدرس. المتاهة تكبر والحيرة شامتة تسخر من لعثمتي. لم أسمع كلمة، حجبتني هالة الفكرة عن كلمات الشيخ.

انتهى الدرس غادر الجميع إلاي. أجلس بلا هدف أو رغبة بفعل البقاء أو المغادرة، مجرد لوح صامت. اقترب الشيخ سأل بود ودفء:

– ما خطبكِ يا ابنتي؟

قصصتُ عليه القصة كاملة، حاول الشيخ الاحتفاظ بهدوئه، صمتَ بُرهة شارداً لا يعرف ما يجب فعله. نطقَ عدة كلمات، بدا أقرب لخياط يجمع الغرز محاولا إغلاق رتق أودى بحياة الثوب.

عاد لرباطة جأشه أو ادعى أنه كذلك. نصحني بالتوبة عما أنا فيه من تعثر والارتباط برجل يساعدني على عبور هذه المرحلة. يهبني أسرة وأطفالاً ينسونني كل هذه الهرطقة.

– التوبة هي العودة عن الإثم والتطهر.

– التطهر!

– الجلد، تذكري الموت حين لا تستطيعين محو خطاياكِ والعذاب الأبدي، حيث لا مجال للرجوع عما كنت فيه، بالإضافة إلى عذاب الدنيا الذي وصفتِه لي، الفرصة الوحيدة أمامك الآن لتخلصي جسدكِ من متعه الفانية وتتخلصي من لعنة الله عليكِ، آلام الجلد لن تكون أشد قسوة من عذاب الدنيا والآخرة، عودي إلى الله تقربي منه بالألم المؤقت.

بلا لغة، سلَّمت ساقيَّ للطريق، ما الذي يعنيه الركض؟ كيف

تكسر ارتباطكَ بكَ وتهرب؟

الأرض كأمواج تتمايل أسفل أقدامي المنهكة. أجري، فقط أجري والأفكار تلاحقني، أصوات، أحاديث، ثرثرة، الكثير من الثرثرة المعتمة.

- الجلد الجلد الجلد.

- "But I'm a creep, I'm a weirdo, What the hell am I doing here? I don't belong here[٣٤].

- «من يوم ما عيونها سحرتني وجفونها النايمة أسرتني، حسيت بالقلب إلى فايتني، خد عقلي معاه وشرد مني، دورت ما بين سحر جفونها، قالوا دا هربان جوا عيونها وعيونها دي بحر أتوه أنا فيه»[٣٥].

أعقبها صوت والدي رُعُوداً تُدَوي تقصف قلبي بكلماتها متشدقة.

- الأغاني حرامممممممم.

الصور والمواقف تتبعثر كأحجار نرد تحجبُ الطريق عن ناظري وسمعي، أجري والأفكار تطاردني.

بكتْ بحرقة، حاولت الآخرى تغيير الموضوع

- بالأمس ضاجعني زوجي.

دمدمتْ بقهر:

---

(34) Creep - Paul Q. Kolderie & Sean Slade, Song.

(٣٥) فين قلبي - أغنية لمحمد فوزي .

- الحياة تجلدني لا أحتمل.

قلتُ محاولة تهدئتها:

- صديقتي صُدمت بميلها للنساء ورفضت ذلك لأنها تحب زوجها.

- تزوجوا؟

- على اعتبار ما سيكون.

- جميعكم مرضى ومعاتيه.

الأفكار تطنُ كذباب في رأسي تُربكني الذكريات، كفى أشعر أن عقلي قطعة مغناطيس وسط مخرطة حديد تتكالب عليه البرادة من كل شق.

- نحن مختلفون ألا تعي ذلك كفاكِ.

- [٣٦] أي عدد ÷ ما لانهاية = ٠

- التجرد، الوصول للعمق، لأصل الأشياء. تجردي من جير[٣٧] الغريزة، الظلام يقودكِ لا تنصاعي، لا تستسلمي للمعطيات القريبة. الحقيقة جائزة تمنح فقط للجادين، هل تعرفين اللؤلؤ؟

الجميع يعرفه لكن هل تعرفين أن محار اللؤلؤ يتحول بعد ثلاث سنوات من عمره من كونه ذكراً ليصبح أنثى؟

---

(٣٦) قاعدة في علم الرياضيات .

(٣٧) الجير : طبقة القلح هي عبارة عن طبقة لزجة شفافة أو بيضاء من البكتيريا واللعاب وفتات الطعام تتجمع على الأسنان ، وان لم تنتزع بالتنظيف اليومي تتصلب لتصبح حصى متماسكة .

وتؤكل لحومه أيضاً، ابحثي دائماً خلف البريق –صوت السيدة–.

اصطدمت بدراجة متكئة على جانب الطريق، ألم ساقي أيقظني من غيبوبة الأفكار المتدفقة. عدتُ إلى المنزل أعرج من قسوة الألم، ألم الروح والجسد. كشفتُ ساقي لأرى آثار الكدمة لكنني صُدمت، لَمْ أنظر إلى ساقي منذ مدة لا أذكرها. جُننت، خلعت بنطالي وتمعنت. لم يعنني كثيرا الوزن الذي غزاني أو زرقة الإصابة. إنها ساق أمي، تشبهها تماماً. نزعتُ ثيابي كاملة بجنون بشكل أدق مزقتُها، وقفتُ أمام باب الخزانة ذي المرآة الطويلة، الباب الذي أتجنبه.

– أنتِ هي.

– لا

– أنتِ هي.

– لا

– إذن من أنتِ؟

صرختُ، تكورتُ على الأرض شمساً ضوؤها يخبو، تموت ألماً. الدموع تغسل جسدي العاري. ألهذا تركتني يا الله، أجبني؟ لا تشح حبكَ عني، أجبني، وحيدة ضائعة، روحي تموت كعصب ضرس التهب وتعفن تدريجياً. عصبٌ وجب إزالته وإبقاء الضرس منتصباً بلا روح. مجرد جسد خاو يطحن الحياة طعاماً ويطحنه السوس بلا أدنى مشاعر. كم هي فكرة ساخرة يطحن الحياة بلا حياة وتأكله.

إنه من أصعب قرارت حياتي. لم تكن حياتي يوماً طبيعية أو مرت بي مشكلة عرضية سهلة أتاحت لي اتخاذ قرار عار من وشاح الندم. طالما تعثرتُ ولم ألتقِ يوماً بـ المدعو «حل» لكنني اتخذت القرار المر هذه المرة أيضاً. الألَم يكبرني أضعاف الأضعاف ولم يكن عن القمع بد.

اتصلتُ بزميلتي في الدرس كي ترافقني في رحلة تطهيري ونجاتي المزعومة أو الصادقة، لا أملك صفة لها.

– هل جُننتِ هذا اجتهاد خاطئ، على أي حكم ارتكز الشيخ. لا يجوز جلدكِ أفيقي.

– من يكترث بجوازه أو عدمه.

– التوبة إلى الله أبسط من ذلك، ما الذي تفعلينه، إنه شيخ متطرف لا يجوز أن..

– ربما

– أي عبث بحق الله.

– ذاكرة الألم جديرة بغسل الروح وتجريدها من رغباتها.

– أنت مازوشية لن أشاركك ذلك، أوقفي السيارة.

ذهبتُ وحدي أحمل أوزار تيهي مُحاولةً إنقاذي مني لتبدأ رحلة الوجع الخالص.

تتقاذف الأفكار رأسي في حالة عبثية عشوائية، تُرهق خُطواتي. يظن هيغل[٣٨] أن أهمية مواجهة الآخر بالنسبة للوعي

(٣٨) فيلسوف ألماني ولد في شتوتغارت في المنطقة الجنوبية الغربية من ألمانيا .

الذاتي هو أولاً أن يفقد ذاته لأنه يجدها في كائن آخر ومن ثم يحل هو محل الآخر، حين يكتشف أنه لم يكن كائناً جوهرياً مختلفاً عنه. ويقول هيجل أيضا، لقاء الآخر يحتوي خوفاً ونشوة كون الوعي الذاتي يجد نفسه متجسدا في مكان آخر. لكن اللقاء نفسه مصدر انتشاء كونه رغبة عابرة لذات، لذا يظن هيغل أن لقاء الآخر كفاح. نعم هو كفاح، بل معركة مُنهِكة يَلتقي المرء ذاته وجها لوجه، يجمعُ هشيمها عن وجوهِهم وأسرتهم. يجمع أشلاءً لا تشكل جسداً بل مزيداً من الأسئلة يا هيجل، المزيد من الأسئلة التي لم تصل بي إلى ملاذ أو تهديني استراحة محارب في حرب ضارية لا تنتهي إلا بانتهائي. كل الأخريات لم يُرجعن لي هويتي، فقط يَكشفن لي وجهي الأشد دمامة. وجه حطمتُ المرايا كي لا أراه، فرأيته في كل ركن.

في رحلة الذات الهيغيلية وصف رغبة السيد في الاستقلال والاستغناء عن الآخر وعن العالم والرغبة، محكومة بالفشل لأنها تعني نهاية الحياة. وهذا ما كنت أسيرُ إليه مثقلة بكل آثامي ومتاهاتي. أسيرُ نحو قتل الحياة بي، ولأكون أشد وضوحاً، قتل الرغبة وإحلالها بذاكرة من ألم خالص نقي.

وقفت مستسلمةً أمام ارتباك الشيخ الذي تحدث بخافت الصوت:

– مثل هذا الحد يعتبر جريمة في هذه البلاد.

– لن أخبرَ أحداً.

برعبٍ صامتٍ استسلمتُ له والأفكار تتطاير يمنة ويسرة

بجنون. أجلسني على الأرض، ربط يديّ ودس قطعة قماش في فمي. لم أحاول منعه بل رحتُ أهيء نفسي للألم، للتوبة، لشيء لا أعرفه سعياً لفقدي أو استعادتي، وكلاهما مأرب يستحق المجازفة.

أخرج الشيخ سوطا جلديا من حقيبته أعده لتلك اللحظة، أغمضت عيني. استسلمت أذني لصوت خطواته تقترب، وسط هذه الثواني المرعبة استحضرت صوت الأقدام في أفلام الأسود والأبيض وتعمّد المخرجين استخدامها في أشد اللحظات حرجاً. صوتٌ لا يملك حروفا لكنه يخبر المتلقي برسائل هامة تتمحور في الأغلب حول قدوم شخص أو شيء ما أو رحيل أبدي. هكذا لُقنّا، رددت نهاية تلو الأخرى، ذاكرة وهبتني راحة مؤقتة.

رحيل/ بداية

كلاهما في نظري أفضل من تلك اللحظات العالقة التي تمسخكَ صنما بلا حِراك. قد يؤلم قليلاً اعتياد البداية والرضوخ للنهاية، لكنهما بتدفق الزمن وتكرارهما يحولانك إلى برمائي يتنفس فوق الماء وتحته.

تَلقيننا الذاكرة هذا ما يفعله المحيطون بنا دائما. التلقين فعل يُمارس ضدنا منذ الولادة يصنع جداراً بيننا وبين التجربة.

عليكَ الاكتفاء بكلمات أمك المقتضبة.

– الطعام الساخن يحرقكَ.

ربما أحتاجُ تلك اللسعة كي أتعلم تناول الطعام بشكل جيد، أو أكتفي بالهرب من الفلفل الذي طالما عاقبتني به أمي إلا إذا

اخترت اعتياده، فأصبح أكبر من العقاب بل صرت عقاباً كما نعتتني أمي. هذا ما فعلته وسأفعله هنا.

أعيش الآن لحظة مقدسة تستحق أن أطرد الذاكرة بكل شوائبها، وأعيش هذا الوجع حتى آخر رمق بروحي البائسة.

سقطتْ الجلدة الأولى على ظهري مُدوية، صرختْ بي وجعاً.

- تجردي أيتها الروح من آثامك.

صوتي المتأوه يضغطُ الشاشة والروح بقوة، عبثاً يحاول التخلص من وجع الجلدة القاسي واستعادة رباطة جأشه.

وقعت الضربة الثانية صاعقةً من لهب على جسدي وأفكاري. تمتمتُ بصوت مبهم:

- خذ بيدي يا الله لا أحتمل.

صرختْ الضربة الثالثة بي، لن يُجيبكِ.

- أجبها يا الله، أخبر أنكَ هنا، انزع ألَم الروح والجسد. ها أنا أتطهر لكن هل هذا هو المصير الذي اخترته لي أيها الرب؟ هل إنسانيتي إثم يوجب كل هذا الألم؟ ألا تُجير إنسانا يتطهر لأجلك؟ ألا توقف الألم كما نار إبراهيم[٣٩]، تُحيله برداً وسلاما؟

---

(٣٩) إبراهيم : هو أحد آباء اليهودية الثلاثة ، وشخصية محورية في المسيحية والإسلام وأديان إبراهيمية أخرى . وردت سيرة حياته في سفر التكوين وفي القرآن أيضاً ، وورد في القرآن أن أهله حاولوا حرقه لكن الله أمر النار أن تكون بردا وسلاما فنجا .

وضَحكَتْ الجلدة الرابعة لن يجيب أيتها الحمقاء.

– لِمَ أنتَ صامتُ أخبرني؟ هل أنت موجود أم أنكَ مجرد فكرة ووهم لُقِّنا وجوده؟

ضربة خامسة أطاحت بما تبقى من إيماني سلمتني لهُوة اليأس. توقفتُ عن الأنين، زاغت عيناي في الأفق. انهمرت دموع الألم عشوائية وبللَت قطرات العرق ملابسي.

قابلت الضربة السادسة بجسدٍ يتطوح أسكره الوجع، مجرد جسد توقف عقله. جسد فقد روحه، غده، الزمن. لم أعد أسمع وأرى إلا الألم، هالة من ألم.

–كفى !!!!!!!!!!!!

صرخةٌ أطلقتها صديقتي في أرجاء المكان. تضاعفت حتى شلَّت يد الشيخ. أيقظتْ مطلِقتُها من هول المشهد. قفزتْ نحوي بسرعة وخلفها رجل ذو لحية أغلب الظن هو شيخ أيضاً. فكتْ قيدي مسرعة وأحاطت جسدي الغارق بصفرة العرق وحمرة النزيف بمعطفها، وضمتني إليها برقة أم. أفقدتني قوة الضربات وعيي تدريجياً، آخر ما سمعته جدال أصحاب اللحى المشتت.

– اتفق الأئمة أنه في مثل هذه الحالة لا حَدْ لها لأنها ليست بزنى. إنما فيه التعزير فيعاقب الحاكم من فَعَلَتْ ذلك العقوبة التي تردعها وأمثالها عن هذا الفعل المُحرم.

– التعزير يحتمل الجلد ثم كيف لا تعتبره زنا؟ ما دليلك؟

– لا إيلاج يا رجل.

– ولكن.

ذاب الصوت،

الرجل ذي اللحية يُزمجر، السيدةُ بلا ملامح تصرخ بين يديه تخرج آلاف الأيادي من جسدها. تنطلقُ نحوي تشدني إليها. أصرخ وأحاول الهرب خوفاً أن يراني الرجل. عويلها يكبر، يقتلني، يزداد بكائي الصامت. أستمر في محاولاتي بلا جدوى كأنني سقطت في فم مطبق من ألم.

– كفاكِ بكاء أنا بجوارك لن أسمح لأحد أن يؤذيك مجدداً.

ببطء فتحت جفوني الثقيلة وإذا بها فتاة الشعر وقد أسندتْ رأسي على صدرها ولفتْ ذراعها حولي.

– أنتِ.

– حمدًا لله قد أفقتِ لن أدعكِ للوجع مجدداً لن أسمح لهم.

– أين شعركِ؟

– لم أكتبْ حرفاً منذ غادرتِ، وعدتُكِ أن أفعل وفشلت. بدونكِ حروفي ناقصة ميتة، لقد تركتُ زوجي هذه الكذبة البلهاء، عدتُ لكِ وحدكِ.

كلماتها عبرتني وغادرت كما يعبر ضوء الشمس زجاج الحوانيت المغمورة بفوانيسها أو نوافذ بناء مهجور غارق في موته. تملكني الذُعر، لا أشعر بشيء سوى تقرحات ظهري وكأن السوط ابتلع قلبي وتركني جثة تتألم. التفتُ بعينيي لمحتُ «أحمد» جالساً بهدوء وعيناه يشوبهما القلق، أشرتُ إليه وتمتمت:

– سنتزوج.

– وأنا؟

– كل ما أكنه لكِ شعور صداقة خالص.

ذات موت اتخذتُ أكثر القرارات حياةً، أتصدقين هذا البَلَه!

– فلتكن مشيئة الرب، وإني أراه خلف سماواته يتربع سعادة غامرة بكِ.

جملة غريبة اختارها «أحمد» كخاتمة للحديث وبادئة لحقبة قادمة.

أغلقت الأفكار نوافذ عقلي، ذاب صوتها في فراغي.

– أي حمق هذا، عداؤك لذاتك لن يحملكِ لشيء، صادقيها وإلا ماتت بكِ مسببات الحياة، أية خدعة تزجين نفسكِ بها؟ وأي أمل تنشدين من تقمصك ما لا يمت لك، كيف ترتفعين بي إلى سماء الصحوة وتهوين إلى قاع الكذب كيف؟

غرق صوتها في بحر أفكاري بلا أدنى اثر.

أين غابَ وتركني، أهذا عقابه لي؟ هل العقاب إرادته؟ أيعني له ألمي شيئاً، أيريدني أن أترك ما أنا عليه، ألم أحاول منذ البداية، ما الذي يسعده؟

الرب، الرب، الرب

الفكرة المنهكة، كم تشغُلنا وتعتقلنا؟

الرب الرب الرب، ثلاثة أرباع عقولنا بكل خلاياها تُردد أسئلة تبدأ وتنتهي بالرب، الحياة بكل ما تعنيه من مكافآت ووعيد، تحمل سمة رفض وقبول الرب. الخسارة، الرسوب، الفقد، المرض عقوبات الرب، اختباراته وابتلاءاته. أنهكتني الفكرة يا حبيبتي ودعوتهم المعلنة والمبطنة، صلي لله أن يرفع عنك الكرب، عليكِ

بركة الرب، لكن الكرب لا يُرفع. اللصوص يزدادون ثراءً، الملحدون يزدادون نجاحاً. ومتاهاتنا تزداد عمقاً ووجعاً. أخطر ما نجابه خطاب أصحاب اللحى فهم فخ يصعق المؤمنين كراهية. يُحيلهم إلى قساة يكرهون الرب الذي طالما نادوا باسمه، ويكرهون كل ما يُحيطهم. هذا الرب الذي لا يُجيب ولا يُغيث ولا يُغير.

ماذا وإن كانت إرادة الرب منذ البداية ألا يكن؟

أقصد ألم يخلقْ إنسانا شبه كامل ذا عقل وجسد وخلق كونا كاملا. ماء، طاقة، نباتات، حيوانات، معادن، واستخلف عليه سُكانه ليتحدوا بشكل أو بآخر ليعمِروه في سلام. هذا هو المَنْح، وما الذي قدمناه؟ خذلان وعار، قتَلنا وقيدنا أفق المَنْح على بعضنا بعضاً. في النهاية اتهمنا الله، الرب الذي اختار الصمت. ثم يأتي رجال الدين يسرقون صوت الرب ليصيروا أرباباً. تماماً كما فسرها فوكو في كتابه «الرقابة والمعاقبة»[٤٠]، حوَّلوا فرض السلطة من جسدي إلى نفسي، أوامرهم هي إرادة الله ومن ثم نغدو آلات مكررة تحقق مشيئتهم وأهدافهم دون الالتفات إلى حاجاتنا وخصوصيتنا.

في الحقيقة ليس لدينا أية مشكلة مع الله بل مع رجال الدين، يوم خلق رجال الدين وُئدَ الله في قلوبنا وولدت مشيئتهم.

---

(٤٠) المراقبة والمعاقبة هو كتاب للفيلسوف والباحث الاجتماعي الفرنسي ميشيل فوكو. نشر في فرنسا عام ١٩٧٥ باسم Surveiller et punir: Naissance de la prison ، ثم ترجم إلى الإنجليزية في عام ١٩٧٧ باسم Discipline and Punish .

علي أية حال عليَّ التوقف عن التفكير بهم والمضي قدماً في الطريق. لقد اخترت القادم بملء عقلي. محاولةُ هرب جديدة لكن هذه المرة من صوتي البشع وأسئلتي، هروب مني نحو صواب أتأمل فيه خلاصا آخر، فليكن الله بعوني في القادم.

بعض الحقيقة (العاشرة)

«لا يعرف الرجل قيمة الحياة قبل أن يعري امرأة للمرة الأولى، زرا زرا، كأنه يقشر حبة كستناء في ليلة شتوية».

كارلوس زافون

دنا الطبيب بكرسيه من «نور» الثابتة في غيابها، تابع جهاز تخطيط القلب، وجهاز التنفس، تفقدت عيناه الأجهزة والخراطيم، صمتها، عينيها الذابلتين، صفرة بشرتها، الأنبوب الغليظ الذي اقتحم جمال أنفها.

– لماذا عليكِ التشبه بها، تماهيكما يقتلني مرة تلو الأخرى، ما جدوى الدراسة وإضاعة عمري بين الكتب؟ فيمَ رفضكما البوح لي ولمَ تصران على زجّي في دموع الخاتمة؟

مجرد كومبارس رديء لا يُضفي على المشهد شيئاً، الزواج بدا لكِ حلاً وأي حل، كم أخشى إكمال القراءة!

رؤيتها جثة أخرى بين أوراقك الملعونة، أتعرفين أن لك نظرتها.

لوهلة شرنقته الذاكرة وعاد لوراء يخشاه.

منبسطة على سرير الزوجية في ليلتها الأولى يتأملها مهووساً بعشقه، بأنفاس ملتهبة تحرقُ خطوط العقل، أوصد عيونه ثم ترك كفه

يهمس على جسدها المشتهى ذهاباً وإياباً بأسرار هواه. كف شره لا يشبع، أنامله الملهوفة تحاول حفظ نكهتها، رائحتها، تعاريجها. أصابع مرتحلة تسافر وتعود دون كلل من أعلى قممها لآخر ظفر فيها، شفاه أصابعه تُشغل غُلمته، تطعمها وبعد ساعات من الترحال الثمِل ضمها إليه ثم حلق صوب مملكة الغفوة الزرقاء، مطمئناً أنها له وبين ذراعيه إلى الأبد. ضحك الطبيب بسخرية مكملا:

– أي أبد هذا أيها الأحمق وهل تُمنح الأبدية لأمثالكَ، أتعرفين ما الذي يتجسدُ أمامي الآن، صورته الدخانية البيضاء يقتربُ ممسوساً بها، يقطفُها، كفه المرتجف يطبق عليها بجنون اللهفة، تدويرة قدها تزداد توهجا تصعق عينيه، أنفاسه تشتعل، تغدو صرخات جائعة لاهثة بلا عقل. يتدفق شلال ريقه ويبلل روحه المتلهفة، كلما اقتربت تزداد ارتجافته، والطريق إلى شفاهه يستطيل ويكبر، أخيراً لامست أسنانه جسدها، قضمة الخطيئة المقدسة، وكلما ازداد ولوج مائها في داخله تساقطت الأشجار من حوله، كلما ابتل حلقه من دمها الشهي تدحرج الجمال نحو حتفه وبرزت ملامح سوءته. ما كاد سكرها يذوب في رضابه حتى استحال الفردوس رماداً وهو المسكين لم يعد الكائن الذي يعرفه، آدم[٤١] الذي أضاع جماله وأضاع تفاحته، وها أنا اليوم ابنه المطيع في خطاياه، أضعتها.

(٤١) هو شخصية من سفر التكوين ، والعهد الجديد ، كما ورد ذكره في القرآن ، وكتاب مورمون وكتاب الإيقان . وفقاً لقصة بدء الخلق في الأديان الإبراهيمية ، كان آدم أول إنسان .

الذاكرة ابتلاؤه، ظنَ للحماقة الأولى أنه رُزق النسيان. أعادته «نور» إلى سجن أوجاعه بلا قصد. عيونها وكلماتها أيقظت ذاكرة لهفته ثم رحلت صوب اللاشيء تاركة إياه عارياً بين فكي صدمة أخرى.

يتنهد دمعه المسجون تحت مآقيه المتورمة، يُعدل نظارته ليثَبِت الوجع وتُدَحْرِجُه الذاكرة صوب زنازينها.

تمتم محدثا «نور»:

اسمها «مريم» عيون لوزية الدفء تحلق بين غيمات ناصعة. اصطدمنا بلا قصد روحا وجسدا، فسقطت أكياسها ومن بينهم قلبي. كنتُ شابا أَطلق شاربه محاولا رسم رجولة مبكرة فوق شفاه الخمسة عشر ربيعا، وهي حورية خرجت لتوها من براءة القصص، تركتْ نبضات قلبي المجنونة تصرخ وهربتْ مسرعة. احتاج الأمر مني عدة أيام لأدرك أن هذه اللوحة المخملية الهادئة أسيرة المرض والعزلة.

– لستُ غريباً يا «مريم» لتخشيني، أنا نصف روحك الآخر.

أَحشو فمي بالوعود وتتقيؤها الحياة في وجهي جثة تلو الجثة.

ما الذي يعنيه كسر جدران عزلة فتاة احتمت بصمتها منذ ولدت لشابٍ ألهبه الشغف؟

لا شيء. غمغم الطبيب بحرقة.

طالما أشعلتْ تلك الجدران شغف الشباب المهووسين بانتصاراتهم المستقبلية، السؤال الأدق، أكنت شغوفا بها أم بكسرِ صُندوق العزلة والعبور صوب عمقها؟

لم يكن مثلي أحد، تميزتُ بها يا للسخرية!

– الإنجاز الحقيقي كان قتلُها أيها الوغد، لولاك ما وارى عطرها التراب.

صرخ الطبيب في صورته المنعكسة على زجاج النافذة ثم أكمل:

– تبقى الأزهار حية على أغصانها طالما حماها الشوك من الحمقى، حتى يأتي ذلك الكف المحصن بلامبالاته أو بشغف الزهو ويقتلها.

التفتَ الطبيب إلى جسد «نور» الصامت وراح يُحدثها:

– كنتُ في العاشرة حين دخلتُ على أمي غرفتها بيد مملؤة بشتى أنواع الزهور وألوانها، سعيداً فارساً لا يقل وسامة عن فرسان الأفلام الكلاسيكية، يُهدي إلى سيدة قلبه الكثير من الزهور بيد نازفة، غُرِزَ الشوك بأصابعه والتصق دمه بالشوك.

تبدلَتْ ملامح أمي وكانت المرة الأولى التي أراها تحمل مثل هذا الغضب. صاحت بي: أتقبل أن ينزعكَ أحدهم من قلبي وبيتنا مهما كانت أسبابه؟

أصرتْ أمي أن أحفر قبر الزهور بيدي وأواريها التراب، أي مشهد مقيت قاس هذا، جثث ممزقة لأحد أيقونات الجمال!

ظننتني فهمت الدرس يومها لكن كما يبدو أخفقتُ وكررتُ خطيئتي، مضاعفة نسبة لحجم الأعوام التي مرت، دفنت قلبي مكتمل الجسد.

لِمَ علينا القبض على الجمال والعبث به، ألا نكتفي بمتعة النظر؟

مريم هي ميموسا بوديكا[٤٢] خاصتي إلا أنها لم تملك عودة ما بعد اللمس.

أسند الطبيب رأسه على الحائط وترك لعيونه حرية الغوص في أفق الذاكرة كي ينعم ببعض «مريم» المختبئ فيه.

***

اسمها «مريم».

أجابت أخته بعد ساعة من الوصف.

– لا أنصحكَ بالاقتراب منها، إنها سجينة عالمها لا تغادره ولا تُدخل أحدا.

نثرت الجملة في وجهه وغادرت. ما الذي يثيره في فتاة لا ترى سوى أفقها؟ ولا تُشغَل بغير أزرقِها؟

مرتْ أيام وهو منغمس تماماً بها حد الالتحام. لم يترك معلومة عنها تمر، راقبها سأل كل من يعرفها. صُدم أكثر من مرة بالسؤال المعتاد:

– لمَ تُعرها كل هذا الشغف؟

لم يكن تجاهله السؤال استعلاء أو سراً وإنما هو لا يملك أية إجابة.

---

(٤٢) نبات ميموسا بوديكا أو ميموزا بوديكا (Mimosa Pudica) يشتق الاسم العلمي من الكلمة اللاتينية (بوديكا) أي الخجولة/ العفيفة / المنكمشة ، أيضاً يطلق عليها اسم النبتة الحساسة ، أيضاً (لا تلمسني) ، وهي أسماء شائعة .

حاول إيقافها أكثر من مرة، بحجج وبغير حجج، لم تستجب. تحولتْ إلى شغله الشاغل طيلة أشهر حتى نفد صبرها.

– فيمَ كل هذا الهوس لماذا تلاحقني؟

– أحبكِ وأُريدكِ زوجة.

عقدت المفاجأة لسانيهما معا، توقف الوقت مشدوهاً وأرسلت الشمس دفقة من ضوئها نحوهما في مشهد مسرحي رومانسي، كادت أشجار الطريق تصفق له وتنحني الأغصان لولا ردها الذي جاء شاحباً خافتا في حلة الحزن:

– لا أستطيع الزواج بأحد.

انتصب واثقاً وقذف وعده الأول بكل سذاجة وغباء.

– أعرف كل شيء ولا أكترث إلا بكِ.

ذات مرة قال صديق لي: الجمال هش جداً أمام مسخ الحياة البشع بتقلبات مزاجه وجنوده البشريين. لمرة أخرى لا أتعلم درسي وأخوض تجربة دفعتُ ثمنها روحي المتجسدة بها بلا شفقة أو رحمة.

لاحقتها كظل، رميتُ صنارة الحب وخرجتْ محملة بها. عارض أهلي فتجاوزتهم غير مكترث. حاول أهلها أن يثنوني عنها خوفاً وحرصاً على ما كانته. أقنعتُ وبررتُ، رسمتُ حجج حبي قوية، ولونتُها بدراستي علم النفس مدعياً حمايتها. انكسرتْ جُدران العالم تحت ساقين فولاذيتين صممتهما لدكِ كل معيق في طريقي إليها وانتصرت. حصدت حبها وقبول أهلها المرتاب ورضا أهلي المتزعزع. تزوجنا وذلك آخر ما جنيتُ من انتصارات. أشاح

الطبيب ببصره عن أفق حكايته الممتد وعاد إلى أوراق «نور» هربا من جمر إلى جمر.

***

حزن عميق ينهش قلبي، حزن لا يملك أدنى نكهة أو رائحة، يشبه تماماً المشهد الذي يراه الكفيف منذ الولادة. لا يرى شيئاً لكن ذلك لا يحبس التدفق البصري والمشاهد المتحركة عن العالم. يسمع وصف التفاحة ولونها، يعرف أن ملابسه المختلفة تحمل صورا وتُمنح انطباعاً من الناس «تُرى». يحفظ أسماء ما يحيط به رغم جهله بتفاصيلها، لكنه يصفها وفق رواية الناس في وصفهم لها. يُدرك وجود الأشياء رغم فَقده لكل صورة تحملها، وهذا الأشد مرارة، أن تُدْرِكْ.

الحزن يُدْرَكْ، أعيه تماماً الآن وأنا أخلعك عن قلبي كرداءٍ مستهلك، وأقتني ثوبا جديدا له ملامح مختلفة، ملامح رجل، كيف أشرح لكِ بأنني سلمتُك له؟

سلمتُ أثرك، كل ما أخفيته من أجلك، رائحتك، انتظارنا وأوجاعنا. مؤخراً لم أعد أذكر ألم الجلد إلا حين ألمح ندباته تستوطن جسدي. يطاردني سؤال أجش الصوت، كيف ستبررين لها ما فُعل بكِ أو الأدق فعلتك تلك؟

فيجيب حالي ساخراً لن أحتاج أية إجابة وقد سُلِختُ عنها وسُلِخَتْ عني، هي لا تملك حق السؤال وأناي ليست مضطرة للرد، قد لا نلتقي أبداً.

نعم لن نلتقي أبداً، هذا ما آمنت به في تلك اللحظة.

أتذكرين دوائر الروح التي طالما جمعتنا رغم غيابنا الفيزيائي، اليوم فقط كسرتُها. أجهزتُ عليها في اللحظة التي ارتديت قميصي هذا واستلقيت بجواره ليكسرَ قيدكِ الذي طالما التفَ على روحي وجسدي.

– عذراء؟

حالتي لم تسمح لي بالإجابة، اكتفيت بالصمت الموحش، صمتٌ قديمٌ بالٍ قِدَم وجعي وتكراري.

– وزوجك والفتيات؟

– احتفظتُ ببكارتي لأجلها.

بلا تتمة أو هندمة ألقيتُ ردي أشعثَ، حمل دويا صامتاً ووقعا كارثيا أصابه بالغصة، قلبَ وجهه واستسلم للهروب الأصغر النوم.

أتظنينه نعمة أقصد العمى، ترسم للأشياء أشكالاً وحدكَ تملك حق التصرف فيها، صوت أحمر، رائحة أرجوانية، تُعيدُ صياغة لغتك ومشاعركَ وفق منهجكَ الخاص. أتشتبهين بأنني أتمتع بحزني؟ كرة صوف، أحله وأجمعه مرة أخرى؟

ربما أفعل لا أملك تكذيب أو تأكيد الأمر، أتدرين لِمَ؟

لأنه لَمْ ينبع عن اختيار لقد بُليتُ به. من الرائع ممارسة بلائكَ والتعايش معه، الحزن ممتع ومضحك، ساخر أحياناً كحالي في هذه اللحظة الحامضة، إذ بعد كل هذا الصمود فشلت. سأخفض صوت عقلي لا أريد أن يسمع «زوجي» هذا الكلام، إنه سرنا وحدنا.

نعم، كما توجستِ لم أشعر بشيء مطلقاً، على النقيض لقد

تألمتُ وروحي تئن مما حدث، تنزف دما خفيا يشبه حزنها.

توالت المرات وتوالي اللاشيء المؤلم. في أول الأمـــر بدا «أحمد» متفهماً، شهراً بعد شهر صار لغضبه شكل جليّ وتذمره اتخذ حجما ضعف حجم صبري.

– أنتِ ثلاجة باردة، لا فائدة منكِ، ماذا أفعل لكِ أكثر؟

***

كيف لهذا الثبات أن يكون حاداً لدرجة قتلي؟

كيف للأفكار أن تتهشم والعقل يُصلب على مذبح المشهد الواحد «موتها».

لو علمتِ كم أوجعني رقادكِ يا «نور» لنفضتِ غيبوبتكِ المجهولة هذه وقفزتِ عائدة تطبطبين على ذاكرتي. تخبريني أنكِ لن تسمحي للوجع أن يتجسد أمامي في بشاعته، مكرراً دناءته هذه على قلبي.

مرت السنين لكن موت «مريم» يقف تمثالاً مقدساً يحول بيني وبين النسيان. ثرثرة في عقلي/عقلها، أنقاض صوتهم لا تنضب، تنجب عفاراً حالكا يلوث مبسمها.

– سيتزوج عليكِ.

– يحتاج ولدا يحمل اسمه.

– المسكين ماذا جنى ليُبتلى بكِ؟

أيني وأين وعود الدعم والمساندة؟

الكلام يخلقُ منا آلهة والفعل يُعرينا أمام الجميع وأولهم نحن. تجاهلت/ سئمتُ/ شُغلتُ/ هربتُ لا أدري أيهم. لكنني انغمست

في دراستي ثم عمليّ ثم مرضاي، ثم، ثم. تكرارات من ثم حتى آخر المدى. ببساطة تخليتُ عن قهرها وتركتها وحيدة تلطمها الألسنة.

هرمتُ وابيضَ قلبي إذ علمت بخبرها.

– مبروك ستصبح أباً.

– من أخبركم أنني أريد الأبوة أريدها هي فقط.

فات الأوان عليها أن توقف علاجها أو تنجب طفلاً مشوهاً.

لقد أنجبتني من جديد، مشوهاً. موتها قتلنا جميعاً.

نوبة صرع[٤٣] أسقطتها على حافة حادة، دماؤها على يدي لاتزال تنبض حياة. ترَكتُ ابني المسكوب دماً وحملتُها إلى رقادها الأخير. سرير يحمل صورة سريرك هذا وأجهزته وصمت كلتيكما.

– يا صديقي لا أمل سنطفئ الأجهزة عنها.

أطفؤوني وحرروها، خرجتُ بعائلتي كاملة وعدتُ وحدي بلا روح، بلا حبيبة، بلا ولد، ولا تزال أصواتهم تطن.

– من حقكَ أن تنجب.

أي حق يسلبني حياتي ويترك لي ذاكرة وأشلاء روح تهشمت؟

كيف أقنع الحياة الواحدة أن تهبني الحياة كما ينبغي لها؟

إن كان لا بُد من عمر فليتخطَّ مفهوم الزمن الوهمي ويمنحنا

---

(٤٣) الصرع هو اضطراب مزمن يصيب الدماغ ويتأثر به الأشخاص في جميع أنحاء العالم . ويتميز بنوبات متكررة ، هي عبارة عن نوبات وجيزة من الحركة اللاإرادية .

أنفسنا كاملة، أو يحمل هبته ويرحل بنا كمن خلَّفتهم سفينة نوح، لكن الجرم هنا هو ذاته مطلبنا، حق خالص في الحياة.

***

خيوط دخانية غلاظ شداد تُلقى على الروح من كل جهة، تكبلها، تُضيق الخناق أكثر ولا تجد أية وسيلة للفكاك منها. تحاول الصراخ عبثاً، الأرواح شفيفة لا تملكُ صوتا، تتواصل عبر دوائر الطاقة. استدارت نحو منبع الخيطان «أحمد» المنهمك في إخراج المزيد من جيوب بنطاله، يلقيها ثم يعيد حياكتها، صياد يجيد ترقيع الشباك والإيقاع بأسماكه. نادته، توسلت إليه لكنه لم يعرها أي استماع. يُكمل بجد متجاهلها كأنها خارج دائرته. مجرد صيد لا يكترث به، خُلق بلا هوية أو فراده، فقط مجبول بطاعة سيده.

– ظننت لوهلة أن الرحلة الأثيرية هي حرية مطلقة لكن يبدو أن القيد بطل أساسي في كل الرحلات والحكايا، ولا خيار في ذلك.

***

عام بأكمله مضى يا للسخرية، لا تغيرات جوهرية، المزيد من الانحطاط والانحدار نحو أناي الزائفة التي لا تشبهني. عام أُشبع باعتقال روحي على ذمة جريمة مجهولة لم يثبت فيها شيء. حاول وفشل، دائماً وأبداً أنا المجرم المتهم. حاولت مساعدته، حاولت التلبس في فكرة المرأة، ملابسها حركاتها انفعالاتها وفشلت فشلاً طويلاً. سقوط من ارتفاع شاهق إلى مستنقع المشكلة، التي رغم وضوحها، طليتها بطين جهل مُدّعى. تحولتْ زيجتنا إلى كابوس لا

خلاص منه. حاولت التخفيف من وطأته عبر التمثيل، أشعر بالغثيان وأنا أكتب لكِ هذا الشق المقزز من حياتي.

زواجي به كشف غطاء موهبتي في التمثيل، أصبحت كاذبة بجدارة، ويا للقهر حين يصبح الكذب الوسيلة الوحيدة لاتقاء شر الحقيقة الجلية، والهروب عبر رمال مائية سوداء حارقة. لوهلة صدقَ أنني أتمتع على فراشه بذكورته -أراد التصديق- لا أكترث. أما أنا فكنت أدثر حقيقتي بفراشه، الملوث بالزيف، أمارس امرأة لستُ أنا.

أحياناً تمر بي كلمات الفيلسوفة جوديث بتلر(٤٤) عن كون خلقنا بيولوجيا «إناثاً» لا يعني أن تلك هي هويتنا الجندرية، وأن هناك فرقاً بينهما. إلى أية درجة يشكل الجندر الخاص بنا -هويتنا أو ميلنا الجنسي- عملية ذاتية الانعكاس ، وكيف نقوم ببناء أنفسنا كي نصبح من خلال تلك العملية الجندر الخاص بنا ذكراً/أنثى؟

ببساطة أكثر، كيف أصبحتُ ما أنا عليه وهل يشترك المجتمع في تشكيل ما وصلت إليه؟

لا أذكر شيئا عن مجتمعي يُفيدني، ولا أظن هذا الوعي سيغير ما أنا عليه. كل ما أملكُ فعله الإكمال من أجل طفلتي، لقد أنجبت فتاة جميلة يا «صفاء» هل تصدقين هذا؟ دور تمثيلي جديد، عليَّ لعبه دور الأم. لا تجعلي حديثي هذا يوهمك بعدم حبي لها، على العكس أُحبها كثيراً. تذكرين حبي للأطفال، نقاؤهم يخطفني، يمنحني سلاما، أب/ أم لا أدري أية كينونة لعبتُ. جُب التيه يُمعن

---

(٤٤) جوديث بتلر (مواليد ٢٤ فبراير ١٩٥٦) ، هي فيلسوفة أمريكية .

في ابتلاعي، يربكها ويرهبني، لم أمنحها حنانا بقدر ما منحني حضنها الدافئ ملاذا ومأوى. بجوار هذا السلام كُلفت بمهمة أصعب، تجاهل غيرة «أحمد» المجنونة وغضبه الثوري كلما لمحني أُحدث امراة رغم وعدي له بالإخلاص. بات ذلك مرضه الذي لا سيطرة له عليه. بعد تفكير عميق استنتجت أن بقاءنا في مجتمع منفتح سيزيد من حدة خوفه دائماً، ويسهم في استمرار المشاكل، لذا أقنعته بالعودة إلى بلده كون بلدي ليس مكانا آمنا لإقامة طويلة. لازلت مطاردة يا «صفاء» رغم كل ما قدمته من تنازلات وتضحيات، رغم الوجع الذي بات أقرب أصدقائي لي. وجع مرير لا يتركني كتلك الأحلام والكوابيس التي لم تُقلع يوماً عن اجتياح مناماتي المتقطعة. عُدنا إلى بلده ولم يتغير شيء.

تركتْ لي السيدة شركة كاملة باسمي، قررتُ فتح مؤسسة خيرية من ريعها لمساعدة الفقراء، أديرها بنفسي علَّها تكون الوسيط بيني وبين الله. ربما يسامحني إن كنت خطيئة ويعينني إن كنت غير ذلك. لا أملك جوابا أطمئن به روحي المستنزفة.

لم تهبني الشركة مالا فقط بل سببا وجيها للعودة زائرة لبضعة أيام كل أربعة أشهر. التقيت بـ «مها» في إحدى تلك المرات وتكررت زياراتي لها. الحياة ملتْ روتين صبري كما ملَلْتُه، فقررت حياكة قصة جديدة تنازلني بها. تمتحن هذا الصبر والصمود، صبورة مثل أفعى عجوز ببطء تُحوك المكيدة.

عام تلو عام، كبرت ابنتي «سما» وكبر وجعي وتملكني اليأس. لا شيء يداوي بؤسي الأزلي، لم أعد أطيق هذا الرداء الأبيض

الزائف الذي طالما هربت منه ولحقني.

كوابيس، أحلام، هواجس، أسئلة، ذكريات واحتياجات. يطوف بي كل شيء ونقيضه كأن لي أجساداً ومصائر عدة. الطريف أن البؤساء يعرفون بعضهم بلا علامة أو إشارة. يجمعهم بؤسهم في دائرة مشاعر واحدة. في آخر زيارة لي التقيت فتاة في صالة انتظار الأمتعة ترتدي حذاء يشبه تماماً الأحذية التي تُحبينها، تقدمتُ لأسالها عن المتجر الذي ابتاعته منه. وصفتْ لي المكان باختصار وأشاحت بوجهها منشغلة عني بالبحث عن حقيبتها. لمحتُ ندبات يديها، آثار جروح شفرة حادة تشبه التي على ساعدي، إراقة دماء على سبيل التدريب أو للتخفيف من أوجاع الروح عبر استبدالها بأنين الجسد. كلما زاد قهري كنت أضيف خطاً دامياً آخر. كل امرأة مرت بي ثم غادرت حلت محلها علامة في يدي. لكن ندبتك حملت الجرح الأعمق والضربة القاضية. ساعِدُ الفتاة المجهولة لعب دور تأكيدٍ جسدي على روابط البؤس الروحية. هي لم ترَ خاصتي إذ أخفيت عنها ساعدي، لكن شعورها بي لسعها فخرجت هاربة من المكان بلا شرح أو تبرير. هرولتْ نحو الخارج المجهول مدفوعة بشيء خفي لم تمنح نفسها وقتا لفهمه. وأنا لم أشرح، آخر ما أحتاجه علاقة عابرة أنقضُ بها وعودي الباهتة لنقيضين زوجي وما تبقى من أنتِ.

قبل مغادرتي المدينة قرأت إعلانا فيسبوكيا عن مشفى نفسي خاص شُيد بجوار بيتكِ. بلا تردد دخلته وتركتهم يراسلون زوجي يُخبرونه بنزولي هناك لفترة مفتوحة. لا أدري أية جرأة دفعتني

لذلك، ربما هي الشهقة الأخيرة ما قبل الموت. جاء كالمجنون يجر غضبه المنهك وحبه، تاركا ابنتنا ذات الخمسة أعوام مع مربيتها كي لا ترى والديها في هذا المشهد البائس. مشهد قادر على تدمير براءتها وجمالها إلى الأبد.

ثَمة حُب عميق يختفي تحت جير الحياة وإشكالاتها، لا يظهر إلا في لحظات الخوف الشديد من شبح الفقد أو النهاية. رأيت «أحمد» في وجهٍ لم أعهده، دخل غرفتي بعد وصولي المشفى بـ اثنتي عشرة ساعة راكضا. ارتمى في حضني وبكى بشدة. «الرجال أطفال» هكذا تصفهم أمي، دائما حيرَتني في صمودها أمام غضب والدي وعصبيته المفرطة، وكلما سألتُها عن كيفية احتوائها هذا كله بصمت تجيبني بتلك العبارة المبتذلة السخيفة. تُوقفني الأيام أمامها لأختبر كل ما رفضت الإيمان به بل وممارسته أيضاً.

– أنا لست بخير.

– أنا وابنتك لسنا بخير في غيابك.

– أرجوكَ لا أَستطيع العدول عن قراري لا تبدأ بهذا.

أشاح بوجهه عني وتمتم بصوت مغطى بالأسى والخجل.

– عودي معي وافعلي ما تشائين، فقط لا تخبريني ولن أسألك.

– إياكَ والحديث عن هذا، ألم تسأم التفكير فيه؟ ألا تعي أنني لم أعد أملك قدرة على ممارسة فعل الوجود بأكمله؟ أنني أُنهكتُ تماماً؟ لماذا تُصر على جعلي رخيصة رغم أنني لم أخنك يوماً ولو بفكري؟

– أتوسل اليكِ لا تغضبي لقد كانت مجرد محاولة.

– أرجوكَ غادر لا طاقة لي على الإكمال، أنتَ تستحق امرأة حقيقة وللأسف لست أنا.

أفكار كثيرة تدور في رأسي، بلا وجهة أو مرسى. لا طاقة بي على احتمال أية علاقة معه، لا قدرة لدي على تلبية رغباته وإسعاده. ما ذنبه في كل هذا، ما ذنب ابنتي لتكبر في بيت بني فوق بركان خامد، يثور حِمماً يوماً بعد يوم وينبئ بعاصفة حارقة، تعبت.

أقف في آخر نفقي، قطعت مسافة رهيبة حتى وصلت، عايشت جرعات ألم دنيئة دناءة الحياة وخستها. تشبثتُ بكل أمل راود يأسي، تمسكتُ بهشاشتي وهِمتُ في ممراتها علَّ شيئاً ما يزيح الأسى عن سوادي، يُتيح للشمس فرصة إنارة ما تبقى. ظمأ أُفرغ ماؤه حتى جف، يمتلئ بلا زيادة أو شبع، يتجدد، يورطني. أنحدر أكثر في هاوية شاحبة، فصول مني تؤكد أن لا مهرب من الألم ولا غد سيشرق بحياة شبه عادية تُنصف روحي البائسة.

حاول الأطباء دفعي إلى الكلام والاهتمام بصحتي، لكنني فقدت أسباب الحياة تدريجيا. في البداية توقفتُ عن الكلام، حاول الجميع حثيّ على أية استجابة. طبيب يتلوه آخر، وجوه مختلفة وأساليب متغيرة بلا جدوى، جسدي يهرم ووجهي يزداد شحوباً. أقتات على وجبات خفيفة كي أتمكن من تناول علاج الاكتئاب من دون أن تؤلمني معدتي. تطن في رأسي كلمات

سيلفيا بلاث[٤٥] التي استهلت بها يومياتها «ربما لن أكون سعيدة أبداً لكنني الليلة راضية، لا شيء سوى منزل فارغ وإرهاق غامض دافيء من يوم مقضي في زرع سيقان الفراولة»، لن أكون سعيدة أبداً، هو إدراك متأخر للراحل والقادم مني، سبقَتني إليه وهي في الثامنة عشرة من عمرها. لا أدري أي فارق كان ليحدث لو أدرَكْتُهُ مبكراً مثلها. هي الحياة في جريانها لن تعجز عن إيجاد طريقة لدفعي عبر معتركاتها، لكنني هذه الأيام راضية، لا شيء يحيط بي سوى صمت الجدران والشراشف. الصمت والنوم المفرط، وخيبة أمل الأطباء الذين توقفوا بدورهم عن اقتحام قصتي خشية الفشل القابع في أرجائها. كل شيء ببطء يتحول إلى ظلال، الوجوه العتيقة والعابرة، الأفكار الناعسة، الفجر العليل، دفء الظهيرة، نسيم الغروب، سواد الليل الغافي صورا على بياض قمره وتلألؤ نجومه. الأُرجوحات، صوت ابنتي، الأشجار، البيوت، حياتي أضحت مجرد أشباح تهجرني، تُحيلني إلى بيت مهجور بارد بالٍ، مستسلم ينتظر مصيره غير آبه بشيء رحل أو سيأتي.

أيام تتوالى وضوء الشمس لا يجد سبيلاً لعيني. أنا شيء ميت ينتظر موته أو ينتظر خطة خارقة جديدة تصنعها الحياة لأجله، تعيده بها إلى ساحاتها أو تعود هي لجمع القمح ودرسه. لم تخيب ظني كعادتها، أرسلت صاعقة كهربائية شديدة في هيئة رسالة.

---

(٤٥) سيلفيا بلاث شاعرة وروائية وكاتبة قصة قصيرة أميركية .

صـديقـتي «نور» لم أسـمع منكِ منذ عـدة شـهـور، أتمنى أن تكوني بخير، أكتبُ لكِ لأخبركِ بأمر قد يهمك، عادت «صفاء» إلى بيتها القديم برفقة أهلها. سيستقرون هناك، هذا ما أكدتُه لي قد نذهب سوياً لزيارتها يوماً ما.

مها

الصدمة شعور لم أختبره منذ فترة طويلة، ها أنا أقف وسطه بلا حراك. طفلة يتيمة علِمتْ للتو بامتلاكها أماً وأباً. الوالدان هما مدينة آمنة تستريح أرواحنا فيها في هدنة مع الحياة الباردة. مستراح مخملي دافئ نجلس فيه عراة بلا خوف، أو على الأقل هذا ما يجب، لكن في حالتي لعبتِ أنتِ دور الوالدين والحبيبة بل وأبعد من ذلك، كنتِ الوطن.

أنهكتُ المرآة والوقت في ارتداء الملابس ونزعها. أنا على موعد مع الحياة التي طالما سكنتني وقسراً هجرتُها. تلاشت عُقدةُ المرآة للحظات، ذابت تحت وهج لقائك ثم عاودت الظهور بقوة، جسراً يُسلمني لأنياب أسئلتي الشرسة، ليس الآن.

انطلقتُ بلا وعي نحو بيتكِ وكل تلك الصور الجميلة تجول بي، فردوس اللقاء، العناق الطويل، العودة إلي.

مساحة بيضاء فارغة أخرى تودي بي إلى هلاكي، تُشبه تماماً اقتناء البشر للأزهار. لا يكتفون بمراقبة الجمال بل يسعون لنزعه عن الأرض وتقييده في أوراق مبهرجة، مراقبته يموت تدريجياً بحجة تبادل الحب. أي دعوة للحب تنمو على مقابر الجمال! كم تشغُلني الزهور ببراءتها ودناءة البشر تلك التي احتسيتها للتو سماً قاتلاً، ينهي كل هذا الألم والبشاعة.....

***

جمعتنا الأزهار في دائرة واحدة، وكأنك حلقة الوصل بيني وبين غياب كليهما «أمي» و«مريم» كيف أعيدكِ؟

لا أحتاجُ منكِ سوى البقاء في هذا العالم الكئيب الفارغ الذي أسرني وحيداً ورحل بكل من أحببتهم، بكل من انعكستُ بهم وتركني بلا ظل، إنسانا باهتاً يمنح الجميع الأمان، يسمعهم ويدعمهم ويفشل في إيقاظ نفسه. مجرد جسد بلا روح، روحي واراها التراب، دُفِنَتْ قلادةً على صدر «مريم».

الحقيقة الكاملة (الحادية عشرة)

الحياة كلها عبارة عن لحظة واحدة فقط، تلك التي تكتشف فيها من أنت.

بورخيس

تنتفضُ الروح مُحاولة التخلص من الخيوط الدخانية سدى، خيوط رقيقة تزداد عِناداً وتعقيداً. الزوج مستمر في قذف المزيد من الخيوط، تتملص الروح عبثاً، تتحول إلى كتلة دخانية بيضاء يشوبها الرمادي. أيقنتْ باللاخلاص، استدارت حولها ونظرت إلى «صفاء» التي تجلس صامتةً ثابتة ترسل ابتسامتها بلا معنى وكأنها صورة GIF[٤٦] متحركة. انتقلت الروح بنظرة غاضبة إلى السيدة، وما إن التقى خافقهما حتى أرسلت الروح استغاثتها نظرات متشبثة بأمل ميت. اقتربت السيدة بوقارها المعتاد وهمست بصوتها الدافئ الأجش:

---

(٤٦) جي آي إف (بالإنجليزية : GIF) وهو اختصار لـ«Graphics Interchange Format» أو نسق الرسومات المتبادلة هو الامتداد الأشهر في (الإنترنت) وهو يدعم حركة الصور لكن لا يصدر عنه أي صوت .

– نور الحبيبة أنتِ تقيدين نفسك بالإفراط في الحب والكراهية، حرري ذاكرتك، أنسلي خيوطها، اغفري، مهِّدي للنسيان طريقا صوب قلبك كي تتحرري. خلف أسوارك ينتظر مرج هواء عذب يتدفق، أمواجه تأخذكِ صوب الراحة الأبدية، حرري الذاكرة، اغفري الحب، اغفري الكراهية.

ذابت السيدة في سحب الأفق، فتحت الروح يديها، انهارت الخيطان، سقطت، أُصيب عالمها بإعصار مروع، كل شيء ينهار يذوب، الأرواح تسقط داخلها باستثناء «صفاء» العالقة في ابتسامتها الثابتة غير المنتهية.

– أيتها الأرواح العالقة بي اذهبي إلى جحيم المغفرة، افرطي لؤلؤ قربك على بلاط البعيد، دعيني.

اتسعت فوهة الفجوة أكبر، الجميع يتساقط في قاع لا قرار لها، يمتص كل شيء حولها كمكنسة كهربائية تجمع أوزارها البشرية. بدأت الروح تعي ما يحدث، مدت يديها الوهميتين في كل اتجاه محاولة إعادة سجنائها القافزين نحو تحررهم بلا جدوى. لا شيء يوقف النهاية، جُنت الروح أكثر، فهي تخاف الوحدة، ترتعش وتصرخ:

– لا تتركوني وحيدة أنا خائفة أرجوكم، منحتكم الحرية كي تمنحوني السلام.

ما كادت الروح تلتفتُ خلفها حتى صُدمت بالطبيب يقف أمامها وجهاً لوجه.

– أنتَ؟

- لا أعرف كيف؟
- هل عليكَ معرفة كل شيء، هل نملكُ كل هذا أو نستحقه؟
- أرجوكِ أكملي لي ما حدث، الأوراق ناقصة؟
- أتظن ترك مثل هذه الحياة يحتاج أسباباً؟
- أريد مساعدتك.
- وأنا أريد السلامَ، الهدوء والنوم أشياء ليست بمقدرتكَ، كلنا عاجزون، مهانون، منهكون، مهترئون، مجرد قمل على رأس حياة صلعاء صلبة.

أشاحتْ الروح وجهها عنه ونظرت إلى «صفاء» اقتربت منها وكأنها ستخبرها بشيء ثقيل، تلقيه في وجهها.

- أتودين حقاً الإنصات ومعاودة ما حدث؟

***

- هل تعرفُني؟

أفاق الطبيب من غفوته على المقعد مذعورا.

- لقد كنتَ تناديني، هل أنتَ زوجها؟

- صفاء؟

لا يعرف كيف تسلل الاسم له، لمَ نطقه وكيف دخل إلى عالم «نور» والتقاها. هل كان يحلم أم يهذي، أهي قلة النوم والأكل؟

- ما الذي أصابها؟

نظر إلى وجه الفتاة الواقفة بجواره، وجه ناعم دافئ يخالجه ألم، فَتِي لكنه ملوث بالوهن والخوف.

– هل ستكون بخير؟

عدَّلَ الطبيب نظارته، ثم وقف محاولاً منح نفسه هيئة اللقب الذي يحمله.

– لقد انتحرت، تناولتْ شريط مهدئات كاملاً ولم يكن هذا هو المشكلة الحقيقية لأن آخر أثر له ذهب في عملية غسيل المعدة والاسعافات التي تلقتها إثر وصولها، لكن المصيبة تكمن في أنها لم تكتفِ بذلك بل مزقت شريان يدها اليسرى بسكين مما أفقدها الكثير من الدم، وحال بين تدفق كمية كافية للمخ لتدخل في غيبوبة لا نعرف متى ستنتهي أو إن كانت ستنجو منها، بالمناسبة أنا طبيبها النفسي.

انهارت الفتاة تبكي بجوار جسد «نور».

-أرجوكِ لا تموتي، لا تُسقطيني في شرك الضمير، يكفيني ما يخالجني، لِمَ لا تتفهمي.

– إذن فقد حدث بالفعل.

أصابتْ كلمات الطبيب «صفاء» بصدمة جعلتها تقف متجمدة، مسحت دموعها بسرعة ونظرت إليه بصرامة.

– إسمع يا هذا أعرف ما المغزى من مهنة الطبيب النفسي، هو مجرد شخص متمرس في سلب الأسرار ومنح البعض القدرة على التفوه بهذيانهم الشخصي، ومنحه شكلا وجسدا بينما هو في الأصل وهم.

– لحظة أنتِ تسيئين..

– دعني أكمل، كل ما هذت به «نور» مجرد وهم، لم يحدث

شيء بيننا وقد أخبرتها. لِمَ لم تعالجها بدلا من تركها ترميني بكل هذه الادعاءات، بدءاً برسم وجهي حتى آخر تلك الهرطقة اللاأخلاقية كما و..

ما كاد الطبيب يسمع الكلمة حتى صرخ:

الورقة، سرير المشفى، الأجوبة.

ثم قفز خارج الغرفة كالمجنون أمام ذهول «صفاء» التي فقدت السيطرة على دموعها مجدداً. تركتها هذه المرة تنساب أمام «نور» أو جسدها التائه في رصانته وصَمته غير مبالٍ بفقاعة الجنون تلك التي غلَّفت كل ما يحيط به.

***

– جئتكِ بسعادة وأمل يعجز الكون عن حملهما، أي مبرر يبيحُ لك انكارنا؟ إنكار كل شيء لتُجهزي على كائن قتلهُ العالم ومثّل بروحه. علامات جسد وعلامات روح أنتِ يا «صفاء» أتسمعين. تلك الندوب التي جزِعتِ حين ارتطمت عيناك بها على ظهري، التي بكت أصابعك اللاهثة في تجاويفها، أي قلب تملكين..

سقطت دموع الروح أمطارا خفيفة بين سحب خيالها، اكتشاف آخر.

– الأرواح تبكي يا «صفاء» وأنتِ ندبتي ودموعي.

كلمات تنزلق بصعوبة، تتعثر بشهقات القهر المتصاعدة نيرانا

من ألم الروح. ذابت عيناها في البياض الرمادي وأكملت ساردة.

طرقتُ الباب وجسدي كله ينتفض، هنا بدأت كل نظريات الزمن العبثية تتلاعب بي. أية قيمة يحملها الوقت حين نُحَمل على كتفه بلا سيقان !

خطوات أمك تقترب، قاسية تماماً مثل أبي، مثل أختك، أحد القوالب التي خلق منها المجتمع نسخاً عدة ذات جودة عالية، لاذعين مؤلمين، بالقوة نفسها. فتحتْ الباب، ففتحت سيول الدمع بي، بكاء لا شبيه له أصاب أمك بالفزع.

– ما بك يا بنيتي هل أستطيع مساعدتك؟

– انا «نور» زميلة «صفاء» في الصف الأول من المرحلة الثانوية.

أجابت بلكنة غلبها بعض الغضب:

– آه إنها أنت «نور» ما الذي تريدينه؟

– أحمد الله على عودتكم، أريد رؤية «صفاء» يا خالتي لقد هدَني الدهر، أنا متعبة وليس لي سواكم أرجوكِ.

– ادخلي سوف أعود بها.

غرفة المضافة بأثاثها قديم الطراز، الزمن البائس لَعِبَ بنا كل أنواع المقامرة، سرق نضارتنا واحتفظ بالأثاث طازجا شاباً مفعماً بالحكايا، قصصنا. دخلتِ وسلمتِ عليَّ مذهولة، وقت آخر هُدر في حديث لا أذكره، مجرد ثرثرة عن الزواج، الإنجاب، مجرد أشباح ستمنح أمك سلاما مؤقتا وتشق لطلبي صعب المنال طريقاً معها. الثرثرة أثواب ذات جيوب سحرية نخفي بها أكاذيبنا، أسرارنا وحقيقتنا. هكذا نشأنا نخافنا ونستتر منا، بياض زائف آخر.

– إذن لكِ عائلة وأطفال وعمل، أحسنتِ يا «نور» أنا سعيدة لأجلكِ، للأسف «صفاء» لم تكتمل زيجتها، فُسخت خطوبتها إذ اكتشفنا أن العريس غير سوي لكنها لا تزال شابة والحياة أمامها.

قفزتُ نحو كف أمكِ بين قدميها صاغرة أتوسل إليها.

– أرجوكِ يا خالتي أن تتركينا وحدنا قليلا. الحياة مزقتني ولا أملك غير صداقتها دواء أصف له جراحي وهمومي.

ارتابتْ أمك قليلا لكن توسلاتي المتكررة أفقدتها حكمة القسوة. جَرّتْ جسدها جراً خارج الغرفة حاملة معها المفتاح خشية إغلاقه من الداخل. واربته بحيث نكون بمعزل لا يتيح لنا سوى الحديث.

كشفتُ عن ظهري فتجلت ندبات الجَلدِ بقسوتها.

– انظري ماذا حدث لي في غيابك.

خرج عن ذهولك أنين ألم، بيد مرتجفة مصدومة تحسستِ الندبات وسط دموع كلتينا. ضممتني بقوة إليكِ، استقر رأسي وقلبي على صدرك. قصصتُ عليك ما أصابني منذ ابتعدنا قسرياً. وقاحة الأيام وأنياب البشر التي غُرزت بي وأنيابي التي مزقتُني بها. أسهبتُ في الحديث عن متاهتي العظيمة التي تبلعُني بلا ماء بل تمضُغني وتتمتع بدمائي المتدفقة في حلقها وأنتِ صامتة مصعوقة، ربما غير مصدقة. لا أجد وصفا لملامح وجهك المتجمدة في حالة تشبه خليطا من الفزع والحزن والشفقة.

ضممتِني أكثر إليك، استيقظ بي كل شيء. حُبكِ لا يشيخ أبداً رغم الشيب الذي تسلل عنوة بين خصلات شبابي. مُصابي

العظيم أنتِ. ارتجفَ جسدي، برودة العشق اللاذعة لفحتني، انهلتُ بقبلاتي الجائعة على عُنقكِ يسابقها لهاث أنفاسي المشتاقة. تجمدتِ في حميميتي المفاجِئة لحظة ثم دفعتني بقوة، أوقعتني أرضاً.

– هل جننتِ، لقد جُلدتِ طواعية كي تتركي هذا.

– أنا أحبكِ فقط ألا تفهمين، فشلتْ كل محاولاتي، هربتُ في كل النساء منك، تجاسرتُ على رفضي، جلدتُ وتزوجتُ رجلاً لكنني فشلت. لم أَحتمل أن أحتضر في كل مرة يقترب مني، لمساته ألف ميتة وألف جلدة، لا لعيب أو قسوة به بل لحقيقة بي، حقيقة أنني هذا الذي ألقيتِه أرضاً. لا أعرف إن خُلقت هكذا أو مسختني الحياة على هذه الشاكلة، طبيعية أو مريضة، والأدق لم أعد أكترث لأن ألمي كل يوم وكل محاولة يكبر أكثر. لم أستطع أن أكون امرأة لأي رجل أو لأي امرأة، في كل مرة لم أكن لسواكِ. كلهن أنتِ. أبحث في ملامحهم الغائبة عن عينيك اللتين رسمتهما في تلك الورقة أتذكرين.

– عن أي عبث تتحدثين؟

– اليوم الذي جئتِ لزيارتي ومارسنا فيه الحب للشهقة الأولى.

– لا أذكر أي شيء من هذا.

– يوم وفاة أحد أقاربنا حين تركَتني أمي مضطرة وحدي في البيت. فدعوتكِ وجئت ملهوفة طازجة مستعدة لقضمة الحب الأولى، عندما انتهينا رسمتُ وجهكِ على الورقة، ثم تركت

لشفتي وحضني إكمال اللوحة على دفء جسدك.

– لم ألتقيكِ بعد حادثة المدرسة التي حاولتِ فيها نزع ثوبي قسراً لولا صراخ أختي.

– ما الذي تقولينه، أنت تعرفين تمام المعرفة ببراءتي، أنتِ من منحني المنديل المبلل برائحتك.

– أعتذر لا وقت لدي لأضيعه في هذه الهلوسة التي هي أقرب إلى فيلم رديء، أنصحك بمسح هذا الهذيان عن عقلك، كفاكِ ما أصابكِ، وأنا من جانبي لن أتفوه بشيء.

– أتتنكرين لكل شيء، لكن لِمَاذا؟

– نور اسمعيني جيداً احملي حديثك هذا وغادري بلا عودة، لا أريد رؤيتك مجدداً ويكفيني ما بي.

كيف تركَتني ملقاة وفتحت الباب على مصراعيه مغادرة؟ هل كنت أطارد وهماً منذ البداية؟

هل كنت أنتِ أنت؟

أي جنون هذا، وقفتُ والصدمة تجرُني متثاقلة نحو باب الخروج، مثواي الأخير. إلى أين ستحملك أمواج الحياة يا «نور» وقد غرق للتو شاطئك الوحيد؟

تكسرتْ المرايا، فقط وجهك كان معكوساً على الشقوق مشوهاً. العتمة لم توقف شهوة المرآة في تلطيخكِ بكِ. أشلاؤكِ ملقاة على مستنقعات التيه وغاباته، وأنتِ بدونكِ تسيرين لاواعية كالسكير الذي فقد عنوانه في فوهة الزجاجة الأولى. قضمتُ تفاحتك يا آدم ثم ماذا؟

لا شيء يمنع عوراتي، لا سلام يعود لي وقد اكتمل نضوج الجحيم بي كي يحرقني على أرضه التي تحمل نعت الحياة بلا صفاتها.

كيف أكملتِ يومكِ بعد قتلي يا «صفاء»؟

يا لسذاجة السؤال، كما يفعل الجنود في نهاية الحرب. يعودون لأوطانهم، يأكلون ينامون يتزوجون، متجاوزين الجثث التي سكنت أصابعهم ورصاصهم. أفقتُ على صوت أعرفه حق المعرفة، قادم من الماضي يحمل على كتفه صُناع حكايتي الأوائل.

– وجدتكِ أخيراً، آن الأوان كي أزيل عاركِ عن ضعف أبي وكنيتي.

– أخي «خالد» كم كبرت، ليتكَ تعلم كم أشتاقكَ و...

– لقد قتلتِ أختي بهروبك، واليوم بسكيني هذا سأنتقم لها وأغسل عارنا.

– لا إياك يا حبيبي ما زال المستقبل أمامك باسماً لا تهدر شبابك.

– أي مستقبل وقد وُصمتُ بعارك.

– أرجوك اسمعني أتهدر قادمكَ في جثة ميتة، لقد متُ يا أخي، أيعيش جسد غادرته الروح! اليوم سأقضي على هذا الجسد بيدي، سأذيبه مثل كومة أسئلة حملتها رياح الخريف ورحلت.

– وأحمق أنا كي أصدقكِ، محاولة جيدة.

أخرجتُ علبة الدواء بسرعة من جيبي، فتحتُها بهستيرية أفقدَته قسوته، وألقيتُ الحبوب في فمي دفعة واحدة. الرعب

والحزن تراقصا لهباً في مقلتيه اللتين هزهما دمع أبى السقوط أمامي.

– وتموتين كافرة تباً لك.

– بل أصون ما تبقى من براءَتَك وأذيب ملح الباقي مني في ماء الرحيل المقدس. لا حاجة بي لغد ولا طاقة بي لحياكة أسئلة بلا أجوبة، لم تعد روحي تحتمل.

عُدتُ متثاقلة إلى غرفتي، أنتظر الموت لكنه يتمنع، حاولت الكتابة ولم أجرؤ. خشيتُ ذكر اسم أخي فيُتهم بي، خشيتُ تكذيب نفسي أمام حبري وخشيت تكذيبكِ أيضاً، ماذا أخبر قلمي المنهك؟

أنكِ لم تكوني منذ البداية أم أنكِ تنكرت وكذبت؟

لم أعد اثق بشيء، هل تزوجت وعشت كل ما كتبته؟

الوقت يُذيبني شمعة لهيبها يحرقها. يُجهز على روحها وينحت جسدها مومياء في عذابه الخالد. لمحتُ سكين الطعام على المنضدة، بدت لي السلام الذي أسمو له، مزقتُ يدي بضربة قاسمة ثم سقطتُ، دمائي حملت صورتكِ، هل تسمعينني؟

لستُ بريئة تماماً، ربما أنت بريئة بعض الشيء، التفتتْ الروح صوب «صفاء» وأكملت:

مهما كانت الحقيقة، أنا أغفر لكِ، أتسمعين، أغفر لك.

خرج إعصار أسود من غيوم اللاشيء وابتلع «صفاء» ،صرخت «نور» لالالا أتركها...

ولم تكمل، الإعصار ابتلعها هي الأخرى، تلاشت «صفاء»

وانحدرت هي سقوطاً مباغتاً صوب أسفل لا نهاية له. تخرج دفقات الألم هشة منها، تتصاعد خفيفة للأعلى والسقوط ظمأ يبتلعها في هاويته.

العشق ملكوت ممتلئ بغيوم التيه وضباب الفكرة، يجرّكَ نحو أسفلكَ مضطربا لا واعياً، كموجة لطمها ريح لقيط يدفعها بقوة نحو وجه الرمال. آخر ما يمكن التشبث به الرمال !

تجفُ يُفرغُ الهيام ماؤك، تتدحرج داخل عُمقكَ الأشد تعقيداً وصدقاً. كعاهرة في ملهى التعري، تتجردُ من أقنعتك تسير إلى آخر النفق. نفق معتم رطب بارد، تتعفن من حولك أرواحك جميعها. تملؤك الأرواح ولا تزيد، تسير نحو وجهكَ الحقيقي العاري الرقيق. تُنقبُ عنه، تُخرجه ومن ثم تهبه لمن عشقت.

كيف أنجو من الغوص في بئر لا قعر لها ولا حافة؟

الجمل تغادرها طافية وتثقُل هي. رحلة سواد طويلة تمر بها سريعاً، تجذبها للأسفل أكثر. تدفقٌ مذعور وسط غيوم سوداء وبيضاء، خليط لا يملك من صفاته سوى فحيح اللون، ربما لم يكن يحمل لوناً.

***

همتْ «صفاء» بمغادرة الغرفة لكنها اصطدمت بارتجافات ضربت جسد «نور» فجأة، فتحت الباب مذعوراً وصرخت:

– النجدة شيء ما يحدث هنا.

شيء خطأ أو صواب لا أحد يعرف، اختلط كل شيء علينا، تحولنا إلى قضاة وجناة بلا رحمة، تستخدمنا الحياة في جلدنا

ومتعتها. لا شيء واضح سوى الألم، يعبرنا بأشكال مختلفة وأسباب متعددة، مرض، حرب، ذُهان، أحلام، هُويات مجهولة، أخطاء، سلطة القطيع وحقوق مسلوبة، كل ذلك يحمل اسما واحدا، جلاد واحد، الحياة.

لكن الحياة ليست المُلام الوحيد، ربما اختار جزء منا لعب دور الضحية، كونه الدور الذي يتيح لنا فرصة عدم المقاومة أو السعي نحو التغيير، ربما هو إيمان بعدم جدوى الفعل أمام سطوة المكتوب.

ارتفع أزيز جهاز القلب – معلناً توقفه – ملأ كل شيء، منح الحكاية خاتمة ما، ربما شبه خاتمة.

***

شيزوفرينيا جسد وسام المدني

جُلَّ ما أشعر به رغبة محترقة لإنهاء كل شيء من نقطة بدايته. المتناقضات كما علَّمتني الحياة، بداية شيء تولدُ من نهاية ما قبله. بأقدام عارية أسير نحو ما لا أعرفه علَّه يُريحني. أنا مرهقة، أحتاج (أم) وإن كانت وهمية أختبئ في حضنها ونهاية لكل هذا الخراب القابع على صدري.

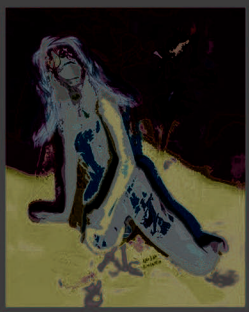

9 786144 861394